رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الدكتور بدوي طبانه

أبو هلال العسكري

ومقاييسه البلاغية والنقدية

دار الثقافة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ابو هلال العسكري

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دكتور بدوي طبانه

أبو هلال العسكري

ومقاييسه البلاغية والنقدية

دار الثقافة
بيروت - لبنان

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ظهرت الطبعات السابقة من هذا البحث منذ أكثر من عدة سنوات ، وأدت عناية الباحثين به إلى نفاد تلك الطبعات ، وظهرت الحاجة إلى إعادة طبعه ، ليكون في متناول الباحثين والدارسين .

وقد كان في طول العكوف على مادتي البلاغة والنقد ، ومزاولتهما بالدرس والتدريس ، ما يقتضي تناول هذه الدراسة بالتعديل والتبديل ، والإضافة والحذف ، سواء من الناحية الموضوعية أو من الناحية المنهجية ، وفقاً لما هدت إليه إدامة النظر ، وتقليب جوانب الفكرة ، وطول التنقيب في الأصول والمراجع ، وما جد في هذه الدراسات التي يعرض لها هذا الكتاب من الفكر والآراء .

وكان إلى جانب هذا الاعتبار اعتبار آخر ، وهو أن هذا البحث في صورته الأصلية التي رآه عليها الناس يمثّل عقلية كاتبه في وقت من الأوقات ، ويسجل مرحلة من مراحل التطور الذهني ، لم أرد إخفاء معالمها عن القارىء ، وإن كنت أقدر حاجة الباحث إلى الوقوف على الصورة النهائية للموضوع ، ومعرفة ما استقر عليه تفكير الكاتب ، ولكن هيهات أن يقف تيار المعرفة أو يستقر التفكير عند درجة لا يتعداها ، أو أن يكون الرأي بالغاً ما بلغ من الصدق والأصالة هو الكلمة الأخيرة في الموضوع .

وقد توالت لنا بعد هذا البحث بحوث في دائرة البلاغة والنقد ، وكل

بحث منها يمثل تطور الفكرة في ذهننا ، وربما كان في بعضها ما يسد النقص ، ويوضح ما استبان من وجوه الغموض أو الوهم الذي قد يراه القارىء .

وكان لهذين الاعتبارين أثرهما في هذه الطبعة الجديدة التي حاولت فيها الإبقاء على الأصل ، وتناولته بما لم أجد منه بداً من الإصلاح والتهذيب اللذين دعت إليهما معاودة النظر ، والإلمام بأطراف الموضوع .

والحمد لله في الأولى والآخرة .

بدوي أحمد طبانة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تمهيد

البلاغة علم من العلوم الإسلامية استنه المسلمون أول ما استنوه لخدمة دينهم . والذود عن قرآنهم ، لأن ثمرة البلاغة كما رأوها في أول عهدهم بها هي في فهم المعجزة الكبرى لنبيهم ، وهي القرآن الكريم وإدراك إعجازه ، وإعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة ، وهو أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها ، وجودة رصفها وتركيبها ، وهذا هو الإعجاز التي تقصر الأفهام عن إدراكه ، كما يقول العلاّمة ابن خلدون [1] .

والقرآن كلام الله ، لا سبيل إلى إدراك إعجازه ، والوقوف على سر بلاغته إلاّ باستعراض المأثور عن فحول المنظوم من الكلام والمنثور ، واستيعاب أساليبهم في التعبير ،وموازنتها بأساليب القرآن إذ كان القرآن عربياً، نزل بلغتهم التي حذقوها ، وعدّوا الإجادة فيها مناط الشرف ، حتى يكون للموازنة محلها ، وحتى يكون الحكم بالإعجاز قائماً على دعائم يؤيدها العقل ، ويطمئن إليها التفكير .

فالأساس الذي بنيت عليه البلاغة أولا دراسة أساليب القرآن في التعبير ، ومقابلتها بأساليب البلغاء ؛ ثم استخلاص عناصر الجودة في الأولى ؛ ومواضع التقصير في الثانية ؛ ثم موازنة الآي من التنزيل بالجيد من كلام العرب ، ليبين فضل الكتاب على كلام الفصحاء الذين استوت لديهم ملكة البيان ، واعترف لهم البشر فيه بالإجادة والإتقان .

وكان من الطبيعي أن تتطور تلك النظرات إلى دراسات لا تقف عند القرآن وإدراك إعجازه ، لتحقيق تلك الغاية الدينية ، بل تجاوزت تلك الغاية

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ـ ٥٥٢ (طبعة المكتبة التجارية ـ القاهرة) .

إلى غاية شبيهة بها ، وهي تحقيق النص الأدبي ، وإدراك ما حوى من أسباب التسامي أو الاتضاع ، بموازنة بين الفنون الكلامية ، وعرض ألوان مختلفة من الشعر المتشابه في الفكرة ، أو في الأداء ، والنثر المتقارب في الغرض أو الاتجاه ، والحكم لهذا أو لذاك ، والإشادة بالمجيد الحاذق من الذين صدر عنهم هذا الفن ، وبهذا أخذ هذا الفنّ النقدي يتجرّد رويداً رويداً من الباعث إليه والحافز عليه ، وهو حافز ديني كما قدمنا .

ولقد استتبع هذا دراسة الألفاظ من حيث هي ألفاظ ، ومن حيث دلالتها على المعاني ، وما اشتملت عليه من فكرة رائعة ، أو حكمة بالغة ، أو مثل شرود ، أو إصابة الغرض الذي يرمي إليه الفن الكلامي ، أو تحقيق معالم الأصالة ، أو الاهتداء إلى مظاهر الاتباع والتقليد في صناعة الكلام . وكانت هذه الدراسات تنهل من معينين :

أحدهما : الذوق الفطري الذي هو المرجع الطبيعي الأول في الأحكام على الفنون الإنسانية ، ومنها الأدب ، فيجد القارىء أو السامع في بعض الأساليب من جرس الكلمات وحلاوتها ، والتئام التركيب ، وحسن رصفه ، وقوة المعاني وفخامتها ، وسمو الخيال ، ما لا يجده في بعضها الآخر ، فيحكم للأولى دون الثانية من غير أن يحاول التماس العلة لما أصدر من حكم ؛ أو محاولة التعبير عنها .

وإعجاز القرآن قد يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي ، وحصول ملكته ، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه ، فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه — كما يرى أبن خلدون — أعلى مقاماً في ذلك لأنهم فرسان الكلام وجهابذته ، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه [1] .

والآخر : البصيرة النقادة ، والعقل القادر على المفاضلة والموازنة والتعليل

---

(١) المقدمة ٥٢٢ .

وصحة المقدمات ، لتبنى عليها أحكام يطمئن العقل إلى سدادها ، ويسلم بصحتها ، لأن أذواق الناس متباينة ، فكان لا بد من أساليب العلم للإقناع بأن هذا الأثر الأدبي يفضل ذاك . وهذه الأساليب العلمية هي التي يلتقي عندها الناس جميعاً ، إذ أنها خاضعة لأحكام العقل التي لا مناص من التسليم بصحتها ، والمتنكر لها متنكر لإنسانيته وفكره الذي يميزه من أنواع الحيوان .

كان لا بد من الجمع بين المذهبين إذ كان من العسير على الباحث أن يغفل أحدهما ، لأن الأول وهو تحكيم الذوق متصل أشد اتصال بطبيعة الفن ، والذوق يجنح إلى الخصوصية ، ولأن الثاني أدعى إلى المشاركة فيما ارتضاه الناظر في هذا الفن ، وتلك المشاركة هي التي تجعل لأحكامنا قيمتها من التقدير « ولكي نرد الخاص إلى العام ونحدد نسب العنصر الفردي إلى العنصر الجماعي في مؤلف أدبي ونرجع العبقرية إلى مصادرها دون أن نحط منها ، ونرى فيها مركباً لا نقف به عند الجمع ، ونجعلها تعبر عن الجمهور المتضع دون أن نردها إليه — كم في كل هذا من صعوبات ! وكم فيه من شكوك ! ثم كم من دراسات دقيقة لا بد من القيام بها ! وفي تضاعيفها يمكن أن تنساب أهواؤنا الخاصة ؟ [1] .

ومن ثم كانت الخطوة التالية خطوة طبيعية ، وأعني بها دور التقعيد، ومحاولة وضع الأسس التي تصدر عنها الأحكام ، ليكون للأدب مقاييس يقاس بها ، وموازين تقدر بها قيمته ، شأنه في ذلك شأن غيره من ظواهر الحياة المادية والمعنوية ، ومن ثم اتسم النقد الذي كان ذوقاً بسمات العلوم من العناية بالتحديد وبالتبويب ، وبحصر الأقسام وتنظيمها .

وليس يحط من شأن النقد الأدبي أنه نهج فيه منهج علمي ، بل ربما كان هذا المنهج ضرورياً لمن يحاول أن يقنع الناس بصحة رأيه . وسداد نظره .

---

(١) لانسون : منهج البحث في تاريخ الادب ص ٢٥ و ٢٦ — ترجمة الدكتور محمد مندور (بيروت ١٩٤٦م) .

وهذا هو الذي كان من علماء البلاغة العربية الذين وضعوا أصولاً للأدب ينظر فيها الأديب ليتحاشى الخطأ ، ويدرس الناقد نتاج الشعراء والنثار على هدى هذه الأصول . وروح النقد — كما يقول لانسون — علمية مستنيرة ، فهي لا تطمئن في بحثها عن الحقيقة إلى سداد ملكاتنا الطبيعية ، بل تنظم خطاها تبعاً للأخطاء التي عليها أن تتجنبها ، إذ توضح النقط الأساسية التي نتعرض فيها للأخطاء وفقاً لطبيعة موضوعنا ، وملابسات دراستنا » .

* * *

فإذا كانت البلاغة العربية قد أخذت بأساليب العلم ، وأفادت من المعارف المستنيرة في المنطق والفلسفة ، فلا غرابة في ذلك ، وقد رأينا المحدثين من علماء الغرب يقرون هذا المنهج ، ويرونه طريق السداد ، فليقرأ هذا القول جيداً أولئك الذين نفروا الناس من هذا التراث ، وبغضوا إليهم هذا الأسلوب المستنير في دراسة الأدب .

وفي عصرنا هذا الذي يدعى « عصر الانبعاث » نطالع بين حين وحين حملات منكرة على هذا التراث الفكري ، حتى لتبدو هذه الحملات معاول هدم لا عوامل بعث ، وتعرض علم البلاغة لأشد هذه الحملات ، وهو العلم الذي أوضح معالمه ، وأرسى قواعده جماعة من صفوة العلماء ، شهدت لهم الدنيا بطول الباع ، ورسوخ القدم ، والتمكن من الثقافات ، مع حظ عظيم من الذوق الفني المرهف كان عدتهم فيما هم بسبيله من دراسة الأدب ، ومحاولة وضع أسس علمية ، لتنهض عليها تلك الدراسة التي تضع أصولاً للحكم عليه ، كما تضع قواعد لصوغه وتأليفه .

بدأت البلاغة بحوثاً قليلة ، وأجوبة مختصرة ، وما لبثت أن أصبحت علماً ذا كيان ، وتراثاً مجيداً بين تراث العقلية العربية ، تعهده أعلام الأدب والمعرفة ، وحسبك أن تعد في طليعتهم أمثال الجاحظ ، وقدامة ، وابن المعتز ، والعسكري والآمدي ، وعبد القاهر ، والخفاجي ، وابن الأثير .

ثم رأينا في هذه الأيام حملات على البلاغة يراد بها التهوين من شأن هذا العلم في صورة دعاوى ، لو سلمنا جدلاً بصحتها لما نهضت مسوغاً للتمادي في هذه الحملات التي لا تستند على منطق صحيح .

ومن جملة هذه الدعاوى قولهم في البلاغة إنها بلاغة الأعاجم ، وليست بلاغة العرب ، يقصدون بهذا القول أن أعلام البلاغة ليسوا من أصل عربي ، وهي التهمة نفسها التي وجهها « رينان » إلى الفلسفة العربية والحضارة العربية .

ومنها أن بعض مباحث البلاغة العربية له نظائر في بعض المباحث النقدية أو البلاغية عند الأجانب ، أي أن هذه الأمة العربية ليست بذات أصالة في ميدان البحث البلاغي ، وبعض أصحاب هذه الدعوى يناقضون أنفسهم إذ تراهم يدعون إلى اغتنام كل فرصة للإفادة أياً كان مصدرها ، في الوقت الذي يرون فيه أن إفادة علماء البلاغة العربية يجعلها غريبة على الأدب العربي والعقلية العربية ومن ثم لا تصلح مقياساً له ، مع هيامهم وولوعهم في أيامنا بتطبيق نظريات غريبة لا تمت إلى أدبنا وعقليتنا بسبب من الأسباب ، حتى الأدب نفسه سرت إليه هذه البدعة ، والمجدد عند هؤلاء من يتصيد خياله من خيال الغرب ، ومن يبعد عن أساليب لغته وأحاسيس قومه ، وما عرف عنهم من نظم وتقاليد .

ومنها أن البلاغة بمقاييسها التي انتهت إلى ما رسم أبو يعقوب يوسف السكاكي في « مفتاح العلوم » قد تحجرت ، ولم تعد صالحة لإرهاف الملكات التعبيرية الفنية .

ولعل هناك غير هذه الدعاوى للغض من شأن هذه البلاغة وخطرها .

والذي نذهب إليه أن تولي جماعة من غير العرب – إن كان ذلك صحيحاً – وضع أسس علم البلاغة وفلسفتها لا يغض من شأنها ، ولا شك أن النظر إلى قيمة العمل في ذاته ، ومبلغ استطاعتنا الإفادة منه أجدى من النظر إلى ذات العامل أو جنسه .

ألا ترى أن كثيراً من أعلام النحو العربي لم يكونوا عرباً ؟ ومع هذه الحقيقة لم يقل واحد من المنصفين إن أعجميتهم كانت مدعاة لدفع الأخذ بأقوالهم . وكذلك الذين أخذوا كثيراً من أصوله من ثمرة اجتهاد من لم يكونوا عرباً ؛ وليس يضيرنا أن تولى هذا الأمر من ليس أصله منّا ما دامت له يد في خدمة لغتنا وقوميتنا .

والعربي في نظرنا من أسدى إلى العروبة يداً فيما استطاع . ويشرف العرب أن ينتسب إليهم الأفاضل بأمثال هذه العوارف ، ويحط من شأنهم أن يدعي العروبة كل غمر جهول ، وإن كانوا الحصى عداً ، والإسلام فكرة وحدت بين معتنقيه ، وجعلتهم سواسية في كل شيء ، كما جعل مسئوليتهم واحدة في فهم القرآن ، وفي وجوب الذود عنه ، فليس بين المسلمين تفاوت في هذه المسئولية .

أما أن علماء البلاغة العربية كانت لهم قدم في فهم أساليب غيرهم في النقد الأدبي والتأليف البلاغي ، فذلك سبب تقدير ، لا مدعاة ثلب وانتقاص ، ولا يسعنا إلاّ أن نرحب بكل تقدم فكري ننهض دعائمه على أساس من ثقافتنا الأصيلة ، وانتفاع مما جد في نواحي الفكر عند غيرنا ؛ ونحن مع ذلك نقر القول الثالث إذ من الثابت أن بلاغة العرب قد شابها كثير من اصطلاحات الفلاسفة والمناطقة والمتكلمين ، مما جعل البلاغة في بعض مباحثها ، وهي الفن الذي يعالج البيان ، ويوضح ما فيه من أسباب الروعة والجمال ، متحجرة على طالبها . ولكنها على الرغم من هذه الظاهرة تنهض على أساس من الدراسة الفنية لا يمكن أن يجحد وذلك ما يدعو إلى العناية بها ، والدعوة إلى إحيائها وتجديدها ، لا إلى الترهيب منها ، ومحاولة القضاء عليها .

ولقد رأيت أن هذه الجهود التي بذلها الأسلاف جديرة بالتعهد والسقيا ، والعود إليها بالبحث والتنقيب ، لاستخلاص ما حوت من أصول تصلح أن يدرس الأدب على أساسها في عصرنا وبعده ، كما كانت صالحة لذلك في الزمان الذي ألفت فيه ، فإن هذا البعث أولى بنا وأجدر حتى لا نفقد صلتنا

بهذا الماضي المجيد ، وهذا أكرم علينا من التماس المعين من ثقافة لا تمت بسبب إلى ثقافتنا ، وإن كنا لا نجحد وجوب الانتفاع من كل ثقافة أياً كان مصدرها .

وأولى الأعمال بنا في عصر الانبعاث ، وعصر القومية العربية الصاعدة أن نشمر عن ساعدنا الجد في هذا السبيل ، فنحيي هذا التراث ، وننفض عنه غبار الزمن ، ونبعثه من جديد بعثاً يلائم ما جدّ في بيئتنا ، وما طرد على عقليتنا في عصر النهضة ، لنبني عليه صرح مجدنا الفكري الذي يعتمد على المعالم الأصيلة في تفكيرنا .

* * *

وأبو هلال العسكري واحد من أولئك الذين وضعوا اللبنات الأولى في هذا الصرح العتيد ، وكتاب (الصناعتين) من أعظم المؤلفات النقدية والعلمية التي عالجت الأدب ، ووضعت لأركانه حدوداً ومقاييس أخذها غيره من الذين نسبت إليهم ، ونفقت كتبهم ، وأصابوا من العناية والدرس بعض ما يستحقون ، مما لم يصب الرجل منه إلاّ القليل .

وقد أردت في هذا البحث أن أحقق في حدود استطاعتي ناحية من تلك النواحي التي دعوت إليها ، فتخيرت هذه الشخصية الجليلة أعرّف بها ، وأنوّه بجهودها ، ومنزلتها بين رجال البلاغة والنقد ، وأثرها في الذين خلفوها ، وعمدت إلى المقاييس التي وضعها أبو هلال في البلاغة العربية والنقد الأدبي ، فأشدت منها بما يستحق الاشادة ، وما يصلح أن يكون مقياساً من مقاييسنا التي نقيس بها أدبنا الحاضر واللاحق ، كما قيس بها أدب السابقين ، وقلت قولي فيما لا جدوى منه مما أثاره من فكر وآراء .

وقد نظمت البحث في ستة فصول :

(١) الفصل الأول — في التعريف بأبي هلال .
(٢) الفصل الثاني — في النقد والبلاغة قبله .
(٣) الفصل الثالث — في المنابع التي استقى منها بلاغته .
(٤) الفصل الرابع — في منهجه في البحث البلاغي .
(٥) الفصل الخامس — في مقاييسه النقدية .
(٦) الفصل السادس — في بلاغته وأثرها في البلاغة والبلاغيين من بعده .

وأرجو أن أكون في هذه الفصول قد وفقت إلى الكشف عن جانب له أهميته من جوانب النشاط الأدبي والفكري للعقلية العربية في عصر من عصورها الزاهرة . والله المستعان .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

أبو هلال

بلده . حياته . اساتذته . ثقافته . آثاره

— ١ —

« عسكر مكرم » مدينة من كور الأهواز « خوزستان » بين البصرة وفارس ، ومكرم الذي تنسب إليه هو مكرم الباهلي ، وهو أول من اختطها فنسبت إليه [١] . ثم أخذت هذه المدينة تنمو وتزدهر ، وتعمر بالناس ، حتى كان من أبنائها العلماء الأعلام ، الذين كانت لهم اليد الطولى في خدمة العلم ، وحفظ تراث العروبة ، حتى أدوه إلى الأمة العربية ، وأضافوا إليه ما لديهم من ثمرات العقل والمعرفة ، وما وهبوا من قدرة على التذوق والتصرف .

وكان في طليعة أولئك الأعلام الذين أنجبتهم « عسكر مكرم » عالمان جليلان كتبا لهذا البلد مجداً وخلوداً في القرن الرابع ، أحدهما أبو أحمد العسكري والآخر هو أبو هلال العسكري .

---

(١) وقيل هو مكرم بن معزاء الحارث أحد بني جعونة بن الحارث بن نمير ابن عامر بن صعصعة . وكان صاحب الحجاج بن يوسف ، وقيل مكرم كان مولي للحجاج ارسله لمحاربة خرزاد بن بارس حين عصى ولحق بمدينة (ايزج) بين خوزستان واصبهان في وسط الجبال ، وتحصن في قلعة تعرف به ، فلما طال عليه الحصار نزل مستخفيا ، ليلحق بعبد الملك بن مروان ، فظفر به مكرم ومعه درتان في قلنسوته ، فأخذه وبعث به الى الحجاج ، وكانت هناك قرية قديمة بناها ، ولم يزل يبني ويزيد فيها حتى جعلها مدينة وسماها عسكر مكرم (وفيات الاعيان ج ٤ ص ١٦٢ . طبعة دار المأمون ـ القاهرة) .

وقد كان أبو أحمد العسكري أحد الأئمة المذكورين في التصرف في أنواع العلوم ، والتبحر في فنونها ، تنقل بين بغداد والبصرة وأصفهان وغيرها من الحواضر ، وأخذ عن فحول العلماء كأبي القاسم البغوي ، وأبي بكر بن دريد ، ونفطويه وغيرهم ، وأكثر وبالغ في الكتابة ، واشتهر في الآفاق بالدراية والإتقان ، وانتهت إليه رياسة التحديث والإملاء للآداب ، والتدريس بقطر خوزستان ، ورحل إليه العلماء الأجلاّء ، للأخذ عنه والقراءة عليه [1] أووصفه ابن خلكان بأنه أحد الأئمة في الآداب والحفظ ، وبأنه صاحب خبار ونوادر ، وله رواية متسعة وتصانيف مفيدة [2] . . . ولم تزل شهرته في ازدياد ونجمه في صعود حتى توفي سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة .

والأدلة على ما بلغ أبو أحمد من بعد الصيت ونباهة الذكر كثيرة ، وحسبنا منها أن الصاحب ابن عباد كان يتمنى الاجتماع به ، وكان منتجع العلماء والأدباء وذوي المواهب إلاّ أبا أحمد الذي كان يتأبى عليه ، فكان الصاحب يكاتبه على ممر الأوقات ، ويستميل قلبه ليشخص إليه ، فيعتل عليه بالشيخوخة والكبر ، إذا عرف أنه يعرض بالقصد إليه والوفود عليه ، فلما يئس منه قال لمخدومه — مؤيد الدولة بن بويه — : إن عسكر مكرم قد اختلت أحوالها ، وأحتاج إلى كشفها بنفسي ! . . فأذن له بذلك ، فلما قرب من عسكر مكرم كتب إلى أبي أحمد كتاباً يتضمن نظماً ونثراً ، وكان مما ضمنه من المنظوم قوله :

ولمـــا أبيتُمْ أنْ تَزورُوا وقُلْتُمُ ضَعُفْنا فلمْ نقدرْ على الوخَدَانِ
أتينا كُمُ من بُعدِ أرضٍ نَزُورُكُمْ وكمْ منزلٍ بكرٍ لنا وعَوانِ
نُسائلكمْ هل من قِرًى لِنَزيلِكُمْ بملءِ جفونٍ لا بملءِ جِفانِ

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي : ص ٢٢١ (مطبعة السعادة ــ القاهرة ١٣٢٦هـ) .
(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ١٥٦/٤ (طبعة دار المأمون ــ القاهرة) .

فلما قرأ أبو أحمد الكتاب أقعد تلميذاً فأملى عليه الجواب عن النثر نثراً ، وعن الشعر بشعر على وزنه وروييّه ، آخره البيت المشهور :

أهُمّ بأمرِ الحَزْمِ لو أستطيعُهُ وقد حِيلَ بين العَيْرِ والنزوانِ [1]

وبعث به إليه في الحال ، ثم التقيا فأقبل عليه الصاحب بكليته بعد أن أقعده في أرفع موضع من مجلسه ، وتفاوضا ، في مسائل ، فزادت منزلته عنده وأخذ أبو أحمد منه بالحظ الأوفر ، وأدرّ على المتصلين به إدراراً [2] .

وإنما أوردت ما أوردت عن أبي أحمد لشدة صلته بموضوعنا ، لأنه علم الأعلام الذين خرجتهم عسكر مكرم ، ولأنه عاش في القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه أبو هلال ، ثم لما هو أهم من هذين السببين : ذلك أن أبا أحمد يكاد يكون الأستاذ الأوحد لأبي هلال ، وصاحب الأثر البعيد في تكوينه ، مع اختلاف الرجلين في منحى التفكير ، اختلافاً تمليه الطبيعة التي تباين بين الأشياء ، وإن تظاهرت على تكوينها عوامل واحدة .

وتلك الصلة الوثقى بين الرجلين ، التي أكدتها وحدة الدار . ووحدة الزمان والتقارب في الفكر ، والأستاذية والتلمذة ، ثم القرابة القريبة . كل أولئك جعل القدامى يخلطون بين الرجلين ، ويتجشمون كثيراً من الجهد في تمييز أحدهما من الآخر .

ويشير ياقوت إلى هذا الخلط بين الرجلين في أماكن عدة من معجمه منها قوله : « وطال تطوافي وكثر تسآلي عن العسكريين أبي أحمد وأبي هلال

---

(١) هذا البيت من أبيات قالها صخر بن عمرو بن الشريد السلمي أخو الخنساء في زوجه وقد ملت منه لطول مرضه ، فقال :

أرى أم صخر لا تمل عيادتي وملت سليمى مضجعي ومكاني
واي امرىء ساوى بأم حليلة فلا عاش الا في شقا وهوان
أهم بأمر الحزم لو استطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

(٢) معجم الادباء ٢٥١/٨ ووفيات الاعيان ١٦٠/٤ .

فلم ألق من يخبرني عنهما بجلية خبر ، حتى وردت دمشق . . . ففاوضت الحافظ تقي الدين إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن بن الأنماطي النضاري المصري . . . فذكر لي أن الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السّلفي الأصبهاني لما ورد إلى دمشق سئل عنهما ، فأجاب فيهما بجواب لا يقوم به إلاّ مثله من أئمة العلم ، وأولي الفضل والفهم »[1] .

وهكذا كان السؤال عن الرجلين يستنفد مثل هذا الجهد من إطالة التطواف وكثرة التسآل . ولا يقوم بالجواب عنه إلاّ مثل فلان من « أئمة العلم وأولي الفضل والفهم » !

ثم يورد في ترجمة أبي هلال ما نصه : وكان لأبي أحمد تلميذ وافق اسمه اسمه ، واسم أبيه اسم أبيه ، وهو عسكري أيضاً . فربما اشتبه ذكره بذكره إذا قيل : الحسن بن عبد الله العسكري الأديب فهو أبو هلال[2] .

ولم يسلم المحدثون من الخلط بين الرجلين ، فوقعوا في أخطاء علمية ، ونسبوا لهذا بعض آثار ذاك كما سترى في نهاية الفصل ، وكأنهم يرون الرجلين رجلاً واحداً اتحد اسمه ، وتعددت كناه .

— ٢ —

وأبو هلال ، هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري ، نشأ كما نشأ أبو أحمد بعسكر مكرم ، وأقام فيها حياته . والظاهر أنه لم يبرحها أكثر عمره ، ولا نجد في مصدر من المصادر التي بين أيدينا شيئاً عن تنقله ، أو انتجاعه بلداً آخر ، كما نقرأ عن أبي أحمد ، ولا نجد في

---

(١) معجم الادباء ـ ٨/٢٣٤ .
(٢) معجم الادباء ٨/٢٥٨ .

شعره ما يدل على ذلك سوى ذكره « القصران » التي قضى فيها شطراً من شبابه ؛ وفيها يقول :

سقَى اللهُ لي قصراً بقصرانَ مونِقاً سحبْتُ به في اللهوِ أعطافَ مِئزَري
كأنّ سَقِيطَ الثلجِ في جَنَباتِهِ صفائحُ كافورٍ على طَوْدِ عنبَرِ

حياة أبي هلال :

عاش أبو هلال حياته مغموراً خامل الذكر ، فلم يحظ بما هو خليق به من المجد ونباهة الشأن ، كما حظى غيره من العلماء والأدباء في العصر الذي عاش فيه ، وإن كان قد حظي بعد موته بالخلود فيما ألف وكتب ، وقدره الناس بعد موته ما لم يكونوا يقدرونه في حياته ، واعترف له العلماء بالنبوغ والسبق .

ونستطيع أن نجمل أسباب خمول ذكر أبي هلال في حياته فيما يأتي :

(١) أنه قضى أكثر حياته — كما مر — في عسكر مكرم لم يبرحها إلى غيرها ، وكثيراً ما يصطحب النقلة طيران الشهرة وذيوع الصيت ، وأكثر الذين عرفنا من العلماء والأدباء هم الذين جابوا الآفاق في سبيل العلم والتحصيل ، والتعليم والتدريس ووفدوا على الخلفاء والوزراء ووفد إليهم الناس ، واستطاع كثير منهم بذلك أن يخلفوا مجداً ، وأن يورّثوا مالاً ، ولم يجتمع لأكثرهم من المواهب والفكر ما اجتمع لأبي هلال العسكري .

(٢) يبدو أن أبا هلال لم يكن من أسرة لها شأن في سياسة أو رياسة أو ولاية عمل من أعمال الدولة — وإن كان لبعض رجالها مجد علمي حفظه الزمن ومثل تلك المناصب والأعمال ترفع أصحابها والمنتسبين إليهم ، وتجعلهم مناط آمال الناس ، وملتقى مدائح الشعراء .

(٣) ولعله أهم الأسباب : أن أبا هلال كان معاصراً لأبي أحمد الحسن ابن عبد الله العسكري ، الذي مرّ ذكره .

وقد بلغت شهرة أبي أحمد ما عرفنا ، وحسبه أن يرحل في طلبه ، ويشتهي الجلوس إليه مثل كافي الكفاة الصاحب بن عباد ، وهو منتجع العلماء والأعلام ، ومن كان ينافس الملوك والخلفاء في استجلاب المدائح وإغداق الصلات ، ومهبط كل ذي موهبة من شتى البقاع ، فيزداد مجلسه بهم بهاء ، ويفيدون من الرحلة إليه جاهاً وثراء ، ولم يزد أبو هلال على أن يكون تلميذاً من تلامذة هذا الشيخ ، وقلما نبغ تلميذ في حياة أستاذه . ولا سيما إذا كان التلميذ رجلاً مثل أبي هلال في تواضعه وانطوائه على نفسه ، لا كبديع الزمان الهمذاني ، وقصة تطاوله على أبي بكر الخوارزمي ذي الفضل عليه والإحسان إليه معروفة .

ولقد فاز أبو أحمد من المجد بأوفى نصيب وأوفر حظ . وبقي مجد أبي هلال متواضعاً متطامناً ، وتلك إحدى جنايات الأساتذة على تلاميذهم ! . .

هذه في نظرنا أهم الأسباب في خمول الرجل الذي ترك هذه الآثار ، ولم يحفل به المؤرخون ، ولم يعن به أصحاب التراجم والسير ، كما حفلوا بغيره ممن هم دونه علماً وفضلاً .

* * *

وإذا طالعنا ترجمة حياة أبي هلال في مظانها لم نظفر من المعرفة بها إلاّ بالقليل الذي لا ينقع غلة ، ولا يطفىء ظمأ ؛ على أن أكثر كتب الأخبار أغفله إغفالاً .

ومن هؤلاء الذين أغفلوه ، فلم يأتوا له على ذكر ابن خلكان الذي لم يعدّه في وفيات الأعيان ، وإن كان يفيض في ذكر أستاذه أبي أحمد ، كما يفيض في ذكر غيره من مشهوري الرجال والنساء .

والذين تعرضوا لترجمته لم يخبرونا بتاريخ مولده . وعلى الرغم من تحديدهم مولد أبي أحمد تحديد استقصاء « يوم الخميس لست عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلاث وتسعين ومائتين » فإنهم لم يظفروا حتى بتاريخ تقريبي لمولد أبي هلال .

على أن من الممكن أن نحدد تاريخاً تقريبياً لمولده ، إذا علمنا أن وفاته كانت سنة خمس وتسعين وثلثمائة ، وهي السنة التي فرغ فيها من تأليف كتابه « الأوائل » ويقول ياقوت في ذلك : وأما وفاته — أبي هلال — فلم يبلغني فيها شيء ، غير أني وجدت في آخر كتاب « الأوائل » من تصنيفه : « وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلثمائة »[1] .

وإن نحن سايرنا الذين قالوا إن وفاته كانت في هذه السنة (٣٩٥ هـ) التي أنهى فيها إملاء كتاب « الأوائل » وإن سنه إذ ذاك كانت خمساً وثمانين سنة ، كما أنشد لنفسه قبيل وفاته :

لي خَمْسٌ وثمانونَ سَنَهْ فإذا قَدَّرْتَها كانتْ سِنَهْ
إنَّ عُمْرَ المرءِ ما قد سَرَّهُ ليسَ عمرَ المرءِ مَرُّ الأزمنَهْ

كان في استطاعتنا أن نحدد سنة مولده سنة عشر وثلثمائة على وجه التقريب ، ونخلص من هذا أن أبا هلال كان من رجال القرن الرابع مولداً وحياة ووفاة .

أما تقلب الرجل في الحياة ، وتصرفها فيه وتصرفه فيها ، فلا نكاد نعرف عنه إلاّ القليل ، وليس فيما روى الرواة شيء عن تفصيلات هذه الحياة ، وليس لدينا إلاّ مؤلفاته الكثيرة الزاخرة ، والمأثور مما نقل إلينا من شعره ، وهذه المؤلفات وذلك الشعر ، تدلان على أن أبا هلال قد أنفق هذه الحياة في العلم وتحصيله ، والجلوس إلى الأساتذة ، والتأليف في هذه الألوان الثقافية التي أنفق فيها عمره ، وهي التي كانت تلائم استعداد الرجل وثقافته .

وكان أبو هلال مدفوعاً إلى العلم وتحصيله برغبة شديدة ، وهوى عارم ، يدل عليه مؤلفاته الكثيرة ، واختلاف مباحثها ، وهي تدل على علم غزير ،

---

(١) معجم الادباء ٨/٢٤٦ .

وثقافة متعددة النواحي ، واطلاع واسع ، وقدرة فريدة في علمي الرواية والدراية ، لا يحس في ذلك أيناً ولا تعباً ، وإن وجد منه شيئاً فإنه لذيذ المذاق . وقد فصل ثقافته ، ووصف لذته في تحصيلها في هذه الأبيات :

وليالٍ أطَلْنَ مُـدَّةَ دَرْسي ... مثلما قد مَدَدْنَ في عمْر لهْوي
مَرَّ لي بعضُها بفقْـه وبعضٌ ... بين شعْرٍ أخذتُ فيه ونحوِ
وحَديثٍ كأنّهُ عِقْدٌ رَيّا ... بتّ أرْويهِ للرّجالِ وتروي[1]

قد وهب أبو هلال حياته للعلم والدرس في حب له وحرص عليه ، ولذة وشغف به ، فلم يسم به كما سما بغيره ، ولم يتح له من الرزق ما يكفل له حياة رخية ، فبرم بالحياة ، وبرم بالناس الذين لم يقدروه ، ولم ينل منها ما تتطلع إليه مثل هذه الروح الهائمة في سماء العلم والمعرفة ، فيحول الحب كراهية وسخطاً :

إذا كانمالي مالَ مَنْ يلقُطُ العجَمْ ... وحالي فيكم حالَ من حاكَ أوحجمْ
فأينَ انتفاعي بالأصالةِ والحِجى ... وما ربحتْ كفّي من العلمِ والحِكمْ
ومَن ذا الذي في الناس يُبصرُ حالتي ... فلا يلعن القرطاس والحبرَ والقلمْ[2]

لا شك أنه بلغ في هذه الأبيات غاية السخط على نفسه وعلى الناس ، وعلى العلم الذي أفرغ فيه جهده ، وبذل في سبيله شبابه ، ثم عاد منه صفر اليدين ، خاوي الوفاض ، ومن دونه — ومن معاصريه — علماً وأدباً تجود لهم الدنيا بخيرها ، وتفيض عليهم بدرها ، وتفتح لهم خزائن الأرض ، ويجارون ذوي الثراء في خصب الحياة ورغدها .

---

(١) معجم الادباء : ٨/٢٦٧ .
(٢) المصدر نفسه : ص ٢٦١ .

لا جرم أن يعبر الرجل بعد ذلك عن سخطه بمثل هذا الشعر ، وأن يتجاوز السخط على النفس إلى السخط على الدنيا التي لا تعدل في الناس ، وأن يستسلم إلى اليأس الذي ليس وراءه بصيص من الأمل :

أرى الدنْيــا تميلُ إلى أناسٍ لئـــامٍ مالَنــــا فيهم صلاحُ
بَقيتُ كطائرٍ في قَبْضِ بـــازٍ جريحِ الجسمِ هيضَ لهُ جَناحُ

وعلى الرغم من هذه النقمة الناقمة على الناس والحياة ، يأبى على الرجل حياؤه وصون ماء وجهه أن يبذله في استجداء الموسرين ، أو التمسح بعتاب الحاكمين . وتلك شيمة العلماء الذين يعرفون أقدارهم ، ويحافظون على كرامتهم ، وكرامة العلم الذي ينتسبون إليه ، ويسمون بعملهم على الدنيا وعرضها في زلفى رخيصة ، وملق خادع ، وثناء كاذب .

وكان ذلك الحفاظ الشديد على الكرامة يبعث الرجل في طلب الرزق من طريقه ، فتراه يجلس في الأسواق ، يتلمس الرزق من تجارة البزّ ، وبيعه للناس ، فيعيش من عمل يديه ، ويدرك بالبيع والشراء ما لم يدرك بعلمه وأدبه .

حتى هذه الحرفة التي احترفها كما يبدو ، لم تجد على أبي هلال ما كان يطمع فيه من رزق حلال ، وهيهات أن يعرف التجارة وحساب الربح والخسارة ، ولو كان في استطاعته أن يخوض هذا الغمار لاتجر بعلمه وأدبه كما فعل غيره ، وضرب في الأرض فانتجع بهما ذوي الثراء ورجال الحكم ، من الذين تنفق عندهم مثل هاتين السلعتين .

وهذا الإخفاق يجدد ثورته على الحياة والناس ، بل إن اضطراره إلى هذا العمل يثير حفيظته من قبل أن يحسب حساب الربح والخسارة :

جلوسيَ في سوقٍ أبيعُ وأشتري دليلٌ على أنَّ الأنامَ قُرُودُ
ولاخيرَ في قومٍ يذلّ كرامهُمْ ويعظمُ فيهمْ نذلُهُمْ ويسودُ
ويهجوهمُ عنّي رثاثةُ كُسوتي هجاءً قبيحاً ما عليهِ مَزيدُ

وهكذا عاش أبو هلال قلق الوساد ، نابي المضجع ، برماً بالحياة في شبيبته برمه بها في كهولته وشيخوخته ، فالشباب يتخطاه ، والمشيب يتغشاه ، ولم يبق إلاّ توقّع الموت والتأهب له :

قد تخطّاكَ شباب وتَغَشّاكَ مَشيبُ
فأتَى ما ليسَ يمضي ومَضى ما لا يَثُوبُ
فتَأهّبَ لِسَقامٍ ليسَ يَشفيهِ طبيبُ
لا توَهّمْهُ بعيداً إنما الآتي قَريبُ

وتراه في هذه الأبيات مؤمناً قوي الاعتقاد ، زاهداً بعد محاولة يائسة في حياة ناعمة ومعيشة رغدة ، يتأهب للقاء الموت غير آسف على عيش قضاه في هم وكمد .

أما حياته الخاصة ، ونعني بها حياته الأسرية ، فلم يصل إلينا طرف منها لا فيما كتب الكاتبون عنه ، ولا في شعره الذي تسنى لنا الاطلاع عليه ، لم نعرف له قصة زواج ، ولم نعرف ما أنجب من أبناء . وهذا ما يرجح لنا أنه لم يَبْنِ بزوجة ، ولم ينجب ولداً ، ولعل هذا هو السرّ في برمه بالحياة ويأسه منها ، إذ لم يجد الشريك الذي يشكو إليه بثّه ، فيستجيب له ، ويُسرّي عنه .

تلك سطور قبسناها وبسطناها من القليل الذي وقع بين أيدينا عن حياة أبي هلال ، ومن شعره المنثور هنا وهناك ، وكأن الزمان والناس اجتمعا على حرب الرجل حياً ، واستطاع هو بهذه الثمرات التي خلفها من آثار جهاده العلمي وكد ذهنه أن يتغلب على حرب الأيام ، فمضى الزمان ، وقضى مؤرخوه ، وحيّ أبو هلال في تصانيفه الباقية ، وآثاره الخالدة .

أساتذة أبي هلال :

وربما كانت معرفة أساتذة العسكري من أهم ما يعني الباحث ، لأن معرفة هؤلاء الأساتذة ، والوقوف على ثقافتهم وآثارهم ، وجهودهم العلمية ، كل ذلك له أثره في الوقوف على ينابيع ثقافته ، وتكوين عقله ، وتنظيم تفكيره.

ولقد أرجع العلماء ثلاثة أرباع فكر الرجل إلى أولئك الذين جلس منهم مجلس التلميذ من المعلم ، وإلى ما وقف عليه من علم سابقيه وتجربتهم ، وجعلوا الربع وحده لمواهبه الخاصة وملكاته وعقله ولبه .

على أن ذلك لم يكن من اليسر بالدرجة التي نظن ، فإن المطالع لآثار أبي هلال ، أو لكتب الطبقات التي تعرضت لذكره ، لا يكاد يخلص منها بما يشتهي في هذه الناحية .

والواقع أن لأبي هلال نوعين من الأساتذة جلس إلى كل منهما ، وأفاد من كليهما علماً وعقلاً ، وأخذ عنهما ما ضمنه هذا التراث الحافل الذي خلفه ، والعلم الذي تمثله وبسطه فيما ألفه .

أما النوع الأول : فأساتذة من اللون المعروف ، شيوخ جلس بين أيديهم ، وتلقى عنهم ما وسعت صدورهم من ألوان العلوم ، وما وسعه الأخذ والتلقي ، وأنصت إلى حديثهم ، وناقشهم فيما وعى عنهم .

وأول أولئك علم أعلام « عسكر مكرم » الحسن بن عبد الله بن سعيد ابن إسماعيل العسكري ، المكنّى بأبي أحمد ، الذي يستدل على أستاذيته لأبي هلال بدليلين واضحين :

أولهما : ما صرّح به المؤرخون لسير الرجال من هذه التلمذة ، وهذا ياقوت ينقلها في أول ترجمته لأبي هلال عن أبي طاهر السّلفي الذي يقول :

وكان لأبي أحمد تلميذ وافق اسمُه اسمَه ، واسمُ أبيه اسمَ أبيه ، وهو عسكريّ أيضاً ، فربما اشتبه ذكره بذكره [1] .

وأورد القفطي في إنباه الرواة في ترجمة أبي أحمد : أن لأبي أحمد من الأتباع علماء أعلاماً كأبي هلال العسكري وأمثاله [2] .

والآخر : ما سجّل أبو هلال فيما وقع بين أيدينا من مؤلفاته ، ولا سيما في أعظم كتبه تداولاً لموضوعنا ككتابي « الصناعتين » و « ديوان المعاني » فهو لا يفتأ يذكر أبا أحمد في أكثر صفحات هذين الكتابين في مثل قوله : — أخبرني أبو أحمد . . . حدثني أبو أحمد . . . أنشدني أبو أحمد . . . روى أبو أحمد . . . إلى غير هذه العبارات وأمثالها التي تدل على الإفادة الواضحة والأخذ الصريح من علم أبي أحمد ، سواء أكان علم رواية أم كان علم دراية ، ولما كان هذا من الكثرة بصورة واضحة فإننا لا نحتاج إلى التمثيل .

ومن أساتذته أيضاً عم أبيه « أبو سعيد الحسن بن سعيد » الذي كان أحد أعلام عصره وشيوخه ، روى عنه أبو هلال .

ويبدو أن والده أيضاً كان شيخاً من شيوخ العلم ، أورثه حبه ، والتعلق برجاله ، وإن كنا لا نجد خبراً صريحاً في كتبه أو رواياته يدل على تلمذة أو أخذ صريح . وإنما وجدنا في بعض ما كتب ما يدل على شيء من الإفادة كقوله : « وجدت بخط أبي رحمه الله : قال القناني : القداحة بقية تبقى في القدر من المرق ، وفي الزكرة من الشراب . . . » [3] .

ولعل في هذا ما يدل على أنه لم يدرك أباه ، أو أنه مات قبل أن يستطيع أبو هلال الأخذ عنه ، والتلقي عليه .

---

(١) معجم الادباء : ٢٥٨/٨ .
(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة : ٣١١/١ (مطبعة دار الكتب المصرية — القاهرة ١٩٥٠م) .
(٣) المعجم في بقية الاشياء ١٣٤ (القاهرة ١٩٣٤م) .

وكانت تصل أبا هلال بأستاذه الأول أبي أحمد رحم ماسة ، فقد وقفنا في بعض الروايات على أن أبا هلال كان يمتّ إليه بقرابة قريبة ، فقد كان ابن أخته ، وهذا هو الذي ذكره ياقوت بعد ما رواه عن السلفي من أخبار أبي أحمد قال . . . هذا عن السلفي ، وذكر غيره أن أبا هلال كان ابن أخت أبي أحمد[1] .

ومن هنا نستطيع الحكم بأن أبا هلال قد قصر درسه وتلمذته تقريباً على أبي أحمد ، وأنه كان ملازماً له دون غيره ، ولعل هذا لبعد صيت أبي أحمد في عسكر مكرم وما جاورها ، وأنه لم يكن بجانبه شيخ يقاس به ، وقد يكون في لزوم أبي هلال له شيء من الدليل على خئولة أبي أحمد له ، فاحتضنه صغيراً ، وعاش أبو هلال في كنفه كما يعيش الابن في كنف أبيه ، ولم يبرح تلك الحلقة إلى غيرها ، ولم يخرج من تلك المشيخة إلى سواها[2] ، اللهم إلاّ جلسات معدودات في مجلس عم أبيه — أبي سعيد الحسن بن سعيد .

وفيما تقدم دلالة على أن أبا هلال انحدر من بيئة فيها العلماء من أهله ، وكان لهذا أثره في تكوين الرجل ، وتوجيهه وجهة صالحة ما دام في طبعه الاستعداد والميل ، ولم يحرمهما أبو هلال .

أما النوع الآخر من الأساتذة ، فهم أكثر أولئك الذين تقدموا أبا هلال من العلماء والأدباء والنقاد الذين تتلمذ العسكري على آثارهم ، وأخذ عنهم صفوة ما فيها . والقول فيهم وفي كتبهم يحتاج إلى تفصيل ، خصصنا له الفصل الثالث .

ثقافة أبي هلال :

وعلينا قبل أن نتبين ثقافة أبي هلال التلميذ أن نقف على ثقافة أبي أحمد

---

(١) معجم الادباء : ٨/٢٦٣ .
(٢) المعجم في بقية الاشياء : ١٠ .

الأستاذ بوجه خاص ، لنقف على أثر هذه الثقافة في تكوين عقلية أبي هلال وتثقيفه وشحذ ملكاته ، وليست تعوزنا المصادر في هذه الناحية ، فكل ذلك مفصل في ترجمته أبي أحمد تفصيلاً كافياً .

كان أبو أحمد من أعلام المحدثين في عصره . بل انتهت إليه رياسة التحديث ، وكان عالماً باللغة ، حتى اقترن اسمه بوصفه ، فقيل أبو أحمد اللغوي ، وفي تراجمه دلالة واضحة على طول باعه في اللغة ، والتبحر في معرفة دقائقها تبحراً لم يتسن لكثير غيره من العلماء ، وهو أديب متبحر في معرفة الأدب وفنونه [1] . يرويه شعراً ونثراً في غزارة قل أن تتهيأ لأمثاله ، وعنده قدرة بارعة على التمحيص والنقد والموازنة ، واستخلاص عناصر الجودة وأسباب الضعف فيما يعرض من الروايات والأحكام التي اهتدى إليها أسلافه من النقاد والرواة ، وما أكثر رواياته ! وما أكثر نقداته وأحكامه التي أثبتها أبر تلاميذه به أبو هلال العسكري ! . .

ورث أبو هلال كل هذه الثقافات عن أستاذه — أو خاله — أبي أحمد ، بل ربما كان أوحد الناس في نقل علمه رواية ودراية ، وتسجيله في مصنفاته .

كان راوية كأستاذه ، وتظهر ثمرة هذه الرواية في سفر ضخم في مجلدين هو « ديوان المعاني » الذي جمع فيه أبلغ ما جاء من كل لون ، وأبدع ما روي في كل فن من فنون المعاني وأعيانها ، وتخير من ذلك ما كان جيد النظم محكم الرصف ، ويدل أيضاً على تمكنه من الأدب ، حتى أصبحت كلمة « الأديب » لقباً من ألقاب أبي هلال .

ويجرنا هذا الوصف إلى توضيح مفهوم الأدب عند العلماء الذين صحبوا هذه الحقبة التي عاش فيها أبو هلال وأستاذه أبو أحمد ، فإن ذلك يأخذ بيدنا

---

(١) في ص ٢٤١ و٢٤٥ من الجزء الثامن من «معجم الادباء» شواهد على ذلك.

إلى الوقوف على لون ثقافة أبي هلال ، وتلك مقدمة لا بد منها لفهمه ومنهج تفكيره ، وسبل تخيره ونقده ، وموازنة ما روى بعضه ببعض . وقد تقدم أن أبا أحمد انتهت إليه رياسة إملاء الآداب ، وهي علوم كان المقصود منها هذه القواعد والمعارف التي تعين الطالب على فهم الأدب وتذوقه والقدرة على إنشائه وقد بلغ بها الإحصاء عند بعضهم اثني عشر علماً هي : الصرف ، والنحو ، والعروض ، والقوافي ، والشعر ، واللغة ، والإنشاء ، والخط ، والبيان ، والمعاني ، والمحاضرة ، والاشتقاق ، وهي علوم ذات قواعد نظرية تدخل في فصول منسقة ، وتوضع فيها الكتب المختلفة .

وبذلك تعرف كيف كان القدماء لا يحرصون على التحديد حينما يطلقون لفظ الآداب على شيء من هذه العلوم النظرية . كما فعل السكاكي في مقدمة كتابه « مفتاح العلوم » حيث يقول : وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لا بد منه ، وهي عدة أنواع متآخذة . . . وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول في علم الصرف ، القسم الثاني في علم النحو ، القسم الثالث في علمي المعاني والبيان [1] .

فأطلق كلمة « الأدب » على هذه العلوم ، وإن سماها أحياناً « علم الأدب » ، وكما فعل ابن خلدون في مقدمته في فصل « علم الأدب » إذ يقول :

هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها ، فإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ، فيجمعون لذلك من الكلام ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة ، وسجع متساو في الإجادة ، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة ، يستقرىء منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية ، مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها ، وكذلك

---

(١) مفتاح العلوم ٢ ، ٣ (المطبعة الادبية ـ القاهرة ١٣١٧هـ) .

ذكر المهم من الأنساب الشهيرة ، والأخبار العامة . . . ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها ، والأخذ من كل علم بطرف ، يريدون من علوم اللسان ، أو العلوم الشرعية [1] .

كذلك كانوا يخلطون بين الأدباء وعلماء الأدب من النحويين واللغويين والبلاغيين والنسابين ، فهذا ابن الأنباري في كتابه « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » يترجم للنحويين والأدباء معاً ، ويقول عن الكلبي : وأما هشام بن محمد بن السائب الكلبي فإنه كان عالماً بالنسب ، وهو أحد علوم الأدب ، فلهذا ذكرناه في جملة الأدباء . فإن علوم الأدب ثمانية : النحو ، واللغة ، والتصريف ، والعروض ، والقوافي ، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب ، وأنسابهم ، وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وصفناهما وهما : علم الجدل في النحو ، وعلم أصول النحو [2] .

فالأدب عند هؤلاء وأمثالهم كلمة تطلق على علوم الأدب ، والأديب سمة لعارفي هذه العلوم والمؤلفين فيها .

ويقول الجرجاني في كتاب التعريفات « الأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به من جميع أنواع الخطأ » فزاد معنى الكلمة اتساعاً ، وشمل جميع القواعد النظرية التي تنظم الحياة الاجتماعية في أية ناحية من نواحيها [3] .

كان أبو هلال العسكري ، كما كان أستاذه أبو أحمد ، أديباً بهذا الذي يفهم من هذه الأقوال ، يجيد في فنّي المنظوم والمنثور ، جامعاً للجيّد عن مأثورهما عن ملوك القول ؛ يعرفُ اللغة ، ويعرفُ دقائقَ النحو ، ويعرف

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٥٥٣ .
(٢) نزهة الألباء في طبقات الألباء ١١٦ ، ١١٧ .
(٣) أصول النقد الأدبي ٤٧ .

أنسابَ العرب ووقائعهم وأيامهم ، وأحوالهم العامة ، آخذاً من كل فن بطرف ، كما يقول ابن خلدون .

ومع هذا الذي أثبته الأقدمون في تعريف « الأدب » وذكرهم هذه العلوم وعدهم إياها منه فإن الأستاذ أمين الخولي يرى أن هؤلاء القدامى كانوا أكثر فهماً ، وأدق في تصوير المعاني وفهم دلالة الألفاظ ، وهم حين يذكرون هذه العلوم أو الفنون لا يعنون أنها من الأدب ، وإنما يريدون بذكرها أنها ثقافة لازمة للأديب . ولشدة لزومها للأدب ، وحاجة الأديب إليها عدوها من علوم الأدب .

ولا شك أن هذه الإحاطة الشاملة بالعلوم اللسانية كانت كافية في هذا العصر لتخريج عالم أديب ، إذا أضفنا إلى ذلك ما تميز به العسكري من ذوق رفيع ، وسعة في الأفق ، تتيح له أن يكون أحد الذين يصدرون الأحكام ، ويضعون مقاييس للقول يؤمن بها معاصروه ، ولا يتنكر لها خلفهم حتى عصرنا .

وهكذا كانت الثقافة العربية والإسلامية هي التي تملأ عقل أبي هلال ، وهي التي كانت تأخذ بأطراف تفكيره ، فهو قارىء لكتاب الله ، يجيد فهمه ، ويجيد الاستشهاد بآيه في يسر وسهولة ، ويستطيع تذوقه ، وتبين مناحي الجمال ، وأوجه الإعجاز فيه ، وهو فقيه عارف بالأحكام . غير أن الذي كان يغلب عليه هو حب الأدب والشعر .

بقي بعد ذلك أن نعرض لناحية لها قيمتها في عقلية أبي هلال العسكري وتفكيره ، تلك هي ناحية تأثره بما عرف في عصره من أطراف الفكر اليوناني وأخص ذلك كتاب « الخطابة » وكتاب « الشعر » اللذان ألفهما المعلم الأول « أرسطو » .

« كان كتاب الخطابة معروفاً في القرن الثالث الهجري ، ترجمه حنين بن إسحاق ، وسواء أكانت ترجمته بعد وفاة الجاحظ أم قبلها فممّا لا شك فيه

أن الاستفادة من طريق عرض أرسطو للخطابة وللشعر كانت واضحة ، كذلك ترجم كتاب « الشعر » في القرن الرابع الهجري . فحاولوا تطبيق بعض القواعد التي فهموها في العبارة ، ولم يفرقوا بين القواعد الخاصة بالشعر وبين القواعد الخاصة بالنثر [1] .

ومع إفادة العرب من هذا وعدم إفادتهم من ذاك ؛ فإن الذي يلوح لنا أن أبا هلال لم يطلع على هذين الكتابين اللذين كان لهما بعض الأثر في النقد والبلاغة ، لانصرافه عن هذه الثقافة الطارئة إلى تحصيل فنون الثقافة العربية من أطرافها ، وصرفه أكثر عمره في تحصيلها ، فلم يتسع عمره للبحث عن غيرها .

والواقع أنه على الرغم من جهله باللغة اليونانية وعدم اطلاعه على كتابي أرسطو « الخطابة والشعر » فإنه اطلع على ما كتب أرسطو بالواسطة ، فيما قرأ لأبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي ؛ وتأثر به في كتابه « نقد الشعر » وفيما قرأ لغيره من العلماء الذين برزت عنايتهم بمنطق اليونان ، وفلسفتهم ، وخطابتهم وشعرهم .

وعلى هذا فإننا لا نستطيع أن نحسب الفكر اليوناني في عداد ألوان ثقافة العسكري الأصيلة ، فإن إفادته منه محدودة ، كما سنوضح ذلك . ونستطيع أن نقرر أن ثقافته كانت عربية خالصة ، وأنه لم يبعد عن أساليب التفكير العربي في كثير .

آثار أبي هلال

زوّد أبو هلال المكتبة العربية بنتاج رائع ، يدل على خصب وتمكن ،

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٥٢ ، ٥٣ .

وسعة ثقافة ، وتوفر على العلم وتحصيله ، ثم على التدوين والتأليف عن فهم وبصيرة .

وتفيض كتب الطبقات بذكر آثار أبي هلال التي تدل على باع طويل وعلم أصيل . بل إن هذه الكتب تكاد تقف تعريفها بأبي هلال على ذكر آثاره ومصنفاته ، وشيء من شعره العذب في شكوى الزمان وتنكر الخلاّن . وهذه أسماء كتبه كما ذكرها ياقوت [1] .

١ — كتاب التلخيص .
٢ — كتاب صناعتي النظم والنثر .
٣ — جمهرة الأمثال : طبع في بومباي سنة ١٣٠٦ هـ وفي مصر على هامش أمثال الميداني سنة ١٣١٠ هـ .
٤ — كتاب معاني الأدب .
٥ — كتاب من احتكم من الخلفاء إلى القضاة .
٦ — كتاب ديوان الحماسة .
٧ — كتاب الدرهم والدينار .
٨ — كتاب المحاسن في تفسير القرآن « خمسة مجلدات » .
٩ — كتاب العمدة .
١٠ — كتاب فضل العطاء على اليسر .
١١ — كتاب ما تلحن فيه الخاصة .
١٢ — كتاب أعلام المعاني في معاني الشعر .
١٣ — كتاب الأوائل : اختصره السيوطي في كتاب الوسائل .
١٤ — كتاب الفرق بين المعاني .
١٥ — كتاب نوادر الواحد والجمع .

---

(١) معجم الادباء لياقوت — ج ٨ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

١٦ – رسالة في العزلة والاستئناس بالوحدة : « ذكرها السيوطي في بغية الوعاة »[١] .

١٧ – كتاب المصون في الأدب .

١٨ – المعجم في بقية الأشياء – طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ .

١٩ – شرح ديوان أبي محجن الثقفي .

وتلك الكتب على كثرتها وتعدد أسمائها لا تخرج عن دائرة ثقافة أبي هلال التي تمحض لها ، وأنفق فيها حياته ، وأعني بها الثقافة الأدبية بمفهومها في العصر الذي عاش فيه ، أو هي بشيء من التوسع : كتب لغة وكتب أدب بالمعنى العام ، وهو الإنتاج العلمي الذي يصور في الكلام ، ويدون في الكتب ، والمعنى الخاص ، وهو الكلام الجيد الذي يحدث في نفس قارئه وسامعه لذة فنية ، سواء أكان هذا الكلام شعراً أم نثراً أم ما يحتاج إليه من الشرح والتفسير ، أم ما يبين ما فيه من عناصر الحسن أو الرداءة .

والمطبوع المتداول من هذه الكتب ثلاثة :

أولها وأشهرها كتاب « الصناعتين » الكتابة والشعر » هكذا يعرفه الناس في أيامنا وقبل أيامنا ، وإذا ما ذكر اسم أبي هلال قيل هو صاحب «الصناعتين » ، ففي بغية الوعاة في ترجمته « الحسن بن عبد الله بن سهل . . . صاحب الصناعتين

ولكن ياقوتاً يذكر اسم الكتاب كما رأيت في ثبت كتبه – كتاب صناعتي النظم والنثر ، وهو خلاف يسير لا ينهض بالشك في هذا الكتاب ، أو التوهم أنه كتاب آخر غير كتاب « الصناعتين » .

والصناعتان في المطبوع بين أيدينا هما الكتابة والشعر ، وعند ياقوت الصناعتان هما النظم والنثر ، وفي كلمة « النثر » عموم وشمول في التسمية

---

(١) بغية الوعاة للسيوطي ٢٢١ .

الأخيرة لأن النثر فنون ، والكتابة فن منها ، والكتاب قد اشتمل على فنون أخرى من النثر غير فن الكتابة كالرسائل والخطب ، فكانت كلمة « النثر » أليق بموضوع الكتاب ، كما أن كلمة « الشعر » فيما بين أيدينا أليق من حيث التتبع التاريخي ، ذلك أن قدامة بن جعفر ألف كتابه في « نقد الشعر » فأراد أبو هلال أن يتم ما بدأ قدامة من بحث الشعر ، وأن يشرع الكتابة في النثر أو الكتابة ليتم الأدب من أطرافه ، وليكون كتابه شاملاً لفنونه .

وقد اشتمل كتاب الصناعتين على عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً :

الباب الأول : في الإبانة عن موضوع البلاغة في أصل اللغة ، وما يجري معه من تصرف لفظها ، وذكر حدودها ، وشرح وجوهها ، وضرب الأمثلة في كل نوع منها ، وتفسير ما جاء عن العلماء فيها . وهذا الباب يقع في ثلاثة فصول .

الباب الثاني : في تمييز الكلام جيده من رديئه ، ومحموده من مذمومه ، وهو فصلان .

الباب الثالث : في معرفة صفة الكلام ، وهو فصلان .

الباب الرابع : في البيان عن حسن السبك وجودة الرصف ، وهو فصل واحد .

الباب الخامس : في ذكر الإيجاز والإطناب ، وهو فصلان .

الباب السادس : في حسن الأخذ وقبحه ورداءته ، وهو فصلان .

الباب السابع : القول في التشبيه ، وهو فصلان .

الباب الثامن : في ذكر السجع والازدواج ، وهو فصلان .

الباب التاسع : في شرح البديع ، والإبانة عن وجهه ، وحصر أبوابه وفنونه وهو خمسة وثلاثون فصلاً .

الباب العاشر : في ذكر مقاطع الكلام ومباديه ، والقول في الإساءة في ذلك والإحسان فيه ، وهو ثلاثة فصول .

وقد طبع كتاب الصناعتين في مصر عدة طبعات تجارية تتقارب في الرداءة ، والطبعة المتداولة في مصر الآن مثل من أمثلة الإهمال والتصحيف والتحريف والخطأ ، وقد تولى طبعها محمد علي صبيح وأولاده ، رعلق عليها وفسر غريب ألفاظها محمد أمين الخانجي ، ولم يسجل على هذه الطبعة سنة طبعها . وقد طبع طبعة جيدة في الأستانة سنة ١٣٢٠ هـ،ولكنها نادرة الوجود . ثم طبعته دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٢ بتحقيق الأستاذين علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

وقد اعتمد المحققان على النسخة المطبوعة في الأستانة ، ونسخة مخطوطة كاملة بدار الكتب المصرية ، ونسخة أخرى مخطوطة من الجزء الأول بدار الكتب المصرية ، وهذه أقل خطأ من النسخة المصرية الأولى .

وثاني هذه الكتب شهرة ، وإن كان وثيق الصلة بموضوعنا كتاب « ديوان المعاني »وإن نحن نظرنا في هذا الاسم،وطبقناه على ثبت كتب أبي هلال لم نجد هذا الاسم نصاً ، وإنما نجد بين تلك الكتب كتابين اسم أولهما « معاني الأدب » واسم الآخر « أعلام المعاني في معاني الشعر » .

ونحن نرجح أن « ديوان المعاني » الذي بين أيدينا هو كتاب « معاني الأدب » الذي ذكره المؤرخون في آثار أبي هلال ، لاختصاص ثاني ما ذكروه « أعلام المعاني في معاني الشعر » بالشعر وحده ، ولأن ديوان المعاني قد جمع فرائد من المنظوم والمنثور هي أقرب في نظرنا إلى التعميم ، وإلى مدلول الأدب . هذا إذا لم يكن « ديوان المعاني » كتاباً ثالثاً غير « معاني الأدب » وغير « أعلام المعاني في معاني الشعر » . وقد عنيت بطبع هذا الكتاب ونشره

مكتبة القدسي بالقاهرة سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة وألف الهجرية طبعة جيدة على ورق متوسط ، وقد كتب على صدر هذه الطبعة أنها أخذت « عن نسختي الإمامين العظيمين الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي رحمهما الله ، الأولى في خزانة الجمعية الخيرية الإسلامية بالقاهرة ، وهي مقابلة بقراءة العلاّمة الشيخ عبد العزيز شاويش رحمه الله ، والأخرى في دار الكتب المصرية العامرة ، مع مقابلة بعضهما بنسخة المتحفة البريطانية بواسطة المستشرق الأستاذ الدكتور كرنكو المتفضل بالنظر في تصحيحه » .

وقد جمع العسكري في « ديوان المعاني » أبلغ ما جاء في كل فن ، وأبدع ما روي في كل نوع من أعلام المعاني وأعيانها إلى عواديها وشذاذها ، وتخير من ذلك ما كان جيد النظم ، محكم الرصف ، غير مهلهل رخو ، ولا متجمد فج ، وقد عنى بجمع هذا النوع من الكلام لأن الأديب لا يزال يسأل عنه في المجالس الحافلة ، والمشاهد الجامعة ، إذا أريد الوقوف على مبلغ علمه ، ومقدار حفظه ، فإن سبق إليه بالجواب جل قدره ، وفخم أمره ، وإن نكص عن ميدانه شال ميزانه وقلت الرغبة عنه [1] .

والكتاب يجمع ضروباً من الشعر ، وفنوناً من النثر تمثل للأغراض المختلفة . ليكون مادة للمناقضة ، وقوة للمفاوضة [2] .

وقد كانت المجالس الأدبية في هذا العصر العباسي كثيراً ما يضطر روادها إلى مثل هذا اللون من علم الرواية ، يستدل به على غزارة العلم وقوة العارضة ، والمقصر في تلك الحلبات منقوص القدر ، محروم من الجائزة . فقد كان الخلفاء يتصدرون تلك المجالس ، فيلقون على أولئك الرواد بعض الأسئلة ، ليستدلوا

---

(١) ديوان المعاني ٧ .
(٢) المصدر السابق ١٤ .

على قدرتهم ووعيهم ، وتمكنهم من الأدب ومعانيه . وقد نظمه أبو هلال في اثني عشر باباً :

الباب الأول : في التهاني والمديح والافتخار .

الباب الثاني : في الخصال .

الباب الثالث : في المكاتبات والهجاء والاعتذار .

الباب الرابع : في العزل وأوصاف الحسان .

الباب الخامس : في ذكر النار والطبخ ، وأنواع الطعام ، وصفات الشراب ، وما يجري مع ذلك .

الباب السادس : في ذكر السماء والنجوم والشمس والقمر ، وما يجري مع ذلك .

الباب السابع : في ذكر السحاب والمطر والثلوج والمياه ، وصفات البساتين والرياض والأشجار والثمار والرياحين والنسيم ، وما يجري مع ذلك .

الباب الثامن : في ذكر السلاح والحرب ، وما يشبه ذلك .

الباب التاسع : في ذكر القلم والخط والكتاب ، وصفة البلاغة ، وما يجري مع ذلك .

الباب العاشر : في ذكر الخيل والإبل والسير والفلوات والسراب ، وصفة سائر الحيوانات .

الباب الحادي عشر : في ذكر الشباب والمشيب والعلل والموت والمراثي والتعازي والزهد .

الباب الثاني عشر : في صفة أشياء مختلفة .

فالكتاب حافل بفنون الشعر والنثر التي تمثل هذه الأغراض مع شيء من النقد والموازنة في ثنايا هذا الغرض لعيون الأدب .

أما الكتاب الثالث فلا صلة تربطه بموضوعنا ، لأنه كتاب لغوي ، واسمه « المعجم في بقية الأشياء » وقد أكمله وعلق عليه وضبطه الأستاذان إبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ، وطبعته مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة الهجرية « ١٩٣٤ الميلادية » .

وبين هذه الكتب التي قيل إنها لأبي هلال « كتاب التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم » الذي عده جرجي زيدان في آثاره . وقد عقدنا به منذ وقع نظرنا على اسمه آمالاً عراضاً ، وظننا أنه سيلقي بعض الضوء على عقلية أبي هلال وجوانب من ثقافته ، فيكون مكملاً لكتاب الصناعتين .

ثم عثرت على هذا الكتاب في خزانة الشنقيطي بدار الكتب المصرية ، فإذا هو رسالة صغيرة في نحو تسع صفحات (٢١٣ — ٢٢١) وهي الرسالة السادسة عشرة بين سبع عشرة رسالة مجموعة في كتاب سماه جامعه « التحفة البهية والطرفة الشهية » [١] على أن قلة عدد الصفحات لم يقطع الأمل في أنها تحوي علماً مركزاً أو رأياً محكماً يضيف به أبو هلال حلقة جديدة إلى سلسلة اجتهاده البلاغي ، ولا سيما أن كلمة « بلاغة » مصرح بها في عنوان الكتاب .

وفي فهرس « التحفة البهية » [٢] نص أمام الرسالة السادسة عشرة على أنها للعلاّمة أبي هلال العسكري ، وفي نهاية الرسالة الخامسة عشرة ما نصه « انتهت الرسالة الخامسة عشرة ، وتليها الرسالة السادسة عشرة في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم لأبي هلال العسكري » [٣] ولكننا فوجئنا في صدر هذه الرسالة بأنها « صنعة أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري » [٤] .

---

(١) قم ١٠ خصوصية مجاميع (ش) .
(٢) مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٢هـ .
(٣) ص ٢١٢ من المجموعة .
(٤) ص ٢١٢ من المجموعة .

وهنا أخذتنا الحيرة وملنا أول الأمر إلى ترجيح أن يكون الخطأ في هذه العبارة الأخيرة ، وأن يكون الصواب ما في الفهرس ، وما في نهاية الرسالة الخامسة عشرة ، وما اعتمده جرجي زيدان .

هذا ما ملنا إلى ترجيحه أول الأمر ، ولكن بعد قراءتنا هذه الرسالة بان لنا أن الصواب هو ما كتب في صدرها ، وهو أنها « صنعة أبي أحمد . . . » وأن الوهم سرى إلى ناشر المجموعة ، وفات العلامة الشنقيطي وهو مالك المجموعة وواقفها ، أن يصحح خطأ الطبع ، واكتفى صاحب « تاريخ آداب اللغة العربية » بالنظر إلى الفهرس ، فخلط هؤلاء بين الرجلين ، كما قد خلط الأقدمون بينهما .

والذي رجح لنا أن الرسالة لأبي أحمد دون أبي هلال عدا ما كتب في صدرها أن فيها آراء تخالف آراء أبي هلال . ومن ذلك قول أبي أحمد « أخبرنا أبو بكر بن دريد » وهو من أساتذة أبي أحمد دون أبي هلال قطعاً .

ومن ذلك أن أبا هلال عودنا أن يقول في رواياته : « أخبرني أبو أحمد... » أو « حدثني . . . » أو « ومثل ذلك ما حدثنا به أبو أحمد . . . » أما الرسالة فإن فيها « قال الشيخ » أو « قال الشيخ أبو أحمد » وهذا تعبير المملى عليه ، والذي عرف عن أبي أحمد — كما ذكر المؤرخون — أنه كان مشهوراً بإملاء الآداب في قطر خوزستان .

شعر أبي هلال :

هذا ولأبي هلال شعر رقيق ، مرّ بعض المأثور منه ، وفي « ديوان المعاني » طائفة كبيرة من منظومه ، لو ضم بعضها إلى بعض لكان منها ديوان نفيس ، فهو حين يعرض الجيد من مأثور القول للعرب في جاهليتها وإسلامها يدلي بدلوه في الدلاء ، فينشد لنفسه في الأغراض المختلفة ، من ذلك قوله في الحسن مع الشجاعة :

فتىً على نفسه من نفسه رصدٌ ... يصده إن نطق الشيّن والذاما
ما زال يغنمُ مالاً ثمّ يغرمهُ ... ما زال للمال غنّاما وغرّاما
أغرُّ أربعُ يحكي الغيثَ مكرمةً ... والنجمَ منزلةً والطّودَ أحلاما
تجلّهُ حين يبدُو أن تقولَ له ... كأنّ في ثوبه بدراً وضرغاما

وقواه في المديح :

نُصرتَ على الأعداءِ فليهنكَ النصرُ ... ودانتْ لكَ الدنيا وذلّ لك الدهرُ
فأنتَ كإقبال الشبيبة والصِّبا ... تطيبُ بك الدنيا وينعمرُ العمرُ
وليس كرامُ الناس إلاّ كواكباً ... على صفحتي ليلٍ وأنت لهم بدرُ
وفي الناس أجوادٌ كثيرٌ وإنما ... أوائك أثمادٌ وأنتَ لهم بحرُ
فإن أظلم الأحداثُ واسودّ ليلُها ... فهمْ شفقٌ فيها وأنتَ بها فجرُ
أبا قاسمٍ فخراً على المجد والعلا ... فإن العلا روضٌ وأنت به زَهْرُ
غدتْ أرضُنا منكم سماءً مظلةً ... لها أنجمٌ من زُهر أخلاقكم زُهرُ

وقوله في الغزل :

وانشقّ ثوبُ الظلام عن قمرٍ ... يضحكُ في أوجُهِ الدّجُنّاتِ
كأنما النجمُ حين قابلهُ ... قبيعةٌ (١) في نِصابِ مرآةِ

وقوله في معنى قوله صلى الله عليه وسلم « كفى بالسلامة داء » :

ما خيرُ عيشٍ صفوُهُ يكدرُهْ ... لا بدَّ أن يشكوَهُ من يشكرُهْ
والمرءُ ينسى والمنايا تذكرُهْ ... يُميتُهُ بقاؤهُ فيقبرُهْ

---

(١) قبيعة السيف كسفينة : ما على طرف مقبضه من فضة أو حديد .

وكسرُهُ منه الذي لا يجبرُهْ يطويهِ من مداهُ ما لا ينشرُهْ
في كلّ مجرى نَفَسٍ يكرّرُهْ يهدمُ من عمرك ما لا تعمُرُهْ

وفي معناه أيضاً :

قد قربَ الأمرُ بعد بُعده وأسعفَ الإلف بعْدَ صَدّه
وبعدَ بؤسٍ وضيقِ عيشٍ صرتَ إلى خفضه ورَغْده
لكنه ملبسٌ مُعارٌ لا بدّ من نزعه وردّه
وهل يُسَرّ الفتى بحظٍ وُجودُهُ علة لفقده

ومن أجود ما قاله ، وهو مما يناسب حاله :

ماذا يسرُّكَ من مال تجمّعُهُ أو ما يغمك منهُ إذْ تفرّقهُ
ولم يكنْ لكَ مالٌ يومَ تكسِبُهُ لكنّهُ لك مالٌ يومَ تُنْفِقُهُ
تحبُّ من أجلهِ الدنيا وتورثها وسوفَ توبقك الدنيا وتوبقهُ
سترْتهُ عن عيون الناس كلهم ولستَ تعلمُ أنّ الدهر يرمقُهُ
إنْ لم تبكّرْ إليهِ في نوائبهُ فسوف يطرقهُ ركضاً فيرهقُهُ

ومن نثره في وصف كتاب « والله أعلم أني أخبرت بورود كتابه ، فاستفزني الفرح قبل رؤيته ، وهز عطفي المرح قبل مشاهدته ، فما أدري : أسمعت بورود كتاب ، أم ظفرت برجوع شباب ، ثم وصل بعد انتظار له شديد ، وتطلع إلى وروده طويل عريض ، فتأملته فلم أدر ما تأملت : أخطّاً مسطوراً ، أم روضاً ممطوراً ، أم كلاماً منثوراً ، أم وشياً منشوراً ، ولم أدرِ ما أبصرت في أثنائه : أأبيات شعر ، أم عقود درّ ، ولم أدر ما حملته : أغيث حلّ بوادٍ ظمآن ، أم غوث سيق إلى لهفان » .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

النقد والبلاغة

قبل أبي هلال

— ١ —

خلفت الأمة العربية منذ جاهليتها الأولى نتاجاً ضخماً من الأدب فيه صور لأحاسيس الأدباء ، ومدى تأثرهم ببيئتهم ، وحظهم من الثقافة والفكر ، وحظهم من العاطفة والخيال ، وتبدو منه أدلة قدرتهم على التصوير والتعبير عما يجول في نفوسهم ، وعما تضطرب به بيئتهم ومجتمعهم من ألوان الحياة .

وهذا النتاج الضخم ليس على درجة واحدة من الإجادة والإبداع ، وليس على درجة واحدة في إحداث التأثير الفني في نفوس مستقبل هذا النتاج ، بل إن منه ما سما واتسم بالجودة تهتز له نفوس القارئين والسامعين ، وتطرب له قلوبهم ، ويتجاوز تأثيره العصر الذي أنشىء فيه ، والجماعة التي حدثت به إلى العصور اللاحقة ، والأجيال التالية ، ليصبح لغة الإنسانية التي تعبر به عن آمالها وآلامها ، وترسم لها صورة المثل العليا التي لا تزال تتطلع إليها في كل جيل وفي كل قبيل ، وذلك بما توافر له من شعور صادق ، وتعبير جميل ، وبما بدا فيه من الأصالة ، والقدرة على التصرف والافتنان ، ومنه نتاج جاء رثاً خلقاً ، وتعبيراً سقيماً عن شعور سقيم ، أو جاء صدى لإحساس الغير وعواطفه ، فكان بارداً غثاً متكلفاً .

وأنت إذا اطلعت على هذا التراث الأدبي راعتك كثرته ، ولكن هذه

الكثرة التي تروعك أن تراها ممثلة لضروب الأدب تمثيلاً كاملاً ، فإن هذا التراث الذي خلفته الأمة العربية يكاد يكون كله شعراً ، ولعظم مكانة الشعر في نفوسهم أطلقوه على كل علم وفن [1] .

وأما سائر ضروب الأدب فلن ترى في القديم منها إلاّ ظلالاً غير مستقرة ، والقليل الذي أثر لنا من خطب الجاهليين قليل لا غناء فيه ، حتى أن هذا القليل شك فيه جماعة من علماء الأدب ومؤرخيه وتصدوا له بالنفي ، لما رأوا فيه من صناعة لفظية وأسجاع مفتعلة ، رأوها غير جديرة أن تنسب إلى هذا العصر الذي لم يعرف التكلف في شيء من فنون الحياة ، فكان حرياً به ألا يعرفه في فن من فنون القول .

أما فن الكتابة فلم يكن حظ له من الحياة في هذا العصر ، إذ كان العرب قوماً قد فشت فيهم الأمية ، وجهل أكثرهم القراءة والكتابة ، ولم يكن لديهم من تكاليف الحياة أو نظم الحكم ما يقتضي الكتابة التي تنظم شئونهم ، وتقوم لهم بمستلزمات الحكم أو الحياة ، ولم يجتمع لدى العرب من موارد الثقافة ، وضروب الحضارة ما يهيىء للنثر الفني أن يحتل منزلته من أدبهم ، ويدل على قدرتهم على تنضيد المعاني وتنسيق الأفكار في أسلوبهم المنثور .

وكانت الحال قريباً من ذلك في صدر الإسلام ، وفي عصر دولة بني أمية ، إذا استثنينا من فنون النثر الخطابة التي كان لها أثر ملحوظ ، وحياة واضحة بسبب الحاجة إليها في نشر المبادىء ، وفي الترغيب والترهيب ، واحتل جماعة من فحول العرب منازل خطابية ، فكانوا فرسان الكلام تهتز لهم أعواد المنابر ، وترتعد لسماعهم القلوب .

---

(١) أشعره الامر وبه أعلمه ، والشعر غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية ، وان كان كل علم شعرا (قاموس : ج ٢ ص ٥٩) .

وإذا استثنينا الكتابة التي ولدت في أخريات عصر بني أمية ، ووضع لها عبد الحميد بن يحيى قواعد وأصولاً يحتذيها رجال هذه الصناعة ، ولكنها على أي حال كانت صناعة ، لم يظهر خطرها في هذا العصر ، وإنما يكون لها هذا الشأن في العصر العباسي الذي شعت فيه أضواء العلم والمعرفة ، وبدأت الكتابة وسائر ضروب النثر الفني تظهر واضحة المعالم ، بينة القسمات .

فأظهر ألوان الفن الأدبي عند الجاهليين والإسلاميين هو الشعر الذي كان صناعة العرب ، تنطلق به ألسنة فصحائهم وذوي المواهب منهم ، فتردده الألسنة ، ويتراواه الناس ، حتى اشتهر أمره ، وحفظ على صفحات القلوب إلى أن كان التدوين في العصر العباسي الأول ، فحفظته السطور بعد الصدور .

وقد تناول هذا الشعر جميع الفنون ، وعالج جميع الأغراض التي تتصل بالحياة العربية أو تعرض للشاعر ، فتؤثر في حسه ، وتنير انفعاله من تعبير عن الحب أقوى العواطف الإنسانية ، وبكاء الأطلال الدوارس التي خلفها الأحباب ، ووصف مشاهد الصحراء من سهل وجبل ، ونبات وحيوان ، ومطر وسحاب ، ومديح لأولي النجدة من الأحرار الشجعان الكرام ، وهجاء للأعداء ، وفخر بالأولياء ، ووصف للحروب والغارات ، ورثاء لمن أسدى فضلاً إلى الشاعر ، أو كانت له به صلة من رحم أو جوار .

ومثل هذه الأمور التي تثير انفعال الشاعر ، وتؤثر في عاطفته تجعله يحاول أن يشرك غيره معه في الإحساس بما أحس ، والتأثر بما تأثر به ، وهذا هو داعية القول وغايته .

— ٢ —

يستقبل الناس هذا النتاج استقبالاً مختلفاً ، بحسب ما تمليه طبائعهم ، وتذوقهم لهذا الفن ، فمنهم من يغالي به ويرفعه إلى القمة ، ومنهم من يتضع به إلى الحضيض ، بحسب أهوائهم وولائهم للشاعر أو عدائهم له ، أو للجماعة

التي ينتمي إليها ، ولذلك كانت الأحكام المأثورة عن السابقين مضطربة ، يبدو فيها التناقض وآثار الارتجال ، لأن ما يعجب هذا لا يرضى عنه ذوق ذاك ، حتى كان الاتفاق على خبراء بهذه الصناعة يصدرون في أحكامهم عن خبرتهم ، وطول معاناتهم للشعر ، لأنهم طالما بلوه ، وراضوا جامحه ، وذللوا شارده ، حتى استلانت لهم قناته ، وسهل عليهم صعبه ، « ففي أواخر العصر الجاهلي كثرت أسواق العرب التي يجتمع فيها الناس من قبائل عدة ، وكثرت المجالس الأدبية التي يتذاكرون فيها الشعر ، وكثر تلاقي الشعراء بأفنية الملوك في الحيرة وعمان ، فجعل بعضهم ينقد بعضاً ، وهذه الأحاديث والأحكام والمآخذ هي نواة النقد العربي الأولى [1] » .

وأولئك الحكام أو النقاد كانوا يصدرون أحكامهم عامة ، قائمة على التأثر والانفعال ، من غير منهج واضح ، أو مقياس معروف يصدر الحكم على مقتضاه ، لأن ذلك المنهج لا يتسنى إلاّ لناقد استطاع أن يخضع ذوقه لنظر العقل وهذا ما لم يكن عند قدماء العرب ، وما لا يمكن أن يكون . ومن ثم جاء نقدهم جزئياً مسرفاً في التعميم ، يحس أحدهم بجمال بيت الشعر ، وتنفعل به نفسه ، فلا يرى غيره ، ولا يذكر سواه كشأنه في كل أمور حياته ، إذ تجتمع نفسه في الحاضر الماثل أمامه ، وفي هذا ما يفسر ما تجده في كتب الأدب من أحكام مسرفة كقولهم « هذا أجود ما قالت العرب » ، و « هذا الرجل أشعر العرب » وما إلى ذلك [2] .

فإذا أنت بحثت عن العلة التي بنوا عليها هذا الحكم أو ذاك لم تجد له أثراً ولا غرابة في ذلك ، لأن التماس العلة العقلية عمل عقلي منظم ينتج عن ثقافة عامة أو في الأقل ثقافة خاصة تتصل بهذا العمل الفني ، والثقافة الخاصة التي نعنيها هي الإلمام بألوان من المعارف اللازمة للناقد ؛ ولم تكن إذ ذاك علوم منظمة

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ١١ ، ١٢ .
(٢) النقد المنهجي عند العرب ٨ .

لأن تدوينها جاء متأخراً في العصر العباسي ، فكان الإحساس وحده هو المرجع في تقدير هذه الآثار الفنية . أما الثقافة التي تجعل من هذا النقد الذوقي لوناً من ألوان المعرفة ، يؤخذ به ، ويقاس عليه ، فذلك ما لا وجود له في ذلك الزمان المتقدم .

ومع ذلك فقد نعثر بين هذه الأحكام المبنية على الذوق بعض الأحكام التي التمس لها العلة .

كالذي روي في نقد النابغة لشعر حسان بن ثابت إذ قال له : « أقللت جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بما أنجبك » وذلك في قول حسان :

ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما
لنا الجفنات الغرّ يلمعن في الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

كما نجد مثل ذلك في كلمة عمر بن الخطاب في صفة شعر زهير الذي علّل استحسانه إياه ، بأنه كان لا يعاظل [1] في الكلام ، وكان يتجنب حوشي الشعر ، ولم يمدح أحداً إلاّ بما فيه .

وهذا قول يستند على الدليل والتعليل ، وهو وإن كان قد قصر العلة على النظر إلى الألفاظ ، وإلى تحري الصدق فيما يقول ، إلى أن ذلك فيما نعلم كان

---

(١) لا يعرف قدامة المعاظلة الا فاحش الاستعارة مثل قول اوس :

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعا

فسمى الصبي « تولبا » وهو ولد الحمار .
ومثل قول الآخر :

وما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر

فسمى رجل الانسان حافرا . فان ما جرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح لا عذر فيه (نقد الشعر ١٠٣ طبعة بريل ـ ليدن ١٩٥٦م) وفي المعاظلة كلام كثير ، نشير الى بعضه فيما بعد .

أول حكم نقدي مبني على التعليل ؛ وأحر بتلك النظرة الفاحصة والوعي السابق أن يصدر عن عمر .

وهذه الأحكام العامة لم تأخذ صورة التأليف في النقد ، بل كانت آراء شفوية مطبوعة بطابع الارتجال ، ولم تحاول وضع أسس صالحة تتخذ مقاييس ، وإنما هي أحكام فردية ، وآراء عارضة تتناول الجزئيات ، ولا تعني بوضع موازين كلية تصلح للعمل الأدبي كله ، وتنطبق على غيره .

وهي كذلك معتمدة الاعتماد كله على أذواق مصدري هذه الأحكام دون نظر إلى قاعدة تبني عليها ، فالذوق الشخصي هو المقياس الأوحد لنقد الشعر والشعراء ولم يصل هذا الذوق بتجاربه الكثيرة وموازنته بسائر الأذواق إلى استخلاص نقطة وسط تلتقي عندها الأذواق المختلفة .

فالطبيعة المواتية والفطرة السليمة كانت المختبر الذي تختبر به الآثار الفنية عند القدماء ، ولكن ذلك لا يغض من سلامة تلك الآراء إذا بعد صاحبها عن المؤثرات الخارجية عن العمل الأدبي ، وإذا كان هذا العمل الأدبي وحده هو مجال الحكم وموضوعه عن غير نظر إلى المصدر .

ونحن لا نستطيع أن نتجاهل أثر الذوق في النقد ، ولا أن نتنكر للأحكام التي تصدر عنه حتى في العصور الحديثة بعد أن استقل النقد الأدبي بأسسه وتعاليمه وألفت فيه الكتب لعلماء من أمم مختلفة ، وخبراء مختصين بفن الأدب والنقد .

وليس من شك في أننا لا نستطيع أن ندرك طعم طعام أو شراب ما لم نتذوقه بأنفسنا ، ولا يمكن أن يغنينا عن هذا التذوق الشخصي أي تحليل كيماوي أو تقرير خبراء ، وكذلك الأمر في الفنون كافة ، فأي وصف للوحة زيتية أو تمثال من الرخام لا يمكن أن يغني عن الرؤية المباشرة ، وكذلك الأمر في الأدب ، فذوقنا الخاص هو أساس كل فهم له بحيث يبدو النقد الذوقي أمراً

مشروعاً ؛ إذ أنه صدى للإحساس والشعور ، ونتيجة للتفاعل بين المشاعر الكامنة في نفس الناقد وما في العمل الأدبي من عواطف أو انفعالات؛ هي صورة للتجربة التي عبر عنها الأديب .

وهو بعد حقيقة واقعة حتى عند العلماء من النقاد المحدثين « فالتأثرية » قائمة في أساس كل نقد [1] حتى لنرى ناقداً عالماً كلنسون يقول : إذا كانت أولى قواعد المنهج العلمي هي إخضاع نفوسنا لموضوع دراستنا ، لكي ننظم وسائل المعرفة وفقاً لطبيعة الشيء الذي نريد معرفته ، فإننا نكون أكثر تمشياً مع الروح العلمية بإقرارنا بوجود « التأثرية » في دراستنا ، وتنظيم الدور الذي تلعبه فيها ، وذلك لأنه كلما كان إنكار الحقيقة الواقعة لا يمحوها ، فإن هذا العنصر الشخصي الذي نحاول تنحيته سيتسلل في خبث إلى أعمالنا ، ويعمل غير خاضع لقاعدة وما دامت التأثرية هي المنهج الذي يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها فلنستخدمه في ذلك صراحة ، ولكن لنقصره على ذلك في عزم ، ولنعرف — مع احتفاظنا به — كيف نميزه ونقدره ونراجعه ونحدده ، وهذه هي الشروط الأربعة لاستخدامه . ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس واصطناع الحذر ، حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة . وإذن فالنقد الذوقي نقد مشروع وحقيقة واقعة [2] .

وهذا الذي رأيناه من غلبة الذوق وتأثيره في الأحكام الأدبية مذ وجد الشعر العربي لا ينقطع سببه في العصور التالية ، بل إننا سنرى أن إعمال الذوق الخاص في تقدير النص الأدبي سيظل واضح الأثر فيما بعد .

وفي القرن الأول الهجري كثر النقاد ، واتسع مجال القول عندهم ، وحاولوا أن يضعوا أحكاماً عامة للمعاني ، وأحكاماً عامة للأساليب ، وارتقى

---

(١) النقد المنهجي عند العرب — ٦ .
(٢) منهج البحث في الأدب واللغة — ٢٩ .

بذلك النقد وكثرت الموازنة بين شعر وشعر ، وبين شاعر وشاعر ، ورأينا للمرة الأولى شيئاً من الأحكام على الشعراء وتقسيمهم إلى طوائف وطبقات .

على أن الذين اضطلعوا بهذا العمل للمرة الأولى كانوا رجال اللغة النحويين الذين سماهم الناس أدباء .

وهذا ابن الأنباري في كتابه « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » يشرح هذه الكلمة فيضيف إليها ما يعرّفها بقوله « أي النحاة » ويجعل فيه بعض الأدباء إلى جانب مجموعات كبيرة من النحاة واللغويين من أمثال أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ، والمفضل الضبي .

ولا شك أن كل واحد من أولئك العلماء الأعلام كان ينظر إلى النص الشعري من الزاوية التي يجيد النظر منها ، فلكل واحد منهم ناحيته التي أتقنها وأجاد فيها ، ويصدق ذلك قول الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلاّ غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلاّ إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلاّ ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب »[1] .

وهكذا كانت تلك العلوم العربية أول نواة للنقد ، وكانت قواعدها وأصولها التي وضعها أولئك العلماء مقاييس لقياس الأدب ونقده .

ثم كانت هذه الثقافات المتشعبة سبباً في تشعب بحوث النقد ، وتنوع أساليبه . أما النقد الأدبي الفني الخالص فلا نكاد نجد فيه دراسة منسقة منتظمة.

---

(١) العمدة لابن رشيق : ج ٢ ص ٨٤ .

طبقات الشعراء لابن سلام :

ومن أقدم الذين قدموا إلينا دراسة أدبية منظمة — بل لعله أقدمهم — رجل من رجال العربية ، اجتمعت فيه أكثر مواهب كل هؤلاء العلماء والأدباء هو « محمد بن سلام الجمحي »[1] الذي كان نحوياً ولغوياً وراوية وعالماً بالشعر ، وقد وجدناه يخصص مؤلفاً لدراسة الشعراء ، ويعمد إلى تقسيمهم إلى طبقات ، ويسمي كتابه « طبقات الشعراء » .

وهو في هذا الكتاب يضع بعض الأسس الفنية للنقد الأدبي ، منها وجوب تخصص جماعة اله من العلماء المثقفين المختصين به ، كما أن كل صناعة من الصناعات تحتاج إلى متخصصين يعرفون مداخلها ، ويفقهون سرها ، وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان .

وهو من جهة أخرى يرى أن الأحكام التي يصدرها العلماء لا تتسنى إلاّ لذوي الدربة والممارسة الذين راضوا أنفسهم على مثل هذا اللون من الصناعات ، ويشير إلى أن الذوق الخاص لكل إنسان لا يكفي ، وإنما الذوق المعتمد هو ذوق الخبير بالشعر ، ويشير إلى التفاوت العظيم بين خبير وخبير ، بحسب دربته وطول تجربته « وإن كثرة المدارسة لتعدي على العلم ، قال خلاد بن يزيد الباهلي لخلف بن حيّان أبي محرز — وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله — بأي شيء نرد هذه الأشعار التي تروى ؟ قال له :

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سلام عبد الله بن سالم البصري ، كان من جملة أهل الادب وألف كتابا في طبقات الشعراء وأخذ عن حماد بن سلمة ، وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل وأبو العباس ثعلب . وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شبة : حدثني جدي قال : كان ابن سلام له علم بالشعر والاخبار ، وهما من جملة علوم الادب .. توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وكان ذلك في السنة التي مات فيها الواثق ، وبويع المتوكل بن المعتصم (نزهة الألباء في طبقات الأدباء ٣١٧ ، ٣١٨).

هل تعلم أنت منها ما إنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم ! قال : أفتعلم في الناس من هو أعلم منك بالشعر ؟ قال : نعم ! قال : فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك ما لا تعرفه أنت » ! .

ومن ذلك ما روي أن قائلاً قال لخلف الأحمر : إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته ، فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك ! فقال له : إذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته ، فقال لك الصراف إنه رديء ، هل ينفعك استحسانك له ؟ ! .

ومن هذا نفهم أن ابن سلام أضاف إلى مقياس الذوق مقياساً آخر ، هو مقياس الرأي والاتفاق على الحكم عند العارفين من أهل الصنعة .

تعرض ابن سلام كذلك لأمر كان يشغل بال معاصريه ، وتكلم فيه بعض العلماء والأدباء في زمنه ، ذلك هو أمر الشعر الذي صحت لديه ولدى ثقاته نسبته إلى أصحابه ، وإلى الشعر الذي وضعته الرواة لأسباب شرحها في كتابه ، فبين دواعي الافتعال ، وأسباب معرفته بأدلة عقلية لا تقبل الشك ، وتعرض في هذا المقام لجماعة من الرواة اتهموا بانتحال الشعر ، وإذاعته في الناس ، مدفوعين إلى ذلك بدافع العصبية ، أو بالرغبة في ذيوع الشهرة بالانفراد برواية ما لم يستطع الرواة روايته .

وهذا بحث سليم يدخل في صميم النقد ، وله صلة وثيقة بالمنهج النفسي في دراسة الأدب ونقده . ومن ناحية أخرى يشير إلى ضرورة التأكد من صحة نسبة الشعر إلى صاحبه قبل محاولة إصدار الحكم عليه .

ثم يدع هذه المقدمات النافعة المفيدة إلى ما ألف له الكتاب من تقسيم الشعراء إلى طبقات ، ذاكراً عوامل تقديمه طبقة على طبقة ، وهو في هذا الكتاب لا يتعرض للمأثور من شعر هذه الطبقة أو تلك ، فيحلله فنياً ، مبيناً أسباب التقديم والتأخير ، لكنه يذكر الجيد من غير أن يعرف بأسباب الاستجادة

فليست لابن سلام في هذه الناحية «أحكام على الشعر نصاً ، بل أحكام على الشعراء ، وتنويه بما لهم من القول الطيب وبما لهم من نظراء، وبالمنزلةالتي هم أهل لها ، ويورد ابن سلام في هذا الشأن بعض ما ذكره الناس قبله ، وكثيراً ما يكون له رأي مبكر لم يسبق إليه »[1] .

كانت غاية ابن سلام كما يبدو من عنوان كتابه وضع كل شاعر في طبقته الملائمة ، وتفضيل هذه الطبقة على تلك ، والمفاضلة بين هذا الشاعر وذاك . فالجاهليون عشر طبقات بحسب جودة شعرهم وكثرته ، ثم يترك مقياس القلة والكثرة إلى الإجادة في غرض واحد من أغراض الشعر الكثيرة وهو الرثاء ، فيجعل طبقة جديدة يسميها طبقة أصحاب المراثي ، ثم ينتقل إلى دراسة الشعراء حسب على مواطنهم ، فشعراء المدينة ، وشعراء مكة ، وشعراء الطائف ، وشعراء البحرين ، وشعراء يهود المدينة ، ثم ينتقل إلى الإسلاميين ، فيقسمهم عشر طبقات أيضاً ، ويجعل الطبقة التاسعة طبقة الرجاز .

ومن هذا نستطيع أن نستخلص أن ابن سلام قد عالج في كتابه عدة موضوعات تعد من صميم ما يبحث النقاد في دراساتهم للأدب ، فنظر إلى الزمان كما نظر إلى المكان ، وتنبه إلى أثر البيئة في الشعر ، وهذا البحث من أهم المباحث التي يعنى بها دارسو الأدب ونقدته ، ويظل كتاب ابن سلام من أهم ما كتب في النقد الأدبي عند العرب ، ويظل ابن سلام من أجلاّء النقاد صحة ذهن ونفاذ بصر بما بسط من القول ، وأوضح من الدلائل ، وبين من العلل . . . ففي كتابه صورة لحياة النقد منذ نشأ في الجاهلية إلى أوائل القرن الثالث ، وصورة للأذواق المختلفة . . . ولقد كانت الأفكار في النقد مبعثرة لا يربطها رابط حتى جاء ابن سلام فضم أشتاتها وألف بين المتشابه منها بروح علمي قوي ، ثم إن الأصول التي عرفت قبله في النقد لم توطد ولم توكد ولم تستقر ولم ترسخ إلاّ في كتاب « طبقات الشعراء » .

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٢٨ .

هذا إلى أن الكتاب أقدم وثائق النقد المدونة فيه كثير من آراء الأدباء واللغويين التي انتفع بها فيما بعد من كتبوا في الأدب ، أو في سير الشعراء[1] .

الجاحظ وبيانه ونقده :

وقد عاصر ابن سلام علم من أعلام الفكر العربي هو أبو عثمان الجاحظ الذي استطاع أن يتصور موضوع البيان العربي في صورة دراسة واسعة تعالج على شيء من الأسس النظرية ، وتحشد لها النصوص ، ويستعان عليها بنتف من آراء الأمم الأخرى في الموضوع .

وأنت على الرغم من طريقة الجاحظ الاستطرادية ، وعلى الرغم من أنه لم يبن دراسته على نظرية بعينها يناقشها ويطبقها ، فإنك تتبين في كتابه « البيان والتبين » تنبهاً إلى النواحي العامة التي لا بد من اعتبارها في دراسة البيان ، لا سيما ما اتصل منه بالجماهير كالخطابة والجدل والمحاجة بين أرباب النحل ، وقد بحث الجاحظ فيما بحث طبيعة اللغة ، وعلاقة الألفاظ والمعاني ، وصفات الكلام المبين ، وما يعرض له من وضوح وغيره ومن إيجاز وإطناب ، وفصل القول في مخارج الحروف وصحتها وسلامتها من العيوب ، وصور الهيئة التي يجب أن يكون عليها الخطيب في مظهره ، وطرق تعبيره[2] .

وهكذا نرى الجاحظ يلم بكثير من الموضوعات المتصلة بالأدب ونظمه ونقده ، ولكنه يتكلم كلاماً عاماً ، ليس فيه تحليل كاف لموضوع بذاته ، ولعل الذي أضاع هذه الثمرة المرتجاة من إمام من أئمة البيان العربي ، هو الجاحظ نفسه ، هو أسلوبه الاستطرادي الذي ينتقل من جد القول إلى هزله ، ومن نادرة ظريفة ، إلى حكمة طريفة ، ومن هنا « كانت الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تصانيفه ، ومنتشرة في أثنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة ، لا توجد إلاّ بالتأمل الطويل والتصفح الكثير »[3] .

---

(١) المصدر السابق ٩٠ .
(٢) من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده ١٠٠ .
(٣) ابو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص ٧ .

ومع ذلك فالعرب لم يخطئوا حين عدوا الجاحظ مؤسس البيان العربي ، وليس ذلك لأنه وصل بجهده الخاص إلى قاعدة بيانية بعينها ، فشخصيته القوية تكاد تكون معدومة في كتابه « البيان والتبين » ولكن لأنه جمع في هذا الكتاب طائفة من النصوص توضح لنا توضيحاً حسناً كيف كان العرب يتصورون البيان في القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث وتعطينا صورة مجملة لنشأة العربي ؛ إن لم تسمح لنا بتأريخ هذه النشأة [1] .

وقد ذكر الجاحظ في كتاب « الحيوان » أن أبا عمرو الشيباني كان يستحسن قول الشاعر :

لا تحسبنّ الموتَ موتَ البِلى وإنما الموتُ سؤالُ الرجالْ
كلاهمـــا موتٌ ولكنّ ذا أفظع من ذاك لذلّ السؤالْ

وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين أنه وهو في المسجد يوم الجمعة كلف رجلاً أحضره دواة وقرطاساً حتى كتبهما له [2] وكان إعجاب أبي عمرو بالبيتين قائماً على استحسان ما تضمناه من المعنى . أما الجاحظ فإنه يرفضهما ، ويزعم أن صاحبهما لا يقول الشعر أبداً ، ولا عبرة باستحسان أبي عمرو لمعانيهما ، لأن « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدويّ والقرويّ . وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ؛ وفي صحة الطبع ، وجودة السبك . فإنما الشعر صناعة ، وضرب من الصبغ ، وجنس من التصوير » .

وهذا الرأي يدل على مذهب من المذاهب كان الجاحظ أول من نادى به في نقد الأدب العربي ، ذلك هو مذهب الصناعة ، والدعوة إلى الافتنان في الصياغة وأن النظرة إلى الأدب ينبغي أن تكون إلى مقدار ما حوى من آثار

---

(١) البيان العربي من الجاحظ الى عبد القاهر لطه حسين (مقدمة نقد النثر) ٣ ، ٤ .
(٢) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ٤٠ و ٤١ (طبعة الساسي ـ القاهرة ١٣٢٣هـ) .

الصنعة ، ومدى عناية الأديب بالأسلوب التي تبدو فيه مظاهر الفنية ، التي تميز الأديب عن غيره من الناس ، وبهذا عد الجاحظ في هذا الرأي إماماً ، وكان زعيم مدرسة تنتصر للفظ ، وتراه كل شيء في العمل الأدبي ، كما كان لمغالاته في الانتصار للأسلوب رد فعل عند بعض النقاد الذين غالوا في نصرة المعنى ، وذهبوا إلى أن الأديب لا يتطلب جهداً في طلب الألفاظ أو صياغة الأساليب إذا كان المعنى حاضراً لديه ، لأن المعنى إذ ذاك هو الذي يستدعي الألفاظ الملائمة له ، فالصعوبة في تحصيل المعنى فقط ، أما الجاحظ فإنه كما أسلفنا يرى أن المعاني متاحة للناس جميعاً ، أما التفاضل بين الأدباء فإنما مجاله صياغة هذه المعاني والتعبير عنها .

الشعر والشعراء لابن قتيبة :

ومن المؤلفات المعدودة في هذا الفن كتاب « الشعر والشعراء » الذي ألفه ابن قتيبة [1] ، وأخبر فيه الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم ، وعما يستحسن من أخبارهم ، ويستجاد من أشعارهم وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم ومعانيهم ، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون ، وأخبر فيه عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ، ويستحسن لها ، وكان أكثر قصده للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد أراد ابن قتيبة أن يكون مجدّداً في تقدير الشعر ، والحكم على

---

(١) هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري النحوي اللغوي الكاتب ، ولد في الكوفة سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وتثقف على أهلها ، وسكن بغداد ، وتولى قضاء الدينور فنسب اليها ، وكان رأسا في العربية واللغة والاخبار وأيام الناس ، ثقة دينا فاضلا ، مستقل الفكر جريئا في قول الحق ، وتوفي سنة سبع وستين ومائتين ، ومن أشهر كتبه الشعر والشعراء (وقد يسمى طبقات الشعراء) ، كتاب المعارف ، أدب الكاتب ، عيون الاخبار ، الإمامة والسياسة ، كتاب الأشربة .

الشعراء ، فلم ينظر إلى أحكام القدامى على أنها أحكام ذات قداسة يجب التسليم بها ، ولا تجوز مناقشتها ، أو ابتداع رأي مخالف لها .

ولعل ابن قتيبة بهذا كان أول داع للتخلص من قيود القديم الذي كبل العقلية العربية حقباً طويلة بأغلال ثقيلة لا نزال نحس وطأتها في أيامنا ، فيما نرى من أن كثيراً من علماء الأدب يؤثرون البقاء في الدائرة التي خطها الأسلاف مع بعد العصر ، وتباين البيئات ، واختلاف الثقافات .

ولنا أن نعد ابن قتيبة أول ثائر على التقاليد في الشعر ، وعلى أحكام القدامى ، حين هاله تعصب علماء عصره للقدامى ، وتحيّزهم الظاهر لهم ، وانتقاص كل جديد مهما كان بالغ الجودة ، استمع إليه يقول : « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلاً حظه ، ووفرت عليه حقه .

فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف ، لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب عنده إلاّ أنه في زمانه ، أو أنه رأى قائله [1] .

وبأسلوب منطقي بديع يصل ابن قتيبة إلى حقيقة ثابتة ، وهي أن الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجية في أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا الحديث وحسن حتى لقد هممت بروايته ، ثم صار هؤلاء قدماء

---

(١) الشعر والشعراء ٦ (طبعة احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٣٦٤ هـ).

عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا ، كالخريمي والعتابي والحسن بن هانيء وأشباههم ، فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه [1] .

كان ابن قتيبة كما رأينا في هذه الكلمات حراً مستقلاً في رأيه ، لا يطمئن إلى آراء القدماء السائدة في عصره إلاّ بعد اقتناع ، ولكنه على الرغم من هذا الشعور لم يستطع أن يضع مقاييس جديدة يقيس بها الشعراء أو يقسمهم إلى طبقات كما فعل ابن سلام في « طبقات الشعراء » ، ولكنه تطرق في بحثه إلى أمور تعد من صميم البحوث النقدية التي استقرت بعد ابن قتيبة ، ومن هذه الأمور تكلمه في اللفظ والمعنى ، وتقسيمه الشعر بحسبهما أقساماً ، كما تكلم في الشعر المطبوع والشعر المصنوع ، وإن كان الطبع عنده يعني الارتجال ، وتكلم عن دواعي الشعر التي تهيج لقوله ، وتكلم عن الضرورات الشعرية .

ابن المعتز وكتاب البديع :

وقد أخرج القرن الثالث أيضاً رجلاً من رجال البلاغة بمعناها المعروف ، بل لعله أقدم رجالها ، وهو الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز [2] الذي ألف كتابه « البديع » وعرض فيه ما استطاع جمعه من نصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول وكلام الصحابة والأعراب ثم من عيون الشعر الجاهلي والإسلامي والعباسي ، مما اشتمل على محسن من المحسنات البديعية التي كان

---

(١) الشعر والشعراء ٧ .

(٢) أبو العباس عبدالله بن المعتز بن المتوكل من الخلفاء العباسيين تحزب له جماعة من الجنود الأتراك وخلعوا المقتدر ، سنة ٢٩٦ وبايعوا لابن المعتز وسموه المرتضي بالله ، أقام يوما وليلة ، ثم تحزب أبناء المقتدر وحاربوا أعوان ابن المعتز وأعادوا المقتدر وقتلوا ابن المعتز سنة ٢٩٦هـ وكان شاعرا مطبوعا وهو من الأدباء والعلماء ، تثقف على المبرد وثعلب وغيرهما ، وله كتاب الأدب مختصر طبقات الشعراء وكتاب البديع .

القدماء يعرفونها، ويحلون بها أدبهم دون أن يضعوا لها أسماء ، فسماها ابن المعتز ، ومثل لها بما استطاع من الشواهد التي سبقت عصره ، وكان هدفه من هذا التأليف أن يبين أن المحدثين الذين ذكرهم ، والذين نسب إليهم استخدام المذهب البديعي لم يكونوا مبتدعيه « وليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس وأبا تمام ومن تقيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر في أشعارهم ، فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم ، ثم أكثر حبيب بن أوس الطائي منه ، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض ، وتلك عقبى الإفراط ، وثمرة الإسراف وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت من البديع [1] .

وقد كان البديع يسمى « اللطيف » حتى سماه بهذا الاسم مسلم بن الوليد ، وذكره الجاحظ في « البيان والتبين » بقوله : والراعي كثير البديع في شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابي يذهب شعره في البديع ، ومن قوله في ذلك « والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان » على ما نعرف من تعصب الجاحظ في كتابته للعرب ولغتهم وأدبهم. وفي موضع آخر من بحثنا هذا سنفصل جهد ابن المعتز في التأليف البلاغي ، ومدى اتصاله بجهود أبي هلال .

عيار الشعر لابن طباطبا

وفي هذه الفترة ألف أبو الحسن محمد بن طباطبا العلوي كتابه « عيار الشعر » الذي مجد فيه من قيمة الذوق في تأليف الشعر وفي نقده ، وبين أن سر ما في الشعر من حسن ليس ما فيه من وزن وعروض وقافية . فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه ، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض وتقويمه ، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه .

---

(١) البديع ١٥ و ١٦ (طبعة الحلبي ـ القاهرة) .

وقد بين أدوات الشعر التي يجب إعدادها قبل مراسه وتكلّف نظمه ، فمن تعصب عليه أداة من أدواته لم يكمل له ما يتكلفه منه ، وبان الخلل فيما ينظمه ، ولحقته العيوب من كل جهة .

وتلك الأدوات عند العلوي هي الثقافة التامة ، والتوسع في علم اللغة ، والبراعة في فهم الإعراب ، والرواية لفنون الآداب ، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم ، ومناقبهم ومثالبهم ، والوقوف على مذاهب العرب في تأليف الشعر ، والتصرف في معانيه ، في كل فن قالته العرب فيه .

والذي يبين من اتجاهه هو الحفاظ الشديد على تقاليد العرب في منظومها ، وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها ، والسنن المستدلة فيها ، وتعريضها رتصريحها ، وإطنابها وتقصيرها ، وإطالتها وإيجازها ، وعذوبة ألفاظها ، وجزالة معانيها ، وحسن مباديها ، وحلاوة مقاطعها ، وإيفاء كل معنى حظه من العبارة ، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة ، واجتناب ما يشينه من سفساف الكلام وسخيف اللفظ والمعاني المستبردة ، والتشبيهات الكاذبة ، والإشارات المجهولة والأوصاف البعيدة ، والعبارات الغشة ، حتى لا يكون متفاوتاً مرقوعاً ، بل يكون كالسبيكة المفرغة ، والوشي المنمنم والعقد المنظم ، واللباس الرائق ، فتسابق معانيه ألفاظه ، فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ السمع بموتق لفظه ، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه .

وفي هذا الرأي نراه وقد نظر إلى ركني الأدب — اللفظ والمعنى — نظرة العدل بينهما ، فلم يتعصب لأحدهما على نحو ما رأينا للجاحظ أو لغيره .

ومنهج ابن طباطبا في هذا الكتاب منهج تعليمي بكل ما تحتمل كلمة « التعليم » من معنى ، وقد رأينا هذا المنهج التعليمي عند بعض العلماء أو النقاد ، ولكن ليس على هذا الوجه التفصيلي الذي نقرؤه في « عيار الشعر »

إذ يعلم الشاعر كيف يصوغ القصيدة وكيف يؤلفها من الألف إلى الياء ، ويعلمه كيف يصنع « التجربة » ، ثم كيف ينقحها ، وكيف يصل بين أجزائها ، وكيف يبدأ وكيف ينتهي .

فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً ، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه ، والقوافي التي توافقه ، والوزن الذي يسلس له القول عليه ، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته ، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر ، وترتيب لفنون القول فيه ، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت ما بينه وبين ما قبله ، فإذا كملت له المعاني وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكون نظاماً لها وسلكاً جامعاً لما تشتت منها ، ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ونتجته فكرته ، فيستقصي انتقاده ، ويروم ما وهى منه ، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية ، وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول ، وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول ، نقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن ، وأبطل ذلك البيت أو نقض بعضه ، وطلب لمعناه قافية تشاكله ، ويكون كالنساج الحاذق الذي يفوّف وشيه بأحسن التفويف . . . وكالنقاش الرفيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه ، ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان ، وكناظم الجواهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق ،ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها[1]

كما تكلم عن المشاكلة بين الألفاظ والأساليب ، فالشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح لم يخلط به الحضري المولد ، وإذا أتى

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ٥ بتحقيق الدكتورين طه الحاجري وزغلول سلام (طبعة التجارية ـ القاهرة ١٩٥٦م) .

بلفظة غريبة أتبعها أخواتها . وكذلك إذا سهل ألفاظه لم يخلط بها الألفاظ الوحشية النافرة الصعبة القيادة .

وكذلك نبه إلى ضرورة مطابقة الكلام لأحوال المخاطبين ومراتبهم ، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات ، ويتوقى حطها عن مراتبها ، وأن يخلطها بالعامة ، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك ، ويعد لكل معنى ما يليق به ، ولكل طبقة ما يشاكلها ، حتى تكون الاستفادة من قوله في وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وإبداع نظمه .

ونقرأ في « عيار الشعر » القول المختار في اللفظ والمعنى الذي يظهر فيه الاعتدال والبعد عن الشطط والإسراف في تفضيل واحد منهما وإيثاره بالعناية ، وجعله مناط التفاوت بين الأدباء ، فإن العلوي يصرح بأن للمعاني ألفاظاً تشاكلها ، فتحسن فيها وتقبح في غيرها .

فالألفاظ للمعاني كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون البعض وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه ، وكم من معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه ، وكم من صارم عضب قد انتضاه من وددت لو أنه انتضاه فهزه ثم لم يضرب به ، وكم من جوهرة نفيسة ، قد شيدت بقرينة لها بعيدة منها ، فأفردت عن أخواتها المشاكلات لها ، وكم من زائف وبهرج قد نفقا على نقادهما . ومن جيد نافق قد بهرج عند البصير بنقده فنفاه سهواً ، وكم من زبر المعاني في حشو الأشعار لا يحسن أن يطبعها غير العلماء بها والصياقلة للسيوف المطبوعة منها . وكم من حكمة غريبة قد ازدريت لرثاثة كسوتها ، ولو جليت في غير لباسها ذلك لكثر المشيرون إليها ، وكم من سقيم من الشعر قد يئس طبيبه من برئه عولج سقمه فعاودته سلامته ، وكم من صحيح حتى عليه فأرداه حينه.

كما عرض لشعر « المولدين » ووازن بينه وبين شعر الجاهليين والإسلاميين وتكلم عن عظم المئونة على المحدثين ، لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ، ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساخرة . فإن أتوا بما يقصر عن معاني أولئك ولا يربى عليها لم يتلق بالقبول ، وكان كالمطرح المملول . . . فينبغي للشاعر في عصرنا ألاّ يظهر شعره إلاّ بعد ثقته بجودته وحسنه ، وسلامته ، من العيوب التي نبه عليها وأمر بالتحرز منها ، ونهى عن استعمال نظائرها ، ولا يضع في نفسه أن للشعر مواضع اضطرار ، وأنه يسلك سبيل من كان قبله ، ويحتج بالأبيات التي عيبت على قائلها ، فليس يقتدى بالمسيء ، وإنما يقتدى بالمحسن .

وحذّر العلوي الشعراء من السرّقة ، وأن يغير الشاعر على معاني الشعر ، فيودعها شعره ، ويخرجها في أوزان مخالفة لأوازن الأشعار التي يتناول منها ما يتناول ، ويتوهم أن تغييره للأوزان والألفاظ مما يستر سرقته ، أو يوجب له فضيلة .

وإن كان يوجب على الشاعر أن يديم النظر في الأشعار المختارة ، لتلصق معانيها بفهمه ، وترسخ أصولها في قلبه ، وتصير مواد لطبعه ، ويذوب لسانه بألفاظها ، فإذا جاش فكره بالشعر أدى إليه نتائج ما استفاده مما نظر فيه من تلك الأشعار ، فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التي تخرجها المعادن ، وكما قد اغترف من وادٍ قدمته سيول جارية من شعاب مختلفة ، وكطيب تركب من أخلاط من الطيب كثيرة ، فيستغرب عيانه ، ويغمض مستبطنه أويذهب في ذلك إلى ما يحكى عن خالد ابن عبد الله القسري فإنه قال : « حفّظني أبي ألف خطبة ، ثم قال لي : تناسها ، فتناسيتها ، فلم أرد بعد ذلك شيئاً من الكلام ، إلاّ سهل عليّ » فكان حفظه لتلك الخطب رياضة لفهمه ، وتهذيباً لطبعه ، وتلقيحاً لذهنه ، ومادة لفصاحته ، وسبباً لبلاغته ولسنه وخطابته .

وهكذا نرى أن أسلوب التعليم يغلب على هذا الكتاب ، الذي يقدم للشعراء تلك الوصايا والأمثال ليقتدوا بها ، ويسيروا على نهجها في تأليف الشعر .

أما عيار الشعر ، أو المقياس الذي تقاس به جودة الشعر ، فهو أن يورد على الفهم الثاقب ، فما قبله واصطفاه فهو واف ، وما مجّه ونفاه فهو ناقص . والعلة في قبول الفهم الناقد للشعر الحسن الذي ورد عليه ، ونفيه للقبيح منه ، واهتزازه لما يقبله ، وتكرهه لما ينفيه أن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت عليه ، إذا كان وروده عليها وروداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه ، وبموافقة لا مضادة معها .

فالعين تألف المرأى الحسن ، وتقذى بالمرأى القبيح الكريه .
والأنف يقبل المشم الطيب ، ويتأذى بالمنتن الخبيث .
والفم يلتذ بالمذاق الحلو ، ويمج البشع المر .
والأذن تتشوف للصوت الخفيض الساكن ، وتتأذى بالجهير الهائل .
واليد تنعم بالملمس اللين الناعم ، وتتأذى بالخشن المؤذي .

والفهم يأنس من الكلام بالعدل والصواب الحق ، والجائز المعروف المألوف ، ويتشوف إليه ، ويتجلى له ، ويستوحش من الكلام الجائر والخطأ الباطل والمحال المجهول المنكر ، وينفر منه ، ويصدأ له .

فإذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوماً مصفّى من كدر العيّ ، مقوماً من أول الخطأ واللحن ، سالماً من جور التأليف ، موزوناً بميزان الصواب لفظاً ومعنى وتركيباً اتسعت طرقه ، ولطفت موالجه ، فقبله الفهم ، وارتاح له ، وأنس به .

وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه ، فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة المعنى وعذوبة اللفظ فصفا مسموعه ومعقوله من الكدر تمّ قبوله له ، واشتماله عليه ، وإن

نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها ، وهي : اعتدال الوزن ، وصواب المعنى ، وحسن الألفاظ ، وكان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه ، ومثال ذلك الغناء المطرب الذي يتضاعف له طرب مستمعه المتفهم لمعناه ولفظه مع طيب ألحانه وأما المقتصر على طيب اللحن منه دون ما سواه فناقص الطرب ، وهذه حال الفهم فيما يرد عليه من الشعر الموزون .

فهذا رجل يمجد الذوق ، ويحتكم إليه في قبول الشعر وتمييز جيده من رديئه .

قدامة ونقد الشعر :

أما الإفادة من العلم ووسائله في تقدير قيم الشعر فإنها تبدو واضحة في مؤلف من طراز جديد ، وفي كتاب ينهج نهجاً جديداً .

أما المؤلف فهو قدامة بن جعفر البغدادي [1] ، ذلك الرجل الذي لم يكن عربياً في أصله ، ولا عربياً في أسلوب تفكيره ، وأما الكتاب فهو « نقد الشعر » الذي نعده نقطة التحول في الأساليب النقدية ، وتوجيهها توجيهاً جديداً لا عهد للنقد العربي به .

كان النقد كما قدمنا فناً في أكثر مظاهره ، يستلهم الإحساس الفطري البعيد عن أساليب التفكير العلمي ، والخالي من الفلسفة والقواعد المنطقية ، فجاء قدامة فجعله علماً ، وجعل للفن الأدبي قواعد يحكم بها عليه بأسلوب

---

(١) كان نصرانيا وأسلم على يد المكتفي بالله ، وكان أحد البلغاء الفصحاء ، والفلاسفة الفضلاء ، وممن يشار اليه في علم المنطق ، أدرك زمن ثعلب والمبرد وأبي سعيد العسكري وابن قتيبة وطبقتهم ، والأدب يومئذ طري ، فقرأ واجتهد ، وبرع في صناعتي البلاغة والحساب وقرأ صدرا صالحا من المنطق وهو لائح على ديباجة تصانيفه ، واشتهر في زمانه بالبلاغة ونقد الشعر ، وصنف في ذلك كتبا أهمها « نقد الشعر » وقد تعرض ابن بشر الآمدي الى الرد عليه فيه .. مات سنة سبع وثلاثين وثلثمائة في أيام المطيع (وبقية أخباره في معجم الأدباء ج ٧ ص ١٢) .

جديد هو أسلوب المنطق الذي يشرح علة الاستحسان ، ويبين سبب الاستهجان وكان ذلك صدى لثقافة جديدة طارئة على البيئة العربية ، تلك هي الثقافة اليونانية ، وفي مقدمتها الأفكار والآراء التي تضمنها كتاب « الخطابة » لأرسطو الذي نقل في هذا القرن إلى اللسان العربي ، وكان جهد قدامة كما يبدو تطبيقاً لنظريات هذا الكتاب ، وتحكيماً لقواعد الفلسفة في الحكم على معاني الشعر العربي ، فكان قدامة أول ناقد فتح في نقد الشعر العربي باب النظر والفلسفة ، ونظم بعض المباحث البلاغية التي جاء العلماء من بعده ، فأتموا تنظيمها وأكملوها.

ولقدامة أثر جديد في علم البديع الذي ابتدعه ابن المعتز ، فقد أضاف إلى محسنات ابن المعتز كثيراً من المحسنات ، وهي التي جعلها نعوتاً للشعر الجيد في عناصره الأربعة . اللفظ ، والوزن ، والمعنى ، والقافية .

وتحملنا الرغبة عن التكرار إلى الاكتفاء بما تقدم عن قدامة ، فإن للإفاضة في شرح بلاغته ومنهجه موضعاً آخر حين نعرض لأثره في أبي هلال وبلاغته ونقده .

الآمدي وموازنته بين الطائيين :

غير أن هذا المذهب الجديد الذي قام على أساس علمي محض ، وابتدعه قدامة وجد من العلماء من تنكر له . وحتم ضرورة العودة إلى الأسلوب الأصلي : أسلوب تحكيم الذوق ودراسة الأدب بموازنته في ألفاظه ومعانيه بنظائره في تلك النواحي . والعودة إلى دراسة الأدب ونقده ، ببيان ما فيه من أوجه الحسن أو القبح ، وإصابة الغرض الذي رمى إليه الأديب ، ونقد أسلوبه بتبيان حظه من الجزالة أو السلالة ، والطبع أو التكلف ، وما فيه من فضول الكلام أو الإخلال ، وتبحث في حسن التئام أجزاء الكلام بعضها ببعض ، إذ ليس في استطاعة الأساليب العلمية التي تلجأ إلى التعريف والتقسيم والتقنين أن تولد القدرة على إدراك الجمال الفني على حقيقته ، وأن تجعل القارىء أو

المستمع يحس باللذة الفنية التي حواها الأثر الأدبي ، وأن تصل إلى منبع الإحساس الداخلي ، والعاطفة الكامنة بأحكام عقلية .

ذلك النظر إلى المنهج العلمي في تناول الأدب في دراسته ونقده تنكر له بعض أعلام النقد الأدبي في القرن الرابع وفي مقدمتهم الآمدي [1] مؤلف كتاب « الموازنة بين أبي تمام والبحتري » وقد رأى في جملة ما رأى أن النقد صناعة تحتاج كما تحتاج صناعة الشعر إلى طبع صاف ، وقريحة مواتية ، ودربة ومران ، وطول معاناة .

وكان جل اعتماده — كما سمى كتابه — على الموازنة والتذوق ، وبيان أسباب التفوق ، وعلل القعود والانضاع أو إرجاع هذه الأسباب إلى حكم الذوق السليم ، مع الابتعاد عن أساليب العلم التي استنها في نقد الأدب العربي صاحب « نقد الشعر » ، بل إن الآمدي تبع قدامة فعدد أخطاءه في النقد في كتاب سماه « تبين غلط قدامة بن جعفر في نقد الشعر » . وهذا الكتاب لم يقع بين أيدينا ، ولعل فيه خيراً كثيراً ، وقد أشار إلى هذا المؤلف الآمدي نفسه في كتاب الموازنة ، فقال بعد كلام في « المعاظلة » : ذكروا هذه الجمل ثم مثلوا لها أمثلة تزيد ما قاله عمر رضي الله عنه وضوحاً وبياناً إلاّ أبا الفرج قدامة بن جعفر ، فإنه ذكره في كتابه المؤلف في الشعر ، ومثل له أمثلة فغلط في أمثلة المعاظلة غلطاً قبيحاً ، وقد ذكرت ذلك في كتاب بينت فيه جميع

---

(١) الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي النحوي الكاتب أبو القاسم ، كان حسن الفهم جيد الرواية والدراية أخذ من الاخفش والزجاج والحامضي وابن السراج وابن دريد ونفطويه وغيرهم ، وله شعر حسن ، ومن تصانيفه المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء ، فعلت وأفعلت ، فرق ما بين الخاص والمشترك من معاني الشعر ، الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، تبيين غلط قدامة بن جعفر في نقد الشعر (وبقية كتبه في بغية الوعاة ص ٢١٨) توفي سنة احدى وسبعين وثلثمائة .

ما وقفت عليه من سهوه وغلطه [1] .

والآمدي في موازنته يفصل أسباب الحكم ثم يحكم ، ويوضح خصائص كل من الشاعرين ، وفضله على صنوه .

وله ميزة على كل من تقدمه من النقاد أنه لا يرضى التعميم المسرف والأحكام المرتجلة ، كأن يقول أحد النقاد : إن فلاناً أشعر العرب بهذا البيت أو بهذه القصيدة ، بل إنه يحكم أحكاماً موضوعية ، ويعطي كل جزء أو قصيدة حظها من الرأي بالاستحسان أو الاستهجان ، ويرفض الحكم العام ، وتلك نغمة جديدة نغمة الإنصاف ، والتحيز إلى جانب الصدق ، فليس المجيد في موضع مجيداً في غيره ، ولا المقصر في معرض مقصراً أبداً ، فيقول : « وأنا أذكر بإذن الله الآن في هذا الجزء المعاني التي يتفق فيها الطائيان ، فأوازن بين معنى ومعنى ، وأقول أيهما أشعر في ذلك المعنى بعينه ، فلا تطلبني أن أتعدى هذا إلى أن أفصح لك بأيهما أشعر عندي على الإطلاق ، فإني غير فاعل ذلك ، لأنك إن قلدتني لم تحصل لك الفائدة بالتقليد » [2] !

ومنهج الآمدي العام للموازنة التفصيلية بين الشاعرين « توضيح لمذاهب الشعر العربي ، واستنباط لأصالة كل منهما في كل معنى عبرا عنه ، ثم مقارنة ما قالاه بما قاله غيرهما من الشعراء ، مع الحكم على تلك الاصالة حكماً يقوم على الذوق والحقائق الإنسانية العامة ، وإن لم يخل الأمر من تحكم ، ثم الوقوف في تفسير التفاوت عند النزعة الفنية دون أي محاولة ، ليرد ذلك إلى الطبيعة النفسية لكل شاعر ، وذلك لفطنة الناقد إلى أنه لا علاقة بين شعر هذين الشاعرين وتجارب حياتهما » [3] .

---

(١) الموازنة ١٢٥ .
(٢) الموازنة ١٧٦ .
(٣) النقد المنهجي ٢٩٨ .

الجرجاني ووساطته بين المتنبي وخصومه :

ومن هذا اللون الذي ينفر من النظر والرجوع إلى أساليب العلم في تذوق الأدب القاضي الجرجاني [1] مؤلف كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » وهو في كتابه هذا يعرض لبعض ما أخذ على المتقدمين من شعراء الجاهلية من الأخطاء ، ليتخذ من ذلك مسوغاً لما أخذ اللغويون والنحويون على أبي الطيب ويتناول الزمان والمكان ، ويوضح أثرهما في التفاوت بين الشعراء ، ويتناول البديع وما استحدث من فنونه ، فيذكر منها الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة والتصحيف ، التي أضافها المحدثون إلى مقاييس النقد « وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم بالسبق لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، وتحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ، ونظام القريض . وقد يقع في خلال قصائدها ، ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد ، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه « البديع » ، فمن محسن ومسيء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط » [2] .

والجرجاني في كتابه رجل أديب اكتملت لديه آلة الأدب . فرأى أن « أقل الناس حظاً في هذه الصناعة من اقتصر في اختياره ونفيه ، وفي استجادته

---

(١) علي بن عبد العزيز أبو الحسن قاضي الري في أيام الصاحب بن عباد، كان أديبا أريبا كاملا ، وهو استاذ إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني. طوف في صباه البلاد ، واقتبس العلوم والآداب . وله عدة تصانيف منها : كتاب تفسير القرآن المجيد ، كتاب تهذيب التاريخ ، كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه . مات بالري سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة .

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٣٣ .

واستسقاطه على سلامة الوزن ، وإقامة الإعراب ، وأداء اللغة ، ثم كان همه وبغيته أن يجد لفظاً مروقاً ، وكلاماً مزوقاً ، قد حشي تجنيساً وترصيعاً ، وشحن مطابقة وبديعاً ، أو معنى غامضاً قد تعمق فيه مستخرجه ، وتغلغل إليه مستنبطه ، ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب ، واضطراب النظم ، وسوء التأليف ، وهلهلة النسج ، ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها ، ولا يسبر ما بينهما من نسب ، ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب ، ولا يرى اللفظ إلاّ ما أدى المعنى ، ولا الكلام إلاّ ما صور له الغرض ، ولا الحسن إلاّ ما أفاده البديع ، ولا الرونق إلاّ ما كساه التصنيع [1] .

وفي هذا القول خلاصة رأي القاضي الجرجاني : النفور من مذاهب النحويين واللغويين في النقد ، والتنفير من الصنعة ، إلاّ إذا جاءت طائعة غير مستكرهة .

فهو في هذه الناحية شبيه كل الشبه بصاحب الموازنة بين الطائيين ، وذوقهما في آرائهما ذوق عربي أصيل . ونقدهما نقد فني ذوقي ، وهو مع ذلك نقد موضوعي فيه النزر اليسير من القواعد ، غير أن النقد الأدبي لما كان مبنياً على الذوق ، فلم ينس أصله الفني .

* * *

تلك لمحات سريعة ، ونظرات خاطفة ، تقفنا على ما بذل السابقون والمعاصرون لأبي هلال أو أكثرهم من جهد في النقد الأدبي ، وكان أبو هلال العسكري قد ثقف كل تلك الثقافات البلاغية والنقدية ، فكان كتابه ثمرة من ثمراتها ، مع ذاتية خاصة ، وروح أدبي قادر على الاستيعاب والتحصيل ، وتأليف الأدب شعره ونثره .

ثم إن هذا النقد الذي اختلفت ألوانه ومناهجه ، وتلك الآراء والأحكام الأدبية كانت نواة علم جديد من علوم العربية ، أو العلوم اللسانية هو « علم

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٣٣ .

البلاغة » فإن هذه الملاحظات وتلك الآراء قد استحالت فيما بعد إلى قوانين علمية ترشد الكتاب والشعراء إلى ما يجب اتباعه في التعبير عن العقل والشعور وهي قوانين البلاغة ، وأبواب المعاني والبيان والبديع .

ولقد عاش النقد والبلاغة مختلطين من أقدم عصورهما . . . وليس هذا بالأمر الغريب ، بل هو طبيعي ، إذ أن كلاً من النقد والبلاغة يدور حول تحقيق الصدق والقوة والجمال في الأداء والتعبير الأدبي ، فالبلاغة تأخذ بيد الأديب وتهديه إلى الصواب ، والنقد يقفه على ما أصاب من حسن ، وما تورط فيه من قبيح ، فهما متحدان موضوعاً [1] .

وإذا كان هنالك من اختلاف بين النقد والبلاغة في منهج كل منهما وغايته فهو من هذه الوجوه :

(الأول) أن البلاغة إيجابية سابقة ، فإنها تضع للأديب القوانين التي تساعده على التعبير ، وتأليف الكلام الواضح الجميل ، ولكن النقد يفرض أن الكلام قد تمّ إنشاؤه ، ثم يتخذ من قوانينه مقاييس يقدر بها هذا الكلام ؛ لبيان ما فيه من محاسن أو مساوىء ، ولذلك يأتي النقد متأخر الوظيفة عن البلاغة.

(الثاني) أن البلاغة تعنى بالأسلوب أكثر فتفرض أن الأديب عنده مادة ، يريد أداءها مهما تكن قيمتها ، ثم ترسم له طرق الأداء شعراً ونثراً ، خطابة أو قصصاً أو تقريراً أو تمثيلاً . أما النقد فيعنى بالأسلوب والمادة جميعاً ، ويتناولهما بالتقرير على حد سواء وإن كانت مقاييسه عامة قليلة .

(الثالث) أن الأصل في البلاغة أنها مرتبطة بالقراء والسامعين ، فالبليغ ملتزم بملاحظة حاجتهم الثقافية ، ومستواهم في الفهم ، وما يحيط بهم من مؤثرات ، ثم يؤلف كلامه مطابقاً لهذه الأحوال ، والأصل في الأدب الاتصال

---

(١) أصول النقد الأدبي ٥١ .

بالأديب نفسه وتقرير مواهبه وآرائه في صدق ووضوح ، وعلى القراء أن يعدوا أنفسهم لدراسته وفهمه ، على أن النقد والبلاغة كثيراً ما يلتقيان إذا ما تقاربت حاجة الكاتب وقرائه ، وكان أديباً اجتماعياً يحسن الاتصال بعصره ومعاصريه [1] .

ويمكن أن نضيف إلى هذه الوجوه وجهاً رابعاً هو اعتماد البلاغة على الأساليب العلمية والتقسيمات العقلية والمنطقية والجدل ، واعتماد النقد أكثر ما يعتمد على الذوق ، وما يثيره الأثر الأدبي في نفس القارىء أو السامع من أحاسيس وانفعالات .

---

(١) أصول النقد الأدبي : ص ٥١ ، ٥٢ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

منابع بلاغته ونقده

كان أبو هلال أحد أولئك الأفذاذ الذين منحوا قدرة بارعة على الاطلاع وصبراً على الدرس والتحصيل ، فقرأ وقرأ كثيراً ، وانتفع بقراءته على نحو لم ينتفع بمثلها كثير غيره ، وظهر مدى هذا الانتفاع واضحاً جلياً فيما خلّف من تراث يحتل منزلة جليلة في المكتبة العربية .

وإذا كان العلم علمين : علم رواية وعلم دراية ، فقد أجاد العسكري في الناحيتين ، وديوان « المعاني » أكبر شاهد على فطرته السليمة ، وقدرته على الحفظ والاستيعاب ، وكتاب « الصناعتين » أعظم دليل على الحافظة الواعية والبصيرة النفاذة .

ونعتقد أنه لولا شواغل الحياة التي اضطرته أن يجلس في السوق يبيع ويشتري ، ليحفظ ماء وجهه أن يراق في السؤال ، لانتظرنا منه أكثر مما رأينا ، ولقرأنا له أضعافاً مما كتب وألّف ، ولكانت قدرته على التصرف والابتكار أكثر وضوحاً ، ولكان علم الأعلام في العلم والأدب ، فلم يكن ينقصه الصبر على مرارة التحصيل ، والجلد على إدامة الاطلاع ، والمثابر على الجلوس إلى الأساتذة ، ولا تنقصه الفطنة التي ترشحه أن يحل أعظم محل وأكرم منزل بين الأدباء والنقاد بل بين رجال العقل والفكر ، في دائرة الأدب ونقده في الأقل .

أراد العسكري أن يؤلف في « الصناعتين : الكتابة والشعر » ، ليجعل كتابه أكثر إحاطة وأعظم نفعاً ، من كتاب قدامة « نقد الشعر » فشمر عن ساعد الجد ، واستعان في تأليفه بجل ما كتب الكاتبون الذين عالجوا مثل ما عالج أو بعض النواحي التي تتصل بما عالج .

وقد أشرنا في الفصل السابق إلى جهود بعض أولئك السابقين في دراسة الأدب ونقده ، ذكرنا منهم ابن سلام وكتابه « طبقات الشعراء » والجاحظ وكتابه « البيان والتبيين » وابن قتيبة وكتابه « الشعر والشعراء» وابن المعتز وكتابه « البديع » وابن طباطبا وكتابه « عيار الشعر » وقدامة بن جعفر وكتابه « نقد الشعر » والآمدي وكتابه « الموازنة بين أبي تمام والبحتري » والقاضي الجرجاني وكتابه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » . وهي أهم الكتب التي تتصل بفنون الأدب شعره ونثره ، وتحللها وتنقدها ، وتضع لها الأصول ، وتستن لها القواعد التي ألفها الذين سبقوه إلى التأليف في هذا المجال .

قرأ أبو هلال جلّ هذه الآثار قراءة فحص وإمعان ، واستطاع أن يعي خير ما فيها ، وأن ينقد منها ما هو معيب سواء أكان عيبه من ناحية المنهج الذي سلكه المؤلفون أم كان في الموضوع الذي عرضوا له .

نعم ! استطاع العسكري أن يمخض هذه الكتب وأن يستخلص زبدتها في كتبه ، ولا سيما كتاب « الصناعتين » الذي نستطيع أن نعده مجتمع أفكار هؤلاء السابقين مع اختلاف مذاهبهم ، وتباين مناهجهم في البحث ، وأن يؤلف بين هذا المذهب وذاك ، وأن يوحّد تلك المناهج ، حتى لقد يكون في استطاعة القارىء أن يجتزىء بكتاب « الصناعتين » عن هذه الكتب الكثيرة ، لأنه يجد فيه خلاصة التجارب والأفكار في دراسة الشعر والنثر .

فهذه الكتب التي تعرضت للأدب ونقده ، كانت الموارد التي روى منها كتاب الصناعتين ، أو هي منابع بلاغة أبي هلال ونقده .

كان من الطبيعي أن يديم العسكري النظر في كتاب « البيان والتبيين » الذي ألفه الجاحظ علم أعلام العقل والأدب في العصر العباسي ، إذ رأى جمهرة الأدباء والكتّاب يغالون في الكتاب وفي فضل مؤلفه . فقد أثنى الجاحظ

على الكتاب ثناء خالداً حين قرر أنه لم يظفر بما أراد من علم الشعر إلاّ عند الأدباء الكتّاب ، ففضلهم على أبي عبيدة والأخفش والأصمعي وأضرابهم من العلماء المشار إليهم ، فكان هذا القول داعية إعجابهم ، وسر هيامهم بشخصه وبكتابه ، وبما تضمن من آراء جعلوها مورد فصاحتهم ومنبع بلاغتهم ، فلا غرو أن يتخذه العسكري إماماً ، وأن يشيد بكتابه ، وما حوى من الخطب والأشعار والأخبار ، ولا يجد ما يأخذه عليه إلاّ أن الإبانة عن حد البلاغة منثورة في كتابه ، مبثوثة في تضاعيفه ، وأن ينظر العسكري إلى اللفظ والمعنى كما نظر الجاحظ ، فيأخذ عنه رأيه في تفضيل اللفظ ، وجعله مدار البلاغة ، والذهاب إلى أن الناس جميعاً متساوون في الحظ من المعاني ، لأنها كما يقول الجاحظ « مطروحة في الطريق » وهذا المبحث من أهم المباحث البلاغية التي عنى بها العسكري في كتاب « الصناعتين » . ورأي الجاحظ هو رأيه الذي دافع عنه .

وكذلك الباب الذي عقده العسكري في « القول في تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في حدود البلاغة » أخذ أكثر هذه الحدود مما أورد الجاحظ في تعريف البلاغة ، ثم شرح العسكري هذه الحدود في إسهاب ، ومثل لها ، وذكر ما قد يكون لديه من مآخذ عليها ، أو غموض فيها .

وإذا كان الجاحظ قد استبشع حوشي الألفاظ وغريبها ، وأبدى عجبه لأن بعض العلماء رووا الأشعار التي كثر فيها الحوشي والغريب ، فإن العسكري يتابعه في هذا الرأي ، بل ينقل عبارة الجاحظ بنصها « رأيتهم يديرون في كتبهم هذا الكلام ، فإن كانوا إنما رووه ودونوه لأنه يدل على فصاحة وبلاغة فقد باعده الله عن صفة الفصاحة والبلاغة ! وإن كانوا قد فعلوا ذلك لأنه غريب ، فأبيات من شعر العجاج وشعر الطرماح وأشعار هذيل يأتي لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك ، ولو خاطب أحد الأصمعي بمثل

هذا الكلام لظننت أنه سيجهل بعضه »[1] وعلى هذا فإن الجاحظ وبيانه يعدّان من أول الموارد التي وردها العسكري ونهل منها .

وقد نفقت في العصر الذي أخرج العسكري تحلية فنون الأدب بصنوف البديع ، وتعلق بها الشعراء والكتّاب وغالوا بها ، وأصبحت قياسهم في الحكم بالإجادة والإبداع ، وادعى بعضهم فضيلة السبق والابتكار ، فهال هذا الادعاء عبد الله ين المعتز فصنف كتابه « البديع » ليعلم أن بشار ومسلما وأبا نواس ومن تقبلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه[2] .

فكان من الطبيعي أن يعنى أبو هلال وهو مؤلف في الصناعتين — الكتابة والشعر — بالبديع ومحسناته ، وأن يعقد له هذا الباب الطويل الذي يبلغ نصف كتابه ، وأن يكون إمامه فيما كتب ما كتب ابن المعتز ، يأخذ عنه الألقاب ؛ وما أتى به من الأقسام والحدود بل ينقل عنه أكثر أمثلته ، ويزيد فيها ما استطاع ، ويخترع من أنواعه تلك المحسنات التي سنفصل القول فيها . ويبقى الفضل بعد ذلك للأستاذ الذي راد الطريق ، وذلل وعره أمام السالكين .

ويكون ابن المعتز بعد ذلك ينبوعاً من أهم الينابيع التي استقى منها العسكري بلاغته .

ثم يدخل على العقلية العربية في هذا الدور عامل جديد ، ذلك هو الفلسفة اليونانية التي نقلت إلى العرب ، ويكون لهذا العامل أثره في نقد الأدب كما كان له أثره في النواحي العلمية والفكرية الأخرى ، فيتجه النقد اتجاهاً جديداً ، ويعمل على وضع قواعد ومقاييس علمية تقوم عليها صناعة النقد الأدبي ،

---

(١) كتاب الصناعتين ٣٢ .
(٢) كتاب البديع ١٦ .

فلقد ترجم إلى اللسان العربي كتابا أرسطو « الخطابة » و « الشعر » وفيهما دراسة جديدة وقواعد لنقد الأدب وتأليفه لا عهد للعرب بها ، فحاولوا أن يفيدوا من هذا المنهج الجديد ، وأن يطبقوه على شعرهم ونثرهم ، فنجحوا في ذلك السبيل ما وسعهم النجاح ، ومرن الأدب في أيديهم ، فأخضعوه لهذه المناهج ، واستجاب لهم هذا الأدب ، فاستخلصوا منه نماذج لقواعدهم ومقاييسهم ، حتى ليخيل إليك أمام هذا التصرف والفهم والتذوق أن هذه المقاييس لم يصنعها إلاّ العرب ، ولم يقس بها إلاّ أدبهم .

وكان أعظم أولئك الذين وردوا هذا المورد قدامة بن جعفر الذي ألف « نقد الشعر » متأثراً فيه إلى حد كبير بآراء المعلم الأول . وعلى الرغم من أن أبا هلال صرح بأنه لن يذهب في الصناعتين مذهب المتكلمين إلاّ أن نظرة فاحصة في هذا الكتاب وما اشتمل عليه من مقاييس وقواعد بلاغية ستوقفك على أن « نقد الشعر » من أهم مصادر « كتاب الصناعتين » بل إننا نرجح أن علة تأليف الصناعتين « الكتابة والشعر » هو سبق قدامة بالتأليف في إحدى الناحيتين دون الأخرى ، وأبو هلال من أخلص العلماء لمذهب قدامة ، وفضله على هذا المذهب الجديد لا يجحد ، فهو الذي مكن له بالتقرير والتفسير والاستشهاد وامتثل طريقته ، وكتاب الصناعتين حافل بما أخذ العسكري عن قدامة ، وفيما يأتي بعض الأمثلة الشواهد لذلك :

فإذا كانت فضائل الناس عند قدامة من حيث إنهم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان . . . إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة وكان القاصد لمدح الرجال بهذه الخصال مصيباً ، والمادح بغيرها مخطئاً [1] فإن أبا هلال لا يتجاوز هذا الرأي ، بل يدعيه لنفسه ، ويعد من عيوب المديح أن يعدل المادح عن الفضائل التي تختص بالنفس من العقل والعفة والعدل

---

(١) نقد الشعر ٥٩ .

والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحسن والبهاء والزينة [1] .

وقدامة يبني على قوله هذا في المديح رأيه في الهجاء ، فإذا كان الهجاء ضد المديح فكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى له ، ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الأهاجي فيها وكثرتها [2] .

ويأخذ العسكري بهذا القول فيقول : والهجاء إذا لم يكن يسلب الصفات المستحسنة التي تختصها النفس ، ويثبت الصفات المستهجنة التي تختصها أيضاً لم يكن مختاراً، والاختيار أن ينسب المهجو إلى اللؤم والبخل والشره وما أشبه ذلك ، وليس بالمختار في الهجاء أن ينسبه إلى قبح الوجه ، وصغر الحجم ، وضؤل الجسم [3] .

ويرى أبو هلال أن التشبيب ينبغي أن يكون دالاً على الصبابة وإفراط الوجد ، والتهالك في الصبوة ، ويكون بريئاً من دلائل الخشونة والجلادة وأمارات الإباء والعزة [4] . . . ويستجاد التشبيب أيضاً إذا تضمن ذكر التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بهبوب الرياح ولمع البروق، وما يجري مجراهما من ذكر الديار والآثار . . . وكذلك ينبغي أن يكون التشبيب دالا على الحنين والتحسر وشدة الأسف . . . وينبغي أن يظهر التناسب الرغبة في الحب ، وألاّ يظهر التبرم به [5] ويؤكد هذا المعنى بقوله في سياق آخر إن التجلد من العاشق مذموم [6] .

وهذه المعاني بأسرها هي التي أوردها أستاذه قدامة ، الذي لقنه أسلوب التعليم والتقرير ، وعلمه أن يطالب أهل الفنون بقواعد العلوم ، وأن يقول

---

(١) الصناعتين ٩٥ .
(٢) نقد الشعر ٩٥ .
(٣) الصناعتين ١٠١ .
(٤) الصناعتين ١٢٤ .
(٥) الصناعتين ١٢٥ .
(٦) الصناعتين ١١١ .

لهم : يجب وينبغي ، وبدل أن يتخذ من طبيعة الفن أحكاماً ، أخذ من قواعد المنطق والأخلاق دعامة ونظاماً ، من اهتدى بها فهو في نظره المصيب ، ومن حاد عنها بحكم عاطفته وخياله وتجربته فهو المخطىء .

وها هي ذي عبارة قدامة ، أو الاصل الذي أخذ عنه أبو هلال : يجب أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وبما كان فيه من التصابي والرقة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة ، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض .

وقد يدخل في النسيب التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بالرياح الهابة ، والبروق اللامعة ، والحمائم الهاتفة ، والخيالات الطائفة ، وآثار الديار العافية ، وأشخاص الأطلال الداثرة. وجميع ذلك إذ ذكر احتيج أن تكون فيه أدلة على عظيم الحسرة ومن مضي الأسف والمنازعة ، ولست أذكر متى سمعت في التشوق بآثار الديار أوجز ولا أجمع ولا أدل على لاعج الشوق ومكمد الوجد من قول محمد بن عبيد الأزدي :

فلم تدع الأرواح والماء والبلى من الدار إلاّ ما يشوق ويشغف[1]

والعجب العجاب أن أبا هلال لا يستحسن إلاّ ما استحسن قدامة ، فيشيد بهذا البيت في شيء من الإيجاز فيقول : من أجود ما قيل في الديار قول الأزدي[2] : ثم يورد البيت بتمامه .

وقد يكون أبو تمام فيما أوصى به البحتري بقوله : « إن أردت النسيب

---

(١) نقد الشعر ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٢) الصناعتين ١٢٤ .

فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه ببيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق » إمام قدامة ، ثم إمام أبي هلال .

ويقول قدامة في نعت الوصف : « لما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها ، ثم بأظهرها فيه وأولاها ، حتى يحكيه بشعره ، ويمثله للحس بنعته ، فمن ذلك قول الشماخ يصف أرضاً تسير النبالة فيها :

تقعقع في الآبـــاط منها وفاضها خلت غير آثار الأراجيل ترتمي [1]

فانظر بعد ذلك إلى قول أبي هلال : « ينبغي أن تعرف أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصف عيناك ، وذلك مثل قول الشماخ في نبالة :

خلت غير آثار الأراجيل ترتمي تقعقع في الآباط منها وفاضها [2]

فكان كل جهده أن يجعل عجز البيت صدراً وصدره عجزاً !

ومن منابع بلاغة العسكري أيضاً كتاب « الشعر والشعراء » الذي ألفه ابن قتيبة ، ومما يدل على متابعته إياه أن ابن قتيبة في باب أقسام الشعر الذي قدم به لكتابه الشعر والشعراء مثل للضرب الذي حسن لفظه وخلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة للمعنى بقول القائل :

ولما قضينا منْ مِنىً كلَّ حاجةٍ ومسَّح بالأركانِ من هو ماسحُ

---

(١) نقد الشعر (١١٨ ، ١١٩) والآباط جمع إبط باطن المنكب والوفاض جمع وفضة وهي الجعبة من الأدم والأراجيل جمع رجيل وهو من لا ظهر له يركبه ، وتقعقع اذا مشى فسمع له صوت .
(٢) الصناعتين ١٢٣ .

وشُدَّت على حَدْبِ المطايا رحالُنا ولا ينظر الغادي الذي هو رَائحُ
أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننـــا وسالتْ بأعناق المطيِّ الأباطحُ

وعلق عليها بقوله : وهذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قضينا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث ، وسارت المطيّ في الأباطح ، وهذا الصنف من الشعر كثير [1] .

فيأخذ أبو هلال الفكرة بعينها والرأي بنفسه ، ويكاد يأخذ الشرح بألفاظه فيقول : إن الكلام إذا كان لفظه حلواً عذباً ، وسلساً سهلاً ، ومعناه وسطاً دخل في جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر ، كقوله : « ولما قضينا . . . الأبيات » .

وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى ، وهي رائعة معجبة ، وإنما هي ولما قضينا الحج ، ومسحنا الأركان ، وشدت رحالنا على مهازيل الإبل ، ولم ينتظر بعضنا بعضاً جعلنا نتحدث ، وتسير بنا الإبل في بطون الأودية [2] .

كما نقل عنه — ولم يذكره — رأيه في الأسماء فقد يقدح في الحسن قبح اسمه كما ينفع القبيح حسن اسمه ، ويزيد في فظاعة الرجل فظاعة اسمه ، وترد عدالة الرجل بكنيته ولقبه ، ولذلك قيل اشفعوا بالكنى ، فإنها شبهة [3] .

ومن أساتذته الذين أعجب بهم وأخذ بأقوالهم ، بل نقل عنهم آرائهم الحسن بن بشر الآمدي صاحب « الموازنة » ، انظر إلى قول العسكري في التنبيه على خطأ المعاني ، وتدبره جيداً : « ومن الغلط قول أبي تمام :

---

(١) الشعر والشعراء ١١ .
(٢) الصناعتين ٥٨ .
(٣) الشعر والشعراء ١٥ والصناعتين ١٤٦ .

رقيقُ حواشي الحلمِ لوْ أنَّ حلمَهُ بكفّيكَ ما ماريْتَ في أنهُ بُرْد

وما وصف أحد من أهل الجاهليه ولا أهل الإسلام الحلم بالرقة ، وإنما يصفونه بالرجحان والرزانة ، كما قال النابغة :

وأعظمُ أحلاماً وأكبرُ سيداً وأفضلُ مشفوعاً إليهِ وشافعا

وقال الأخطل :

صمٌ عن الجهلِ عن قيلِ الخناخُرُسٌ وإنْ ألَمّتْ بهم مكروهَةٌ صبرُوا
شمْسُ العداوةِ حتى يستقادَ لهمْ وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُا

وقال أبو ذؤيب :

وصَبْرٌ على حدثِ النائبـــا تِ وحِلمٌ رزينٌ وعقلٌ زكيّ

وقال عدي بن الرقاع :

أبت لكمُ مواطنُ طيبـــاتٌ وأحـــلامٌ لكم تزنُ الجبالا

وقال الفرزدق :

إنّا لتُوزَن بالجبالِ حُلُومُنا فيزيدُ جاهِلُنا على الجهّالِ

ومثل هذا كثير ، وإذا ذموا الرجل قالوا : خف حلمه وطاش ، كما قال عياض بن كثير الضبي :

تنابلةٌ سُودٌ خِفـــافٌ حُلومُهُمْ وذو نيْرَبٍ في الحيّ يغدو ويطرقُ[1]

والذي يسترعي الانتباه ، ويستوقف النظر أن هذا الكلام من الحكم

---

(١) الصناعتين ١١٤ ــ ١١٥ ، والتنابلة واحده تنبال وذلك الرجل القصير كالتنبل والنيرب الشر والنميمة ، والبيت في الموازنة :
تنابلــة سود خفــاف حلومهم ذوو نيرب في الحي يغدو ويطرق

على بيت أبي تمام ، ومن سرد أبيات الشواهد على خطته في معنى البيت مأخوذ بأسره مما كتب الآمدي في كتاب الموازنة ، مع فرق واحد ، وهو أن الآمدي كان أميناً في النقل ، ونسبة الحكم إلى صاحبه ، وفي أنه وجد الحكم ، ولم يجد العلة الموجبة له ، فالتمسها بنفسه ، واهتدى إليها بذوقه وطول ممارسته ، وهذه عبارة الآمدي لتعلم ما بين الرجلين من حرص على الأمانة العلمية أولاً والحكم السديد ثانياً :

وأنكر أبو العباس « أحمد بن عبيد الله » قول أبي تمام :

رقيقُ حواشي الحلمِ لو أنَّ حلمهُ بكفّيك ما ماريتَ في أنهُ بُرْدُ (١)

وقال هذا الذي أضحك الناس منذ سمعوه إلى هذا الوقت ، ولم يزد على هذا شيئاً ، والخطأ في هذا ظاهر ، لأني ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة ، وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة ونحو ذلك قول النابغة . . . إلى آخر الأبيات التي مثل بها ، أو التي سرقها أبو هلال . إلى أن قال — الآمدي — ومثل هذا كثير في أشعارهم ، ألا ترى أنهم إذا ذموا الحلم كيف يصفونه بالخفة ، فيقولون ، خفيف الحلم ، وقد خف حلمه ، وقال عياض بن كثير الضبي . . . الخ .

أرأيت إذن أن العسكري نسب التخطئة لنفسه ، ووصف البيت بأنه لم يرد مثله في جاهلية ولا إسلام ، وأن الحلم لا يوصف بالرقة ، وإنما يوصف بكذا وكذا ؟ وكل هذا ينسبه لنفسه في جرأة نادرة ، وهو ناقل النقد والتعليق والأمثلة برمتها نقلاً ظاهراً مكشوفاً ، ثم أرأيت إلى أمانة الآمدي وصدقه حين يقرر التخطئة وينسبها لصاحبها — أبي العباس أحمد بن عبيد الله — في صراحة ، ثم ترى الآمدي بذوقه الأدبي يبين نواحي التخطئة وعلتها . ويمثل للمعنى الصحيح بما أورد ، وأراح العسكري نفسه ، وأراح الناس ، فنسب كل شيء لفطنته وذكائه !

---

(١) الموازنة ٦٣ ، ٦٤ .

كان يعجبنا لو أن أبا هلال أخذ هذه الأبيات فوازن بينها ، وانتقد أبا العباس في نقده ، أو الآمدي في نقله ، أو أضاف إلى الأمثلة ما هو أقرب شبهاً ، ثم قدم لنا بحثاً في ضرورة التقليد ، وضرر التجديد في وصف الحلم بالرقة ، وكنا نقبل في الأقل أن يورد الحكم منسوباً إلى صاحبه ، لنعد الرجل في الأمناء الصادقين ، ولسنا نستطيع أن نتصور أن تكون هذه السرقة الواضحة من توارد الخواطر. وقد نفى العسكري عن نفسه بهذا صفة الحذق ، لأنه لم يخف سرقته ، وهو القائل : « والحاذق من يخفي دبيبه إلى المعنى » .

وقريب من هذا ما أورد أبو هلال في نقد أبي تمام في بيته المشهور :

منَ الهيفِ لو أن الخلاخيلَ صُيِّرَتْ لها وُشُحاً جالتْ عليها الخلاخِلِ [1]

فقد نقله وأمثلته من الموازنة [2] .

ومثل هذا ما خطأ فيه العسكري أبا تمام من قوله :

قسمَ الزمانُ ربوعَها بين الصَّبا وقَبولها ودُبُورها أثلاثا [3]

فقد نقله من الموازنة مع ما تلاه من الأبيات [4]

وهكذا ، وهكذا ، حتى ليبدو للناظر المحقق أن العسكري أخذ الباب بتمامه من الموازنة .

وقال أبو هلال في تعريف المطابقة [5] : قد أجمع الناس أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة او الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة ، مثل الجمع بين البياض والسواد ، والليل والنهار ،

---

(١) الصناعتين ١١٦ ، ١١٧ .
(٢) الموازنة ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ .
(٣) الصناعتين ١١٧ .
(٤) الموازنة ٦٩ ، ٨٠ .
(٥) الصناعتين ٢٩٧ .

والحر والبرد ، وخالفهم قدامة بن جعفر فقال : المطابقة إيراد لفظتين متشابهتين في البناء والصيغة مختلفتين في المعنى ، وسمي الجنس الأول التكافؤ ، وأهل الصنعة يسمون النوع الذي سماه المطابقة « التعطف » قال : وهو أن يذكر اللفظ ثم يكرره والمعنى مختلف . وهذا القول في الطباق وفي نقد قدامة سبق إليه الآمدي فقال [1] : وهذا باب أعني المطابق لقبه أبو الفرج قدامة بن جعفر في كتابه المؤلف في نقد الشعر المتكافىء ، وسمي ضرباً من المجانس المطابق ، وهو أن تأتي الكلمة مثل الكلمة سواء في تأليفها واشتقاق حروفها ، ويكون معناها مخالفاً . . . وما علمت أن أحداً فعل هذا غير أبي الفرج ، فإنه وإن كان هذا اللقب يصح ، لموافقته معنى الملقبات وكانت الألفاظ غير محظورة ، فإني لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه مثل أبي العباس عبدالله بن المعتز وغيره.

وفي الباب الرابع من الصناعتين ، وهو الباب الذي عقده أبو هلال لبيان حسن النظم وجودة الرصف والسبك قال : ومن سوء النظم المعاظلة وقد مدح عمر بن الخطاب زهير لمجانبتها ، فقال : « كان لا يعاظل بين الكلام » وأصل هذه الكلمة من قولهم « تعاظلت الجرادتان » إذا ركبت إحداهما الأخرى ، وعاظل الرجل المرأة إذا ركبها ؛ ثم يمثل بعد ذلك بأبيات من الشعر وقعت فيها المعاظلة ، ثم ينتقل إلى نقد قدامة في تعريفه المعاظلة فيقول :

وقال قدامة « لا أعرف المعاظلة إلاّ فاحش الاستعارة مثل قول أوس :

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نواشرُها تُصْمتُ بالماء تولباً جَدِعا

فسمي الصبي تولبا ، والتولب ولد الحمار ، وقول الآخر :

وما رقدَ الولدانُ حتى رأيتهُ على البَكر يمريه بساقٍ وحافرِ

---

(١) الموازنة ١٢٤ .

وهذا غلط من قدامة كبير ، لأن المعاظلة في أصل الكلام إنما هي ركوب الشيء بعضه بعضاً ، وسمي الكلام به إذا لم ينضدّ نضداً مستوياً ، وأركب بعض ألفاظه رقاب بعض ، وتداخلت أجزاؤه ، تشبيهاً بتعاظل الكلاب والجراد على ما ذكرناه ، وتسمية القدم بحافر ليست بمداخلة كلام في كلام ، وإنما هو بعد في الاستعارة [1] .

والعبارة الأولى « وأصل الكلمة من قولهم تعاظلت الجرادتان » . . . مأخوذة من قول قدامة نفسه [2] « وسألت أحمد بن يحيى عن المعاظلة ، فقال : مداخلة الشيء في الشيء ، يقال : تعاظلت الجرادتان ، وعاظل الرجل المرأة إذا ركب أحدهما الآخر » .

وأما التخطئة فقد أخذها أبو هلال عن الآمدي من كتاب الموازنة [3] فقد أورد الآمدي عبارة عمر بن الخطاب في مدح زهير ، وفسر المعاظلة كما مرّ ، وذكر اتفاق العلماء على ذلك إلاّ أن أبا الفرج قدامة بن جعفر ، فإنه ذكر في كتابه المؤلف في نقد الشعر ، ومثل له ، فغلط في أمثلة المعاظلة غلطاً قبيحاً .

على أن العسكري لم يعمد إلى تخطئة قدامة — وهو المعجب به المتتبع لحدوده وتنظيماته النقدية والبلاغية — إلاّ مجاراة للعلماء والنقاد الذين حملوا على مذهب قدامة ، وألفوا الكتب في نقده .

ولم يفت العسكري أن يفيد من صاحب « الوساطة » كما أفاد من سائر كتب النقد التي اطلع عليها ، ومن أمثلة ذلك أن القاضي الجرجاني نقد في « الوساطة » بيت أبي تمام في وصف الخمر :

جَهمِيّةُ الأوصافِ إلاّ أنهمْ قد لقّبوها جوهَرَ الأشياء

---

(١) الصناعتين ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٢) نقد الشعر ١٧٤ .
(٣) الموازنة ١٢٥ .

بقوله : فخبِّرني هل تعرف شعراً أحوج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطو منه [1] ؟

وقال العسكري : وأما ما يستبهم فلا يعرف معناه إلاّ بالتوهم مثل قول أبي تمام : « جهمية الأوصاف . . . » .

فوجه الاشتراك في هذا أن لجهمٍ مذاهب كثيرة ، وآراء مختلفة متشعبة ، لم يدل فحوى كلام أبي تمام على شيء منها يصلح أن يشبه به الخمر ، وينسب إليه إلاّ أن يتوهم المتوهم ، فيقول إنما أراد كذا وكذا من مذاهب جهم من غير أن يدلّ على الكلام منه على شيء بعينه ، ولا يعرف معنى قوله « قد لقبوها جوهر الأشياء » إلاّ بالتوهم أيضاً [2] . . . !

ولا شك أن عبارة الجرجاني على وجازتها تؤدي من المعاني ما تؤدي عبارة العسكري على طولها .

وقول العسكري في صفة الألفاظ : لا ينبغي أن يكون لفظك وحشياً بدوياً ، وكذلك لا يصلح أن يكون مبتذلاً سوقياً . . . والمختار من الكلام ما كان سهلاً جزلاً ، لا يشوبه شيء من كلام العامة وألفاظ الحشوية ، ولم يخالف فيه وجه الاستعمال ، ألا ترى إلى قول المتنبي :

أينَ البطاريقُ والحِلف الذي حلَفوا بمفرقِ الملكِ والزَّعمِ الذي زعموا

هذا قبيح جداً ، وإنما سمع قول العامة « حلف برأسه » ، فأراد أن يقول مثله ، فلم يستوله ، فقال : « بمفرق الملك » ، ولو جاز هذا جاز أن يقول

---

(١) الوساطة ١٦ .

(٢) الصناعتين ٢٦ ، والجهمية من الفرق الاسلامية ينفقون مع أهل السنة في القول بالقضاء والقدر مع ميل الى الجبر ، ولذلك يعدها بعضهم من الجبرية ، يقولون بخلق القرآن ، وينفون صفات الباري جل وعلا، كما ينفون رؤيته . . .

حلف بيافوخ أبيه ، وبقمحدؤة [1] سيده ، وقبح هذا يدل على أن أمثاله غير جائزة في جمع المواضع ، وهذا النوع في شعر المتنبي كبعد الاستعارة في شعر أبي تمام [2] .

وهذا القول مأخوذ من قول الجرجاني في الوساطة : «ومتى سمعتني أختار للمحدث هذا الاختيار ، وأبعثه على التطبع ، وأحسن له التسهيل ، فلا تظن أنني أريد بالسمح السهل الضعيف الركيك ، ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنث ، بل أريد النمط الأوسط : ما ارتفع عن الساقط السوقي ، وانحط عن البدوي ، وما جاوز سفسفة نصر ونظرائه ، ولم يبلغ تعجرف همیان بن قحافة وأضرابه [3] .

* * *

ومن هذه الأمثلة التي أوردناها يتبين من أي نبع استقى العسكري بلاغته بل تتضح متابعته لسابقيه ومعاصريه من النقاد والعلماء ، واحتذاؤه إياهم في أحكامهم ومقاييسهم الأدبية ، وأخذه عنهم آراءهم بل واستشهاداتهم .

وليس ما يمنع أن يوافق رأي أخاه أو أن يتفق حكمان ، ولكن الذي نأخذ على العسكري هو ما نأخذه على من يأخذ الرأي ، فيغفل صاحبه ، وهو يعرفه ، ثم ينسبه إلى نفسه ! . .

لقد طوّف أبو هلال بهذه الآفاق ، ونهل من هذه الموارد وغيرها ، فاقتطف من ثمارها ما أعجبه ، واتخذ ينابيعها مناهل لبلاغته ولآرائه في نقد الأدب .

---

(١) القمحدؤة : الهنة الناشزة فوق القفا وأعلى القذال خلف الأذنين ومؤخر القذال .
(٢) الصناعتين ١٤٢ .
(٣) الوساطة ٢٣ وهميان بن قحافة أحد بني عامر، راجز اسلامي محسن، عاش في الدولة الاموية .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع

منهج أبي هلال

ما أهداف أبي هلال من تأليفه في الصناعتين « الكتابة والشعر » ؟ وما المنهج الذي رسمه لبلوغ هذه الأهداف ؟ وهل كان ذلك المنهج منهجاً متميزاً من مناهج الذي سبقوه إلى البحث البلاغي والنقد الأدبي .

ومن أهدافنا في هذا الفصل أيضاً أن نقف على أصالة أبي هلال في تأليفه ، أو متابعته لسابقيه من الذين عالجوا الأدب وحللوه ونقدوه ، أو بعبارة أخرى نريد أن نصل إلى حظ أبي هلال من التجديد والابتداع ، أو التقليد والاتباع للمناهج المسلوكة في عصره أو قبل عصره ، أو بعبارة أخرى نريد أن نعرف ما إذا كان العسكري مدرسة بذاتها لها خصائصها ومعالمها ومقوماتها ، أم كان أحد أشياع إحداها ، وقد مرّ بنا شيء من ذلك في الفصلين السابقين ، وأشرنا إلى المناهج المتعددة التي عاصرت العسكري أو سبقته ، أو « المدارس النقدية » التي كان لها علماء أعلام عرفوا بها ، وقلدهم غيرهم في سلوك مناهجها .

وفي استطاعتنا أن نتبين من الإلمامة السريعة التي عرضناها في الفصلين السابقين سمات متعددة لمذاهب مختلفة في النظر إلى الفن الأدبي ، وتقدير قيمته الفنية .

فكان أقدم ما رأينا من النقد أحكاماً ذاتية لا رابط بينها من عرف أو اصطلاح عام عند أهل هذه الصناعة ، ولهذا لا يمكن أن تحسب في عداد المدارس التي ترسم لنفسها منهجاً خاصاً ، أو يسيطر عليها اتجاه خاص يؤثر في أحكامها ، وإنما الذي يحسب في هذه المدارس ما كان له شيء السعة والشمول ، وما كان له مقياس ثابت تدوول بين النقاد وبين جماعة منهم أياً كان ذلك

المقياس . وكان هذا المقياس في نقد الأدب العربي طريقة اللغويين والنحاة الذين نشئوا في الصدر الأول . وهم العالمون بلغة العرب ، الباحثون في بنية مفرداتها ، ووضع الألفاظ مواضعها وصحة التراكيب ، وأعاريض الشعر وقوافيه عند العرب ، وهذه الطبقة من النقاد تعتمد في أحكامها على القياس على القديم المأثور ، يحكمون على الألفاظ بموافقة العرب في الاستعمال أو مخالفتهم ، وبالجزالة أو بالسلاسة ، وبالغرابة أو السهولة ، وبالصحة أو الخطأ وإصابة الأديب في تقليد السابقين في مطالع القصائد وتعدد الأغراض وغيرها ، أو ما عرف عند جماعة منهم باسم « عمود الشعر » وهو ما ينبغي أن يجتمع في الشعر الجيد ، وهو شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة في الوصف — ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات — والمقارنة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية ، حتى لا منافرة بينهما ، فهذه سبعة أبواب هي « عمود الشعر »[1] مما ينطبق عليه إلى حد ما عرف عند الغربيين باسم Classical أمـــا طائفة النحويين فتبحث في صحة التراكيب ، وعيوب الأعاريب .

وكان هؤلاء وأولئك يتنـــاولون الشعر ، فينتقدونـــه نقداً موضوعياً Objective وينظرون إلى الفن الشعري نظرتهم إلى شيء بعيد عن أنفسهم وتأثرهم وانفعالاتهم وعن أذواقهم وميولهم الشخصية ، وبذلك يمكنهم فهمه ، والنفوذ إليه وروايته كما هو ، فيدركون ما فيه من جمال بقوة تمييزهم وملاحظتهم دون التقيد بلذتهم الخاصة أو ذوقهم في التفصيل ، أو بعبارة أدق محاولة دعم نقدهم الذاتي بأسباب من العمل الأدبي الذي يحاولون قياسه أو الحكم عليه .

على أنه كان لبعض هؤلاء عناية بالطريقة التاريخية Historical Method

---

(١) مقدمة شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٩ .

حين يعرضون للشعر وبيئته ، وصحة نسبته لقائله ، أو كذب تلك النسبة ، وذلك لفرط حرصهم على سلامة هذا التراث الذي ورثوه حرصهم على أصول عقائدهم ، إذ كانوا يدركون تمام الإدراك الصلة الوثقى بين هذا التراث وبين عقائدهم وقوميتهم . ثم نشأت من هذه الطبقة طبقة أخرى أخذت ما عند هؤلاء وغيرهم . وكان لها من حسها المرهف ، وقدرتها على تذوق هذا الفن خير عون على نقد الشعر ، والبحث عن قيمته باعتباره فناً ، وعن سر جماله وقوته وشرح أثره في نفوسهم ، ولكن أكثر نقدهم كان ذاتياً Subjeetive لأنه كان يقوم على أحاسيس الناقد وانفعالاته وميوله .

وإذ جد على البيئة العربية ثقافات جديدة انتقلت إليها بما ترجم من كتب ألفتها أمم عريقة في العلم وأساليب التفكير نشأ منهج جديد في النقد الأدبي ، ذلك هو منهج المتكلمين الذين عنوا بالبحث في إعجاز القرآن ، وفهم العقائد منه ، وهذا المنهج « يمتاز بخاصة أهله في الجدل والمناقشة والتحديد اللفظي ، والعناية بالتعريف الصحيح ، والقاعدة المقررة والإقلال من الشواهد الأدبية ، وعدم العناية بالناحية الفنية في خصائص التراكيب ، وتقدير المعاني الأدبية ، واستعمال المقاييس الحكمية الفلسفية المعتمدة على قواعد منطقية ، أو نظريات خلقية ، أو مقررات طبيعية في الحكم الأدبي ، دون نظر إلى معاني الجمال وقضايا الذوق »[1] .

وليس معنى ما تقدم أن هنالك انفصالاً كلياً بين هذه المناهج ، بمعنى أن نقاداً معينين سلكوا منهجاً معيناً دون غيره . أو آثر غيرهم مذهباً آخر لا يتعدونه ، فإن ذلك مستحيل في هذا الباب ، والناقد من طائفة اللغويين أو النحاة مثلاً كان لا يستغني عن تحكيم ذوقه الخاص فيما يعرض له من ألوان الأدب ، والناقد المتمكن من أساليب المنطقيين والمتكلمين لا يمكن أن يجحد

---

(١) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها : ١٩ .

ذوقه ، أو ينسى الإشارات اللغوية والنحوية والتاريخية ، وقد تجد سمات هذه المناهج مجتمعة في ناقد واحد مثل ابن قتيبة ، فإنك حين تقرأ المقدمات الأولى التي كتبها لكتابه « الشعر والشعراء » ترى هذه الاتجاهات مجتمعة .

تراه ناقداً نحوياً يعدد أخطاء الشعراء في الإعراب ، واضطرارهم لركوب الخطأ جرياً وراء القوافي . انظر إليه ينقد الفرزدق في قوله :

وعضٌّ زمان يابنَ مروانَ لم يدَعْ من المال إلاّ مُسْحَتاً أو مجلّف[1]

ويأخذ عليه رفع آخر البيت ضرورة وما كلف أهل العربية من عنت في طلب العلة ، فقالوا وأكثروا ، ولم يأتوا بشيء يرضي ، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به من العلل احتيال وتمويه . وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه إياه فشتمه وقال : علي أن أقول وعليكم أن تحتجوا !

وقد أنكر عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي قوله :

مستقبلينَ شمالَ الشامِ تضربُنا بحاصب من نَديفِ القطنِ منثورِ
على عمائمنا تلقى وأرحلُنا على زواحفَ تُزْجى مخها ريرُ

بالرفع ، فقال ابن أبي إسحاق : ألا قلت :

* على زواحفَ تزجيها محاسيرِ[2] *

فغضب الفرزدق وقال :

فلو كان عبدُ الله مولى هجوتُه ولكنّ عبدَ اللهِ مولى مَوالِيا

وهذا كثير في شعره على جودته[3] :

---

(١) المسحت : الهالك ، المجلف : الذي بقيت منه بقية .
(٢) الحاصب : الريح الشديدة تثير الحصباء « الحصى » : الرير والرار المخ الرقيق ، حسر البعير : أعيا فهو حسير ومحسور .
(٣) الشعر والشعراء ٣٥ ، ٣٦ .

وترى إلى جانب هذه النظرات النحوية نظرات أخرى لغوية ، بل إن ابن قتيبة ممن يغالون في ضرورة فقه اللغة وحذقها ، لما يجرّ فقد ذلك من خلط في القول وفي الرواية ، وعنده أن كل علم محتاج إلى السماع ، وأحوجه إلى ذلك علم الدين ، ثم الشعر لما فيه من الألفاظ الغريبة ، واللغات المختلفة والكلام الوحشي ، وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه . والعالم لا يستطيع أن يفصل في شعر الهذليين إذا هو لم يسمعه بين « شابة » و « سابة » وهما موضعان ولا يثق بمعرفته في حزم نُبايعَ ، وعُرْوان الكَرَاث ، وشَسّى عبقر ، وأسْد حَلْيَة ، وأسْدِ تَرْج ، ودُفَاقِ ، وتُضارع »[1] : وأشباه هذا لأنه لا يلحق بالذكاء والفطنة ، كما يلحق مشتق الغريب ، ويروى أن الأصمعي قرىء عليه يوماً في شعر أبي ذؤيب .

* بأسفلِ ذاتِ الدير أفردَ جحْشها *

فقال أعرابي حضر المجلس : ضُلَّ ضَلالُكَ أيها القارىء ؟ إنما هي « ذات الدبر » وهي ثنيّة عندنا ، فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد .

قال ابن قتيبة : ومن ذا من الناس يأخذ من دفتر شعر المعذّل ابن عبد الله في وصف الفرس .

من السّحّ جَوّالا كأنّ غلامَه يصرّفُ سِبْدا في العنانِ عمرّدا[2]

إلاّ قرأه « سِيدا » يذهب إلى الذئب ، والشعراء قد تشبّه الفرس بالذئب وليست الرواية المسموعة عنهم إلاّ « سِبْدَا » ، قال أبو عبيدة : المصحفون

---

(١) حزم نبايع : جبل أو واد في ديار هذيل ، عروان من امتع جبال الحجاز والكراث نبت . الشسى : الغليظ من كل شيء ، وعبقر يزعمون أنها أرض كان يسكنها الجن . حلية مأسدة باليمن ، ترج : جبل بالحجاز كثير الأسد . دفاق : موضع قرب مكة ، تضارع : جبل بتهامة لبني كنانة .

(٢) من السح : يريد من الخيل التي تسح الجري ، أي تصب ، والتمرد الطويل .

لهذا الحرف كثيرون ، يروونه « سيدا » ، أي ذئبا ، وإنما هي « سبد » بالباء معجمة واحدة ، يقال : فلان سبد أسباد ، أي داهية دواه ، وكذلك قول الآخر

زوجكِ يا ذاتَ الثنايا الغرّ الرّتلاتِ والجبـــينِ الحرّ

يرويه المصحفون والآخذون عن الدفاتر « الربلات » وما الربلات من الثنايا والجبين ، وهي أصول الفخذين ، يقال : رجل أربل إذا كان عظيم الربلتين أي عظيم الفخذين ، وإنما هي الرتلات بالتاء ، يقال « ثغر رتل » إذا كان مفلجا [1] .

وهو إلى جانب هاتين الناحيتين : ناحية الإعراب ، وناحية اللغة ، ينهج نهج العلماء في التنظيم العلمي ، والولوع بالأقسام [2] ويعالج نواحي أخرى علاجاً فنياً يشهد له بسلامة الذوق ، من ذلك تكلمه في الطبع والصنعة [3] وأشعار العلماء [4] واللفظ والمعنى [5] ومحاولة التجديد [6] ودواعي الشعر [7] إلى غير هذه المباحث المختلفة في مناهجها وأسسها .

فهذا ناقد واحد سلك مناهج متعددة في دراسة الشعر والشعراء ، وهو مثل للتمكن من ثقافات عصره وتمثلها ، يبدو ذلك في مقدمته واضحاً ، وإن كان يضعف في ثنايا دراسته للشعراء ، أو بعبارة أخرى يضعف في ناحيته التطبيقية .

وقد رأينا فيما تقدم منهجاً في نقد الأدب يستند إلى الموضوعية في أكثر نواحيه ، ويعتمد على الذاتية في قليل منها مع طريقة جديدة هي التي تسمى الآن النقد التوضيحي Explanatory Criticism وهو الذي يراد به عرض نتاج أديبين ، وشرح العرض هذا في جملته ، ثم أخذه في بعض جزئياته

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) انظر أقسام الشعر ص ٩ وما بعدها .
(٣) ص ٢٣ . (٤) ص ١٥ . (٥) ص ٩ .
(٦) ص ١٢ . (٧) ص ٢٤ .

لمواجهة بعضها ببعض ، غير أن هذا الذي رأيناه نقد صرف لم يتعرض للبلاغة إلاّ تعرضاً ضئيلاً . ولقد كان الآمدي في موازنته أقل في هذه الناحية من بقاضي الجرجاني . أما أبو هلال العسكري فقد كان هدفه أن يوضح معالم اللاغية يعرفها الأدباء والنقاد ، لتكون مقاييس يعتمد عليها في نقد الأدب .

الأهداف التي رمى إليها أبو هلال :

نسأل بعد ذلك عن منهج أبي هلال ، ونسأل قبله عن هدفه الذي رمى إليه من تأليف « الصناعتين » .

وقد أوضح لنا أبو هلال نفسه معالم الطريق ، وأفصح عن هدفه كل الإفصاح في كتاب « الصناعتين » .

اعجاز القرآن :

إن أولى الغايات التي كان يرمي إليها أبو هلال من تأليف الصناعتين كانت غاية دينية أولاً ، وأدبية ثانياً .

أما أولى الغايتين فإثبات إعجاز القرآن ، وفهم أسرار الجمال ونواحي التفوق التي تفرد بها كتاب الله تعالى ، وهي كما ترى غاية دينية دفعت إليها العقيدة التي وجدت من يناهضها بالتشكيك في أن حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي الكتاب الكريم ، مثل أعلى في الفصاحة والبلاغة ، وادعاء أن العرب كان في مقدورهم أن يأتوا بمثله ، لولا أنهم صرفوا عن ذلك ، ونشأ عن ذلك مذهب (الصرفة) الذي قال به أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام . وقد سرى هذا القول بين الناس في العصر العباسي ، وانبرى للرد على هؤلاء المشككين جماعة من العلماء الذين أخلصوا لدينهم وعقيدتهم ، فأخذوا يدفعون عن كتاب الله هذه الفرية ، بتجلية وجوه الإعجاز فيه ، وبيان أن العرب لو استطاعوا لما نكصوا ، وهم المتحدّون ، وكان يسعهم إن استطاعوا أن يعارضوه ، ليموت الدين الجديد في مهده ، ولتبقى لهم زعامتهم ، وقداسة عقائدهم ومعبوداتهم . وقد كان ثبوت عجزهم عن معارضة القرآن ، وهم أهل اللسن والفصاحة والبيان ، حجة على جميع الأجيال التالية لهم ، لأنهم مهما أوتوا فلن يستطيعوا بلوغ درجة السابقين في ميدان الفصاحة والبلاغة .

وكان أبو هلال أحد أولئك المدافعين عن دينهم ، المناهضين لأولئك المعترضين ، استمع إلى قوله في أول كتاب الصناعتين : « اعلم : علمك الله الخير ودلك عليه ، وقيضه لك ، وجعلك من أهله ، أن أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ ، بعد المعرفة بالله — جل ثناؤه — علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق الهادي إلى سبيل الرشد ، المدلول به على صدق الرسالة ، وصحة النبوّة التي رفعت أعلام الحق ، وأقامت منار الدين ، وأزالت شبه الكفر ببراهينها ، وهتكت حجب الشك بيقينها » فقد جعل علم البلاغة والفصاحة أول العلوم وأولاها للحاجة إليهما في الاطمئنان إلى صحة العقيدة ، وهي أول ما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويحرص عليه .

ثم يفصح أبو هلال عن المدى الذي يستطيع علم البلاغة أن يبلغه في إثبات هذا الإعجاز ، فعنده ألا سبيل إلى إدراكه والاطمئنان إليه إلاّ بمعرفة الفصاحة والبلاغة . فإن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن . . . وقبيح بالفقيه المؤتمّ به ، والقارىء المهتدي بهديه ، والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته ، وشدة شكيمته في حجاجه ، وبالعربي الصليب ، والقرشي الصريح لا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلاّ من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطيّ ، وأن يستدل عليه بما استدلّ به الجاهل الغبي[1] . وظاهر من هذا أنه لا يرضى بالإيمان التقليدي إيمان العوام ، وإنما يريد يقين المستنيرين الذي لا يكون إلاّ بالدليل والبرهان .

هذه هي الغاية التي نصب أبو هلال نفسه لها ، وإن كان لا يقصر البلاغة على تحقيقها ، بل يرى مع هذه الغاية غاية أخرى ، وهي أنه بالبلاغة يستطيع الأديب الناقد أن يفرق بين الجيد والرديء ، والنادر والبارد من القول ، وبها يستعين الأديب المنشىء على صنع القصيدة وإنشاء الرسالة .

---

(١) الصناعتين .

وعلم البلاغة عنده يحقق غير ما تقدم فائدتين أولاهما « أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه وفرط في التماسه ففاتته فضيلته ، وعلقت به رذيلة فوته ، عفّى على جميع محاسنه ، وعمى سائر فضائله ، لأنه لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله وظهر نقصه » وواضح من ذلك أن أبا هلال يرى أن عالم اللغة لا يسعه بحال الاستغناء عن علم البلاغة الذي يستطيع به وزن الكلام ، وتقدير قيمته الفنية ، ومن غيره لا يستطيع أن يكون عالماً أديباً ، أو ناقداً أريباً .

والأخرى هي أن الأديب إذا أراد أن يصنع قصيدة ، أو ينشيء رسالة — وقد فاته هذا العلم — مزج الصفو بالكدر ، وخلط الغرر بالعرر ، واستعمل الوحشي العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل ، وعبرة للعاقل [1] .

وعلى هذا فإن أبا هلال يرى أن البلاغة تحقق للعالم بها فوائد ثلاثاً :

(١) إدراك إعجاز القرآن إدراكاً مبنياً على النظر والفقه والتذوّق ، لا إدراكاً قائماً على الإيمان المجرد ، والتسليم من غير نظر ، كإيمان العوام من الزنوج والأنباط . وتلك ضرورة يجدها ريحس بها المسلم المستنير ، والعربي الأصيل الذي يستطيع أن يهتدي إلى الفروق بين أسلوب وأسلوب ، ويفاضل بين بيان وبيان .

(٢) فائدة نقدية : إعانة العالم على النقد والمفاضلة ، والقدرة على تمييز الجيد من الرديء والغث من السمين وعلم البلاغة هو الذي يقدم له معايير الحكم ، ومقاييس الإتقان ، وبه يكون لرأيه الحظ الذي يريده له من المنزلة بين النقاد .

(٣) فائدة إنشائية : يفيد منها الأديب بدراسة البلاغة إرهاف حسه ،

---

(١) الصناعتين ٣ .

ويستطيع بها أن يميز جيد الألفاظ من رديئها ، وأن يختار لشعره ما يروق ويشوق ، وأن يتجنب حوشي الألفاظ وكدرها الذي يعرضه استعمالها لاستهزاء الجهلاء واعتبار العقلاء . والبلاغة هي التي نوقفه على جهات الإحسان والإصابة ليتحراها ، ومزالق الضعف والخطأ ليتحاشاها .

تلك الغايات الثلاث هي أهداف البلاغة في نظر أبي هلال . ونلاحظ هنا أنه قد خلط البلاغة لإثبات الإعجاز ، والنقد للتمييز بين الأدب الجيد والأدب الرديء . وهما كذلك مختلطان أشد اختلاط .

أما هدفه في كتاب الصناعتين فهو كذلك واضح ظاهر لا لبس فيه ولا غموض .

وقد قدم لهذا الهدف بعرض بعض آراء سابقيه من العلماء ونقدة الأدب ، ومناقشة هذه الآراء ، وتفنيد الأحكام التي اهتدوا إليها ، ومن ذلك أنه ينقد علماء العربية في استحسانهم بيتي ذي الرُّمّة .

رمَتْني ميّ بالهوى رميَ ممضغ من الوحشِ لَوْط لم تعقه الأوالسُ
بعينين نجلاوينِ لم يجرِ فيهما ضمانٌ وجيدٍ حُليَّ الدرَّ شامسُ[1]

وقولهم فيهما : « إنهم ما سمعوا بأحسن ولا أفصح منهما » ولا يعجب أبا هلال هذا الحكم ، بل يصدر حكماً أدبياً صحيحاً يعتمد فيه على ذوقه الخاص ، ويصف البيتين بأنهما من الكلام الفج الغليظ ، والوخم الثقيل الذي لا حظ له من الاختيار ! ثم يعرض استجادة العتبي قول الشاعر :

---

(١) أمضع اللحم استطيب وأكل ، ومن معاني الوحش الجوع ، ولاط فلانا رماه بعين أو بسهم أصابه ، والولوس الناقة السريعة ، والضمان المرض والشمس ومعلاق القلادة في العنق والجمع شموس ، وجيد شامس ذو شموس على النسب .
والمعنى : أصابتني مي بالهوى ، فكان له وقع الطعام العذب المستطاب في نفس الجائع ، وكانت عدتها عينين واسعتين لم تعرفا المرض ، وجيدا حلي الدر ذا شموس .

ولَوْ أرسلْتُ منْ حبّيـ لكِ مهبوتاً منْ الصّين
لوافيتكِ قبـلَ الصّبـ حِ أو حينَ تُصلّين[1]

ويرى أبو هلال أنهما إن جاز أن يوصفا فلا يجوز وصفهما إلاّ بدناءة اللفظ وخساسته ، وخلوقه المعرض وقباحته ! ويذكر أيضاً نقد العتبي لقول جرير :

إن العيون التي في طرفها مرضٌ قتلننا ثمَّ لم يُحْيِينَ قتْلانا
يَصرَعْنَ ذا اللبّ حتى لا حراكَ به وهُنَّ أضعفُ خلقِ اللهِ أركانا

وقوله :

إن الذينَ غدَوْا بلبّكَ غادرُوا وشَلاً بعينكَ لا يزالُ مَعينا
غيّضْنَ من عبراتِهنَّ وقلنَ لي ماذا لقيتَ مِنَ الهوى ولَقينا

وحكم العتبي على هذه الأبيات بأنها « من الشعر الذي يستحسن لجودة لفظه وليس له كبير معنى . . . » أما أبو هلال فلا يعلم معنى أجود ولا أحسن من معنى هذا الشعر ! . .

وينتهي العسكري من هذه الأحكام التي يفندها إلى الأحكام التي يرتضيها وإلى أن هؤلاء الأعلام قد خلطوا في آرائهم ، وحكموا أحكاماً لا تستند على أسس صحيحة ، ولا ذوق سليم ، وأنه رأى أن يؤلف كتابه لتصحيح هذه الأحكام التي يغلب عليها أثر الارتجال ، ووضع أسس ثابتة تصدر عنها أحكام أكثر دقة ، وأقرب منها إلى الصواب ، ويقول في ذلك : فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام ، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ومكانه من الشرف والنبل ووجدت إليه الحاجة ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب « البيان والتبيين » لأبي عثمان

---

(١) المهبوت : السائر على غير هداية .

عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمري كثير الفوائد ، جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك ، من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة « إلاّ أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرة في أثنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة ، لا توجد إلاّ بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير ، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه ، ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تقصير وإخلال ، وإسهاب وإهذار [1] .

ونستطيع أن نستخلص من هذا الكلام ما يأتي :

(١) أن أبا هلال رأى للأقدمين آراء قاصرة مرتجلة ، وأحكاماً مبتورة لا تعتمد على أساس ، وأنه لا يقرهم عليها .

(٢) وأنه عرف فضل هذا العلم — علم البلاغة — وقدّر ضرورته للعالم والمتعلم والأديب والمتأدب ، وأنه أحق العلوم بالدراسة والتأليف .

(٣) وأنه رأى الكتب التي تعرضت لمباحثه قليلة لا تتفق هي ومنزلة هذا العلم ، ووجوب الاهتمام به ، لعظم مكانته ، وشرف رسالته .

(٤) وأنه يعترف بأن خير الكتب التي تعرضت لبحث البلاغة كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، ولكنه يرى أنه ينقصه التنظيم العلمي الذي يجعل الانتفاع به في هذا الباب ميسوراً .

(٥) وأنه رأى أن يكمل هذا النقص ، فيؤلف تأليفاً علمياً منظماً يلائم

---

(١) الصناعتين ٧ .

شرف هذا العلم ، ويحوي ما يحتاج إليه صناع الكلام ونقدته ، وذلك بوضع أسس صالحة يعتمد عليها ، مع تجنب الاختصار المخل ، والتطويل الممل .

تلك هي الدوافع والأغراض التي حفزته على تأليف الصناعتين ، وتلك أهدافه التي رمى إليه من الكتابة في هذا العلم الخطير .

منهج أبي هلال :

وإذا كان الدافع بيناً ، والغرض واضحاً ، فإن المنهج الذي رسمه لنفسه واضح أيضاً في نهاية الفصل الأول من الباب الأول الذي عقده « في الإبانة عن موضوع البلاغة في اللغة ، وما يجري معه من تصرف في لفظها ، والقول في الفصاحة وما يتشعب منه » إذ يختم هذا الفصل بقوله : « وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام في هذا الفصل [1] .

ويقول في كيفية نظم الكلام وفضيلة الشعر وما ينبغي لتأليفه : « . . . فإن كنت متكلماً ، أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب ، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد . . . فتخط ألفاظ المتكلمين مثل الجسم ، والعرض ، والكون ، والتأليف ، والجوهر ، فإن ذلك هجنة ، وخطب بعضهم فقال : « إن الله أنشأ الخلق وسوّاهم ، ومكنهم ثم لاشاهم » ، فضحكوا منه ! وقال بعض المتأخرين :

نورٌ تبيّن فيــهِ لاهُوتيّة فيكادُ يعلمُ علمَ ما لنْ يُعلما

فأتى من الهجنة بما لا كفاء له [2] .

---

(١) الصناعتين ١١ .
(٢) الصناعتين ١٢٩ ــ ١٣٠ .

والذي يبدو من هذين القولين أن أبا هلال يصرح بنفوره من « مذهب الكلاميين » في بحث البلاغة ، ويفضل عليه مذهب الأدباء من الشعراء والكتّاب وهذا التصريح هو ما نريد أن نحققه في هذا البحث ، لنرى ما إذا كان العسكري قد وفى لهذا المنهج الذي صرح به ، فتحاشى مذهب الفلاسفة والمناطقة وجنح إلى أسلوب الأدباء صناع الكلام ، أم أنه سلك المنهج الفني في نقد الكتابة والشعر .

أما أسلوب المتكلمين الذي صرح أبو هلال بأنه سيُعرض عنه ، فهو أسلوب يصدر عن منطق شكلي ، ويعنى بالتقاسيم العقلية ، والنظرات الفلسفية على غرار ما كان يصنع علماء الكلام في هذا العصر الذين حاولوا أن يؤيدوا القضايا الدينية بالأدلة العقلية الفلسفية ، كأنهم لم يقنعوا بإيمان مجرد ، فالتمسوا تأييده بالأدلة والبراهين .

مثل ذلك حاول جماعة ممن تعرضوا للأدب أن ينقدوه نقداً منطقياً فاسفياً. يقولون للأديب :عليك أن تقول كذا لأن العقل يوجبه ، وأن تتجنب كذا لأن النظر يردّه ويرفضه !

ولعلنا لا نعدو الواقع إذا قررنا أن أبا هلال كان يعني بقوله هذا أنه لن يسير في الطريق التي سلكها أبو الفرج قدامة بن جعفر في كتابه « نقد الشعر » الذي تأثر فيه بمذهب أرسطو تأثراً ظاهراً ، واعتمد على كتابه في الشعر ، واقتفى أثره في نقد الشعر العربي على هدي من مقاييس الشعر اليوناني القديم .

هذا الكتاب « نقد الشعر » تنكر له بعض علماء العربية ، وألفوا كتباً في نقده ، ومن الكتب التي ألفت في ذلك كتاب « تبيين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر » الذي ألفه العالم الأديب أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي مؤلف كتاب « الموازنة » كما أسلفنا .

فهل كان أبو هلال حقاً من الراغبين عن « مذهب المتكلمين » في نقد الأدب ، وعلى رأسهم قدامة ؟ .

يرى الأستاذ أمين الخولي أن ذلك صحيح ، وأن أبا هلال يمثل طريقة الأدباء خير تمثيل ، ويقول في ذلك :وأما الطريقة الثانية وهي طريقة الأدباء في درس البلاغة فتمتاز بالإكثار المسرف من الشواهد الأدبية نثرها وشعرها ، والإقلال من البحث في التعاريف والقواعد والأقسام ، وتعتمد في النقد الأدبي على الذوق الفني ، وحاسة الجمال أكثر من اعتمادها على تصحيح الأقسام ، وسلامة النظر المنطقي ، ولا ترجع في ذلك إلى أصول الفلسفة من خلقيات أو غيرها ونرى هذا في مثل كتابة أبي هلال العسكري في الصناعتين ، يسوق في المقام الواحد عشرات الأمثلة والشواهد من القرآن والحديث ، وكلام العرب شعراً ونثراً ، ويعتمد في النقد الأدبي على الذوق غير مكتف بالصحة العقلية والسلامة النظرية كما في مثل قوله عن حسن التأليف [1] .

أما أن كتاب الصناعتين يمتاز بالإكثار المسرف من الشواهد الأدبية شعرها ونثرها فذلك حق واضح ، ولكن القول بأن هذا السبب وحده يجعل أبا هلال رأساً لمدرسة الأدباء في نقد الشعر فذلك ما هو جدير بالنظر والتثبت ، وبخاصة إذا قرأنا قول الأستاذ الخولي بعد ذلك في صراحة « لعل المدرسة الأدبية لم تكد تظفر بالكثيرين من أمثال أبي هلال العسكري [2] .

والواقع أن أبا هلال لم يكن ناقداً أديباً فحسب ، بل كان خبيراً بمذهب الفلاسفة ، عارفاً بآراء قدامة ، ولكن خبرته الشاملة ، واطلاعه الواسع على نصوص الأدب العربي ، وكثرة استشهاده بالقرآن والحديث والشعر والنثر قد غشي على الروح الأصيلة روح البحث العلمي والمنطق المجرد عنده ، واستطاع بدرايته بالأدب العربي ، وتمكنه منه ، والقدرة على التمثيل به أن يخفي هذه الروح العلمية ، وأن يكسوها ثوباً أدبياً ، وكانت النتيجة أنه بهذا الاستشهاد الكثير والإيراد الكثير استطاع أن يثبت مذهب قدامة وأن يؤكد

---

(١) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ٢٠ .
(٢) المصدر نفسه ٢٢ .

صلته بالأدب العربي ، بعد أن نفر منه النقدة الأدباء بحق من أمثال الآمدي وعبد العزيز الجرجاني .

ولقد استطاع أبو هلال أن يوهم الناس أنه قد ظل ناقداً أديباً ، وأنه قد سار على منهج أولئك الأدباء الكبار . . . ولكن هذا ليس لسوء الحظ صحيحاً « وإذا كان العسكري قد رفض أن يأخذ ببعض تعاريف قدامة فإنه قد أخذ عنه كل ما عدا ذلك ، حتى ليخيل إلينا أنه لم يرفض ما رفض إلاّ محاكاة للسابقين الذين أجمعوا على خطأ صاحب « نقد الشعر » في تحديده للمعاظلة والطباق وما شاكل ذلك [1] .

والأستاذ أمين الخولي نفسه يعود بعد ما أسلف من القول إلى تقرير أن أبا هلال جرى في مضمار المتكلمين ، وخدم أغراضهم ، بل تبع طرقهم في الدرس وقلدها ، وأما جريه في مضمارهم ، وخدمة أغراضهم ، فذلك حين نسمعه يقول إن البلاغة تدرس للاستدلال على إعجاز القرآن ، وجعل ذلك الإعجاز أمراً برهانياً لا تقليدياً . . . وأما تأثره بطريقة المتكلمين في الدراسة ومنهجهم فذلك ما نجده في أكثر من موضع من كتابه الصناعتين ، فهو مثلاً يجاري قدامة في جعل الفضائل الأربع أصول المدح ومعياره ، بل يكاد ينقل عباراته بنصها ، كما يتكلم في خطأ المعاني وصوابها على نحو كلام قدامة بطريقته فلم تخلص الطريقة الأدبية في أبي هلال ، أو لم يخلص أبو هلال للطريقة الأدبية ولم ينج من تأثير المتكلمين [2] .

وهذا القول الأخير هو الصواب ، ذلك أن أبا هلال رجل قد اجتمعت فيه ثقافة عصره كاملة ، سواء أكانت ثقافية عربية أصيلة ، أم تأثرت بالعامل الجديد الذي طرأ عليها ، وهذا العامل هو الثقافة اليونانية التي غزت الفكر العربي في مختلف نواحيه ، فنشأت الفلسفة الإسلامية متأثرة إلى حد كبير

---

(١) النقد المنهجي ٢٧٣ .
(٢) البلاغة العربية ٢٢ ، ٢٣ .

بالفلسفة اليونانية ، حتى الدين أصابه كثير من ذلك ، فعم الجدل وكثرت الفرق ، ومكن لمذهب الاعتزال الذي كان نتيجة للثورة الفكرية التي نشأت بعد ظهور هذا العامل الجديد ، وليس تعدد المذاهب والنحل إلاّ صدى لتوغل الفلسفة اليونانية في التفكير العربي .

ومن الناحية الأدبية التي تتصل ببحثنا أن كتاب الخطابة Retorikae الذي ألفه أرسطو قد ترجم إلى اللغة العربية ، وقيل أن إسحاق بن حنين نقله إلى العربي ، ونقله إبراهيم بن عبد الله ، وفسره الفارابي أبو نصر ، كما يقول محمد بن إسحق النديم [1] .

ولقد انتفع النقاد من العرب بهذا الكتاب ؛ كما انتفعوا بالكتاب الآخر لأرسطو وهو كتاب الشعر Poitikae الذي نقله أبو بشر متى بن يونس من السرياني إلى العربي [2] .

والواقع أن أحداً من نقاد الأدب العربي لم ينتفع بهذين الكتابين كما انتفع قدامة في كتابه « نقد الشعر » وقد عقد بعض العلماء بحوثاً لدراسة أثر كتاب الخطابة أرسطو في البلاغة العربية « وبالرجوع إلى ما يحفظ الصورة الأصلية لخطابة أرسطو نجد أنه قد تصدى لأبحاث بلاغية كثيرة ، تكاد تكون جمهرة ما بأيدينا من أبحاث بلاغتنا ، أو هي على الأقل أنواع كثيرة من فنونها الثلاثة[3].

وأبو هلال الذي ألمّ بكل ثقافة من ثقافات عصره ألمّ بهذا الكتاب « نقد الشعر » في جملة ما ألمّ به ، وظهر هذا الإلمام واضحياً جلياً في كتاب « الصناعتين » إذا ووزن بكتاب « نقد الشعر » أي أن أبا هلال من مدرسة

---

(١) الفهرست ٣٤٩ .
(٢) الفهرست ٣٤٩ .
(٣) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ١٢ وبعد هذه الكلمة ايراد لموضوعات بلاغية مشتركة بين اليونان والعرب ، وانظر بلاغة أرسطو بين العرب واليونان .

الكلاميين ، وإن صرح بأنه لم ينهج نهجهم ، ولم يذهب مذهبهم ، فليس ذلك إلاّ ليخفي هذه الحقيقة حين رأى تلك الحملات القوية على مذهبهم في نقد الأدب نقداً يعتمد على معرفة الحدود ، وجودة التقسيم ، وأسلوب المناقشة والجدل ، وحين رأى جماعة الأدباء يتنكرون لمذهب قدامة ، ويؤلفون التآليف في نقده ، ورأى ما كتب ابن قتيبة في معرض السخرية اللاذعة من هذا المذهب الفلسفي الذي يراه « ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم ، فإذا سمع الغمر والحدث الغر قوله : الكون ، والفساد ، وسمع الكيان ، والأسماء المفردة ، والكيفية ، والكمية ، والزمان ، والدليل ، والأخبار المؤلفة ، راعه ما سمع ، وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة ، وكل لطيفة ، فإذا طالعها لم يحل منها بحائل . إنما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعرض لا يقوم بنفسه ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تقسم ، والكلام أربعة : أمر ، وخبر ، واستخبار ، ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب ، وهي الأمر والاستخبار والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ، والآن حد الزمانين ، مع هذيان كثير ، والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا مائة من الوجوه ، فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه في كلامه كانت وبالاً على لفظه ، وقيداً للسانه ، وعيّاً في المحافل ، وغفلة عند المناظرين »[1] .

تلك الأسباب هي التي حملت أبا هلال على أن يتنكر فيما يزعم لمذهب الكلاميين ، وأن يتبرأ من مذهبهم في النقد ، وهو منهم في الصميم .

وأنت إذا رجعت إلى ما كتبه أبو هلال في الصناعتين[2] وجدت كثيراً من الأمثلة التي تؤيد ما قدمته لك .

تدبر معي هذه العبارات التي اقتطفناها من الصناعتين ، وهي شيء قليل

---

(١) أدب الكاتب لابن قتيبة ٣ .
(٢) الصناعتين ٨ .

إذا قيس إلى أمثاله من المنثور في ثنايا الكتاب ، وأحكم بعد ذلك على مبلغ صدق الرجل في دعواه البراءة من مذهب المتكلمين :

(١) سميت البلاغة بلاغة ، لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه « حتى اللفظ العربي يرى أنه في حاجة إلى التعليل في دلالته على معناه » .

(٢) تأييده رأيه بقول محمد بن الحنفية : البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه .

(٣) كل صامت ناطق من جهة الدلالة ، وذلك أن دلائل الصنعة في جمع الأشياء واضحة .

(٤) ويشترط في الخطيب أن يكون قد « . . . نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة فيها » .

(٥) المعاني على وجوه : منها ما هو مستقيم حسن ، نحو قولك رأيت زيداً ،

ومنها ما هو مستقيم قبيح ، نحو قولك : قد زيداً رأيت ، وإنما قبح لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير .

ومنها ما هو مستقيم النظم ، وهو كذب ، مثل قولك : حملت الجبل ، وشربت ماء البحر .

(٦) كل محال فاسد ، وليس كل فاسد محالاً ، ألا ترى أن قولك : قام زيد فاسد ، وليس بمحال .

والمحال ما لا يجوز كونه البتة » كقولك : الدنيا في بيضة .
وأما قولك : حملت الجبل وأشباهه فكذب ، وليس بمحال ، إن جاز أن يزيد الله في قدرتك فتحمله .

(٧) يجوز أن يكون الكلام الواحد كذباً محالاً ، وهو قولك : رأيت

قائماً قاعداً ، ومررت بيقظان نائم ، فتصل كذباً بمحال ، فصار الذي هو الكذب هو المحال بالجمع بينهما ، وإن كان لكل واحد منهما معنى على حياله ، وذلك لما عقد بعضها ببعض ، حتى صارا كلاماً واحداً[1] .

(٨) التقسيم الصحيح أن يقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه ، ولا يخرج منها جنس من أجناسه .

ولعلك موافقي بعد هذا الأسلوب على أن أبا هلال كان متأثراً بأسلوب المتكلمين ، وأنه نهج قدامة ، بل إنه هو الذي أحيا مذهبه الكلامي في النقد ، واستطاع أن يجعل موقفه من قدامة موقف الشارح للنص ، فيوضح ويفصل وينهج نهجاً تقريرياً تعليمياً ، واستطاع أن يخدع عن هذه الحقيقةمن أمره بهذا الإكثار المسرف من شواهد القرآن الحديث والشعر والنثر ، بما له من دراية بها وسعة اطلاع عليها ، وربما كانت هذه الدراية ، وربما كانت تلك الإحاطة الشاملة تنقص قدامة المستعرب ، فجاء أبو هلال فأكمل هذا النقص ، ومكّن لمذهب قدامة ، أو مكن للمذهب العلمي الفلسفي في نقد الأدب ، بعد أن كانت الفنية هي الغالبة على أساليب النقد قبل أبي هلال .

وإذا كان الذي دفع أبا هلال إلى تأليف كتاب الصناعتين هو ما رأى من تخليط العلماء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام ، فإن قدامة قد سبقه إلى تقرير مثل هذه العلة ، حين قرر أن علم جيد الشعر ورديئه قد تخبط فيه الناس منذ تفقهوا في العلوم ، فقليلاً ما يصيبون ، ولما وجد الأمر على ذلك ، وتبين أن الكلام في هذا الأمر أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخر ، وأن الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه ، رأى أن يتكلم في ذلك بما يبلغه الوسع[2] .

---

(١) الصناعتين ٧ .
(٢) نقد الشعر ١٠ .

وإذا نحن تأملنا هذا القول ملياً استطعنا أن نخرج بفائدة تلقي شيئاً من الضوء على علاقة كل من الرجلين بالآخر ، فإن الحافز لأبي هلال على تأليف « الصناعتين » هو تخبط العلماء الأعلام في أحكامهم على الشعر والشعراء ، والحافز لابي الفرج على تأليف « نقد الشعر » أنه رأى الناس يخبطون في ذلك منذ تفقهوا في العلوم ، فقليلاً ما يصيبون ، فالفكرة من غير شك واحدة والموضوع الذي يدور حوله الكلام هو النقد ، وتكاد الألفاظ التي أديت بها الفكرة تكون واحدة . وكل هذا يدل دلالة واضحة على الاطلاع ، بل على الاحتذاء والاقتفاء ، وأبو الفرج يعنى من غير شك بفقه الناس في العلوم وقوفهم على أساليب التفكير اليوناني الطارىء على أسلوب النقد العربي ، ولعله كان يرى أنه أقدر منهم على فقه هذه العلوم ، والإفادة منها ، وإصدار الأحكام على مقتضاها ، وربما كان ذلك لإلمامه باللغة اليونانية ، واطلاعه بنفسه على آثارها ، أما خبط غيره من الناس ، فلأنهم ثقفوها بالواسطة والنقل من غيرهم ، وفرْقٌ بين العالم الخبير ، والآخذ عن العالم الخبير !

ومن كل هذا يتبين أن دعوى أبي هلال البراءة من مذهب المتكلمين وهم ومغالطة ،ولعلك لو رجعت قليلاً إلى الوراء ، فتذكرت قوله عن كتاب الجاحظ « البيان والتبيين » إن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرة في أثنائه . . . لعرفت أن الرجل مغرق في مذهب المتكلمين ، وأن الذي يعنيه ، بل إن جل غايته من تأليف كتابه ، إنما هو الإبانة عن الحدود والتعاريف ، وتصحيح الأقسام بالنظر العقلي والتنظيم العلمي ، وما أسلوب المتكلمين غير ذاك ؟ !

والحقيقة الثانية أن أبا هلال كان عالماً نحوياً ولغوياً أيضاً ، وقد قدمنا نماذج من نقد ابن قتيبة في كتاب « الشعر والشعراء » توضح خصائص هذا المذهب النقدي . أما أبو هلال فإن المنهج اللغوي يقوى عنده حتى يطغى على باب بأسره من أبواب كتابه ، ويظل سائداً بقية فصول الكتاب .

وسأعرض الآن لكيفية معالجته لمعنى البلاغة والفصاحة ؛ وهي معالجة لغوية محضة ، حتى ليخيل إلى القارىء أنه يقرأ معجماً من معاجم اللغة ، لا كتاباً يؤلفه صاحبه في النقد ، ويشرع به التأليف في علم البلاغة .

(١) البلاغة من قولهم « بلغت الغاية » إذا انتهيت إليها ، وبلغتها غيري ، ومبلغ الشيء منتهاه ، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته ، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه [٢] .

(٢) ويقول بعد ذلك : والبلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم ، فلهذا لا يجوز أن يسمى الله عز وجل بأنه بليغ ، إذ لا يجوز أن يوصف بصفة كان موضوعها الكلام « وهذا أسلوب كلامي » . وتسميتنا المتكلم بأنه بليغ توسع ، وحقيقته أن كلامه بليغ ، كما تقول فلان محكم ، وتعني أن أفعاله محكمة ، قال الله تعالى : « حكمة بالغة » فجعل البلاغة من صفة الحكمة ، ولم يجعلها من صفة الحكيم .

(٣) إلاّ أن كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بأنه بليغ كالحقيقة ، كما أنها جعلت تسمية المزادة راوية كالحقيقة ، وكان الراوية حامل المزادة ، وهو البعير وما يجري مجراه ، ولهذا سمي حامل الشعر راوية .

(٤) ولما صار تسمية البغي المتكسبة بالفجور القحبة حقيقة ، وإنما القحاب السعال ، وكانوا إذا أرادوا الكناية عن زنت وتكسبت بالفجور قالوا : قحبت أي سعلت .

(٥) ومن ذلك « النجو » لأن الرجل إذا أراد قضاء الحاجة استتر بنجوة ، والنجوة الارتفاع ، فسمي ذلك الشيء نجواً مجازاً ، ثم كثر استعمالهم له فصار كالحقيقة ، وصرفوه فقالوا : ذهب ينجو ، كما يقال ذهب يتغوط إذا صار إلى الغائط ، وهو البطن من الأرض لقضاء الحاجة ، وسموا الشيء الغائط ،

---

(١) الصناعتين ٨ .

وصار كالحقيقة حين كثر استعمالهم له ، وقالوا إذا غسل ذلك الموضع من النجو يستنجي ، ومثل هذا كثير ليس هذا موضع استيعابه !

(٦) فأما الفصاحة فقد قال قوم إنها من قولهم « أفصح فلان عما في نفسه » إذا أظهره ، والشاهد على أنها الإظهار قول العرب : أفصح الصبح إذا أضاء ، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر ، وفصح أيضاً ، وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين ، وفصح اللحّان إذا عبر عما في نفسه ، وأظهره على وجه الصواب دون أخطاء [١] .

(٧) وقوله : إن رجلاً أراد أن يسأل بعض الأعراب عن أهله ، فقال كيف أهلك ؟ بالكسر ، فقال له الأعرابي : صلباً ، إذ لم يشك أنه إنما يسأله عن السبب الذي يهلك به !

(٨) وقال الوليد بن عبد الملك لأعرابي شكا إليه ختناً له : من ختنَك ؟ « ففتح النون » فقال : معذر في الحي ! إذ لم يشك في أنه إنما يسأله عن خاتنه [٢] « وهذا نقد نحوي » .

وهكذا نرى أبا هلال قد ضم إلى مذهب المتكلمين مذهب النحاة واللغويين. وتلك ثقافات عصره ، اجتمعت لديه ، ؛ فجاء كتابه ملتقى لها .

ومما لا شك فيه أن أبا هلال نهج في كتاب الصناعتين نهجاً علمياً خالصاً ، عالج فيه جوهر الشعر ، ودرس المعاني والألفاظ ، وفصل ما تسمو به وما تتضع ، دون أن يتعرض لعوامل الإجادة ، وبواعث المعاني ومنابع الألفاظ ، أو بعبارة أخرى نقول إن أبا هلال قد اتجه للمرة الأولى إلى تحويل أساليب النقد إلى مناهج بلاغية تعنى بالحصر والتحديد والتقسيم لأطراف الفن الأدبي .

أما جوهر الأدب فقد رأى تخليط العلماء — كما يقول — في الحكم ،

---

(١) الصناعتين ٩ .
(٢) المصدر السابق ١٢ .

وفي الاختيار ، فأراد أن يضع الأسس لهذه الأحكام ،وأن يستدرك ما فات الجاحظ من التنظيم العلمي .

لا شك أن هذه الرغبة في تنظيم هذا العلم علم النقد الأدبي ، أو علم البلاغة ، كما أراد أبو هلال أن يسميه ، أو كما أراد أن يحول مجرى النقد الأدبي إلى أصول وقواعد تحتذى ، واضحة صريحة في كتابة العسكري نفسه ، فلم يدخل في منهجه شيئاً له صلة بالمذهب التاريخي ، وعلاج الزمان والمكان ... وبعبارة أصرح نقول إن أبا هلال كان واضع قواعد ، ومنظم أحكام ، تتصل بجوهر الفن الأدبي ، أو هكذا كان يريد ، وتلك حقيقة واضحة ترفعه إلى مقام الأدباء المفكرين الذين ينظرون إلى الأدب فناً له خصائصه ومميزاته ، من غير مراعاة لقائله ، فترك المنهج التاريخي للعالمين بالأخبار والأنساب من الرواة والعلماء .

ونسأل بعد ذلك : هل نجح العسكري في وضع أسس ومقاييس تقاس بها الآثار الأدبية ، ويوزن بها النتاج الأدبي ؟ وهل استطاع الرجل أن يصدر أحكاماً قاطعة في أحكام السابقين تبين صحتها أو خطأها ؟ وهل علل هذه الأحكام تعليلاً ترضاه القواعد التي وضعها ؟

كنا نؤثر أن ندخر القول كله في هذا الأمر إلى الفصل الذي عقدناه لمقاييسه النقدية والبلاغية ، ولكنا لا نرى بأساً في هذا المقام من أن نشير إلى أن أبا هلال في بعض فصول الصناعتين ينسى شخصيته ، ويقف جهده عند ترسم خطا السابقين من النقاد والعلماء ، فيحصي أقوالهم في حد الفصاحة وحد البلاغة ، ثم يكد ذهنه وحافظته في شرح كل قول من هذه الأقوال ، وقد يكون الشرح أيضاً من ثمرات غيره .

وليته إذ أحصى الحدود حاول أن يوازن بينها ، أو أن يستخلص منها الحد الذي يرضاه عقله ، ويطمئن إليه فكره ، أو أن يصدر حكماً مفصلاً معللاً لها ، بل قد تعجب حين تراه يجمع الرأي إلى ضده دون أن يرجح أحد

الرأيين ، بل ربما شرح الرأيين ، وأيدهما بما وعت حافظته من شواهد القرآن والحديث والشعر والنثر ، ولسنا نرمي الكلام على عواهنه ، ولسنا نظلم الرجل ، بل إن الإنصاف يقتضينا أن ندرس الرجل ، أو بعبارة أخرى نخدم الفكرة بإبرازها بما لها وما عليها . وقد يزعم بعض الناس في زماننا أن اختيار مؤلف لموضوع من الموضوعات أو شخصية من الشخصيات ، عامل من عوامل الانحياز والتعصب لما اختار ، وإن جانب الحق وبعد الصواب ، وما نرى هذا الرأي لمن يتصدون لمثل ما تصدينا له ، بل نرى أن خدمة العلم دائماً ، تلتقي دائماً بنصرة الحق ، وإن خالف الهوى ، وفيما يأتي الدليل على ما أسلفنا :

(أ) في مبحث الفصاحة :

(١) قال قوم : إذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد ، وإن اختلف أصلاهما ، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له .

(٢) وقال بعض علمائنا : « الفصاحة تمام آلة البيان » ، وعلق على هذا بقوله : فلهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى فصيحاً ، إذ كانت الفصاحة تتضمن معنى الآلة .

(٣) وسمعت قوماً يذهبون إلى أن الكلام لا يسمى فصيحاً حتى يجمع مع هذه النعوت فخامة وشدة جزالة . . . فيكون مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ومثل كلام الحسين بن علي رضي الله عنهما : « إن الناس عبيد الأموال ، والدين لغو على ألسنتهم يحوطونه ما درّت به معايشهم ، فإن محصوا بالابتلاء قل الديانون » ، ومثل المنظوم قول الشاعر :

أرى غايةَ الخطيّ فوقَ رءوسهمْ كما أشرقتْ فوق الصُّوارِ قرُونها[1]

(٤) قالوا : إذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة ، ولم يكن فيه فخامة ، وفضل جزالة سمي بليغاً ، ولم يسم فصيحاً[2] .

(ب) في بحث البلاغة :

(١) قال محمد بن الحنفية رضي الله عنه : البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه بأسهل العبارة . . . فقوله « تضطر العقول إلى فهمه » عبارة عن إيضاح المعنى ، وقوله : « بأسهل العبارة » تنبيه على تسهيل اللفظ وترك تنقيحه[3] .

(١) وقد جاء عن الحكماء أقوال أنا ذاكرها ومفسرها ، لتكمل فائدة الكتاب إن شاء الله : قال إسحاق بن حسان : لم يفسر أحد البلاغة تفسير ابن المقفع « البلاغة اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة ، منها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون خطباً ، وربما كانت رسائل . . . » ثم يأخذ في الشرح .

(٣) وقال معاوية رضي الله عنه لابن أوس : ابغ لي محدّثاً ، قال : أو تحتاج معي إلى محدث ؟ قال : أستريح منه إليك ومنك إليه ، وربما كان صمتك في حال أوفق من كلامك . . . وله وجه آخر[4] .

(٤) وقال بعض الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواقع الفرصة ، ومن البصر بالحجة . . . الخ .

(٥) وقال الهندي أيضاً : البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة ، وقول عبيد الله بن عتبة : البلاغة دنوّ المأخذ ، وقرع الحجة ،

---

(١) الخطي : الرماح ، والصوار : بالضم والكسر : القطيع من البقر ، او أعالي الجبال والقرون من البقر ، واذا اريدت الجبال كانت القرون أشعة الشمس .
(٢) الصناعتين ١٠ ، ١١ .
(٣) ص ١٣ .
(٤) ص ١٥ .

وقليل من كثير . فأما البصر بالحجة فمثل ما أخبرنا به أبو أحمد . . . الخ[1] .

(٦) وقال حكيم الهند : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة[2] .

فقوله : « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة . . . » ويأخذ في شرح هذه العبارة في تطويل وإسهاب واستدلال ، حتى يستغرق شرح هذه العبارة الوجيزة والتمثيل لها ثماني عشرة صفحة كاملة من كتاب الصناعتين[3] .

(٧) وقول بعض الحكماء : « البلاغة قول يسير يشتمل على معنى خطير » ، وهذا مثل قول الآخر : « البلاغة حكمة تحت قول وجيز » ، وقول الآخر : « البلاغة علم كثير في قول يسير » ، ومثاله قول الأعرابي[4]...

(٨) وقال الرومي : « البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة عند الإطالة » . . . الاقتضاب أخذ القليل من الكثير ، وأصله من قولهم : « اقتضبت الغصن » إذا اقتلعته من شجرته ، وفيه معنى السرعة أيضاً[5] .

(٩) وقال جعفر بن يحيى : البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلّي عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة ، ويكون سليماً من التكلف ، بعيداً من سوء الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأمل .

قوله : « أن يكون الاسم يحيط بمعناك » ، فالاسم هاهنا اللفظ ، أي يحصر اللفظ جميع المعنى[6] .

---

(١) الصناعتين ١٧ .
(٢) الصناعتين ص ٢٠ .
(٣) الصناعتين من ص ٣٠ الى ص ٣٨ .
(٤) الصناعتين ص ٣٩ .
(٥) الصناعتين ص ٤١ .
(٦) الصناعتين ص ٤٢ .

(١٠) وقال العربي : البلاغة التقريب من المعنى البعيد ، والتباعد من حشو الكلام ، وقرب المأخذ ، وإيجاز في صواب ، وقصد إلى الحجة ، وحسن الاستعارة ، ومثله قول الآخر : البلاغة تقريب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب . . . والتقرب من المعنى الغريب [١] . . . إلى أن يقول : والرواية الصحيحة أن العربي قال : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ، ولكن رأيته في بعض أصولي كما ذكرته قبل فأوردته هاهنا ، وفسرته على ما رأيته في الأصل !

هذا هو جهد أبي هلال في باب الفصاحة والبلاغة اكتفينا بما أورده فيهما من هذه النصوص ، والأخذ في شرحها وتوضيحها .

أما القول في « إعجاز القرآن » وتفصيل وجوهه فلم يتعرض له العسكري وكل ما فعله أنه ساق أمثلة من القرآن الحكيم إلى جانب شواهد من الحديث والشعر والنثر ،مع أنه ذكر في أول ما كتبه ما يدل على أن الكلام في الإعجاز هو أولى الغايات التي سعى إليها والتي من أجلها ألف كتابه .

اعترافه بأنه مفسر وشارح :

ونلاحظ أنه لم يستطع ، أو لم يحاول أن يستخلص تعريفاً واحداً من هذه التعريفات الكثيرة برضاه ، ويتخذه غيره قاعدة . وهذا جل عمله ومدعاة فخره أنه جمع هذه الأقوال والتعريفات والحدود وفصلها وشرحها ، وهذه عبارته في التباهي بنفسه والزهو بعمله : « ذكرت في هذا الباب — وهو ثلاثة فصول — من نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة ما فيه كفاية ، وأتيت من تفسير مشكلها على ما فيه مقنع ؛ ولم يسبقني إلى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما اقتصر من كان قبلي على تلك النعوت عارية مما هي

---

(١) الصناعتين ص ٤٧ .

مفتقرة إليه من إيضاح غامضها ، وإنارة مظلمها ، فكانت المنفعة بها للعالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز ، فسقطت عنه معرفة كثير منها ، وأنت — أيدك الله — تعتمد ما ذكرته من ذلك ، وتأتم بما شرحته منه ، وتستدل على ما ألفيته من جنسه إذا عثرت به ، لتستغني عن جميع ما صنّف في البلاغة وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة إن شاء الله [1] .

والذي يبدو لنا أن العسكري يعني بمن كان قبله أبا عثمان الجاحظ الذي ذكر تلك النعوت عارية مما هي مفتقرة إليه ، ومن يقرأ البيان والتبيين يقف على تلك النعوت والحدود للبلاغة والفصاحة ، ولم يكن أبو هلال أميناً في إغفاله المصدر الذي أخذ عنه ، وإن ذكر الجاحظ وكتابه ، وعبر عن إعجابه به . ولسنا نعرف من أحصى تلك النعوت والحدود مثل الجاحظ فلم يكن من الأمانة العلمية ، ولا من أخلاق العلماء أن ينقل عالم كأبي هلال نقلاً بيّناً من غير أن يشير إلى المصدر الذي استقى منه .

وليس يعنينا هذا الآن بقدر ما يعنينا أن أبا هلال في أكثر هذه الأقوال لم يجهد نفسه في تعرف قائلها ، وكان يفيدنا ذلك أن نرجع إليها في مظانها ، وإنما أنت ترى أن أبا هلال يجتزىء بقوله قالوا ، ومن قولهم في ذلك . . . وقال الهندي وقال العربي ، وتلك زيادة في التعمية والإلغاز ؛ وكان يرفعه الإنصاف عالماً ، أكثر مما يهبط به الاعتساف مغتصباً .

على أن منهج أبي هلال في تناول هذه النصوص هو « منهج المعلمين » ، وقد كان مثل هذا الأسلوب سائداً منذ عهد قريب في أساليب التعليم : تناول المتون بالضبط ؛ ثم الشرح والتحشية والتحليل والتمثيل ، والاستطراد في ذلك ، حتى تستنزف العبارة الواحدة شرحاً كثيراً ، وجهداً كبيراً ، ووقتاً طويلاً ،

---

(١) الصناعتين ص ٥٤ .

وهو أسلوب التفريع الذي ينطوي به الأصل بين الفروع . وهذا أسلوب الكتب القديمة التي كانت إلى عهد قريب مورد الثقافة في مصر والبلاد العربية . وهو أسلوب تقريري تعليمي يكون بعرض الكليات ، ثم تناول جزئياتها ، ولكن هذا العرض وذلك البحث لا يؤديان إلى قاعدة توضع ، ولا إلى حكم يرتضى ؛ وإنما اكتفاء بالشرح والتفسير ، وزعم أن ذلك العلم كله الذي يرفعه على السابقين .

وقد يعييك البحث عن الجديد في تناول الأصول ونقد الأحكام في مثل هذا الباب ، فلا تكاد تجده .

ثم ما الذي يعنينا ، وما الذي نفيد من أمثال التعريفات ومن شروحها هل يفيد منها الأديب ؟ هل يفيد منها الناقد ؟ هل يفيد منها المنشيء ؟ هل يفيد منها الناظر في إعجاز القرآن ؟

نعتقد أن هذا الباب بأسره — الذي عالج فيه معنى الفصاحة والبلاغة لا يضيف إلى العلم ولا يضيف إلى النقد في أي اتجاهاته فائدة جديدة . وإنما هو باب توقيفي ، أو باب تقريري ، يفيد منه المتعلم لا العالم ، ويدرك به اللاحق ما عند السابق من علم ومعرفة ، وقد يفيد منه — كما يقول العسكري — العالم المبرز إذا غاب عنه شيء منه كما يقول .

على أننا لا نستطيع أن نجحد قيمة هذه الشروح التوضيحية من حيث الإفاضة في التمثيل ، وعرض نماذج جيدة من ثمرات الأدب الشهية في أثنائها .

منهج الصناعة :

ومنهج أبي هلال بعد كل ما تقدم « منهج الصناعة » يحرص عليها ، ويصطنعها ، ولا يستطيع بعد ذلك أن يخفي إعجابه برجال الصنعة ، والمقياس الذي يقيس به الشعراء ، والأدباء هو إحكامهم للصنعة ، واقتدارهم على

الإفادة من مذهب البديع ، واستخدام محسناته في ضروب الكلام .

وأنت ترى ذلك بوضوح فيما أورد من أمثلة للتجنيس فيها التكلف الممقوت ، وفيها السجع المصنوع ، وقد أوردها مورد الاستشهاد ، وخلطها بغيرها من الجناس المستحسن ، والسجع المقبول ، ومن ذلك : هشمتك هاشم ، وأمتك أمية ، وجمحت بك جمح ، وخزمتك مخزوم ، وأقصتك قصيّ [1] ... وجنس أبو تمام أربع تجنيسات في بيت واحد ، ولعله لم يسبق إليه ، وهو قوله :

بحوافرٍ حفر وصلب صلب وأشاعر شعر وخلق أخلق [2]

وقوله أيضاً :

لسلمى سلامان وعمرة عامرٍ وهندِ بني هندٍ وسُعدى بني سعدى

ومما جنس فيه قوله :

ففصلن منه كل مجمع مفصل وفعلن فاقرةً بكلّ فِقار [3]

وأبو هلال مولع الولوع كله بهذه الصناعة العجيبة ، وهذا التزاحم الغريب الذي لا يستسيغه إلاّ ذوو الأذواق المعقدة ، والتكلف المقيت ، انظر إليه يقول في بيت امرىء القيس في وصف حصانه :

له أيطلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ وإرخاء سرحان وتقريبُ تتفلِ

وهذا من بديع التشبيه ، لأنه شبه أربعة أشياء في بيت واحد ، وكذلك قول المرقش :

النشر مِسْكٌ والـوجوهُ دنا نيرٌ وأطرافُ الأكفّ نَمَمْ [4]

فهذا تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد . فمقياس الاستحسان عنده هو الكثرة لا غير .

---

(١) الصناعتين ٣١٣ .
(٢) الاشعر ما استدار بالحافر من منتهى الجلد .
(٣) الصناعتين ص ٣٢١ والفقار : جمع فقارة ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل الى العجب ، والفاقرة : الداهية .
(٤) الصناعتين ٢٣٨ .

وليت أبا هلال كان يجتزىء باستحسانه الصريح المبني على ذوقه الخاص ، ولكنه لا يفعل ذلك حتى يدعو الشعراء إلى اقتفاء هذه الآثار في تزاحم البديعيات والتشبيهات ، فيقول : ثم نورد هاهنا شيئاً من غرائب التشبيهات وبدائعها ، ليكون مادة لمن يريد العمل برسمنا في هذا الكتاب .

ثم يعرض طائفة مما استحسن من الأبيات الموقرة بالتشبيهات ، حتى يقول : ومن بديع التشبيه قول الآخر :

نشرتْ إليّ غدائراً من شَعرها حذر الكواشحِ والعدوّ الموبقِ[1]
فكأنني وكأنها وكأنه صبحان باتا تحت ليل مطبقِ

فشبه ثلاثة أشياء مفصلة .

ولست بحاجة إلى أن أفصل موضع السخف في البيتين في قوله « فكأنني وكأنها وكأنه » ولن يشفع للشاعر ، ولن ينفع أبا هلال ، أن يأتي الشاعر بألف تشبيه !

وبعد لأي وكد يصل إلى مثله الأعلى ، وغاية الغايات في ذوقه الخاص في قول الوأواء الدمشقي :

وأسبلتْ لؤلؤاً من نَرجسٍ فسقَتْ وَرْداً وعضَّتْ على العُنّاب بالبردِ

فيجعله أتم التشبيه ، لأنه شبه خمسة أشياء بخمسة أشياء في بيت واحد : الدمع باللؤلؤ ، والعين بالنرجس ، والخد بالورد ، والأنامل بالعناب ، لما فيهن من الخضاب ، والثغر بالبرد . . . ثم ينهي حكمه وإعجابه بهذا البيت فيقول : ولا أعرف لهذا البيت ثانياً في أشعارهم .

وهكذا نرى أن العسكري رجل صناعة قبل كل شيء ، يضع أسسها ، ويعجب بقائليها ، ويباريهم في استخدامها في شعره ونثره ، وكان من دعاتها الذين استجابت لهم القرون التالية ، فأحالت الأدب إلى طلاء زخرفي لا تكاد

---

(١) الصناعتين ٢٣٩ .

تتميز به جمال البناء ولا روعة الإنشاء ، وجعل الصناعة مقياس الأدباء ، ومقياس النقاد في الحكم بالإساءة أو بالإحسان .

* * *

ونستطيع بعد ذلك أن نجمل منهج أبي هلال فيما يأتي :

١ — نهج أبو هلال « منهج المتكلمين » في دراسة الأدب ونقده — وإن ادعى نفوره من مذهبهم ، وحاول أن يخفي سلوكه مسلكهم — فحول تيار النقد الأدبي الذي كان يعتمد أول ما يعتمد على تطبيق النصوص الأدبية على تقاليد العرب المأثورة ، وما درج عليه الشعراء القدامى في مطالع قصائدهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وأغراضهم ومعانيهم إلى منهج عقلي يعنى بالحدود والتقاسيم . . . حول القول فيما هو كائن إلى القول فيما يجب أن يكون .

٢ — عني بالتنظيم العلمي ، وحصر الأحكام ، بعد أن كانت مبثوثة في البيان والتبيين وغيره ، فشرع قواعد للفنون الأدبية ، أو بعبارة أخرى ، حول مجرى النقد الذي يعتمد على الذوق والموازنة إلى علم منظم واضح المعالم بين السمات هو علم البلاغة الذي وضع أساسه عبد الله بن المعتز وقدامة بن جعفر وأرسى قواعده ، وأتمّ بناءه أبو هلال .

٣ — ومنهجه تقريري من جهة أخرى ، إذا يتناول التعاريف والتقاسيم ، أو يضع القاعدة ، ويقسم الأقسام ، ثم يشرحها ويحللها ، ويمثل لها من محفوظه ، ويسرف في التمثيل والاستشهاد إسرافاً ظاهراً ، حتى لقد يكون من الممكن أن يعد كتاب الصناعتين بهذا كتاباً من كتب الأدب التي تحشد فيها النصوص البليغة والأقوال المأثورة في كل فن من فنون الأدب .

٤ — وهو منهج تعليمي من ناحيتين :

(أ) للنقاد الذين يحرصون على تعلم أصول النقد ، وتعرف أسباب

الحكم بزيفه أو أصالته ، وجيده ورديئه ، سواء منهم المبتدىء ، والآخذ منه بنصيب إذا غاب عنه وندّ عن فهمه شيء منه .

(ب) للأدباء المنشئين الذين يحرصون على جمال الفكرة وحسن الصورة، يعلمهم قواعد الصناعة ، ويرسم لهم أساليب الإجادة والإتقان — كما تروق له — ليسلكوا سبلها .

٥ — منهج العسكري هو منهج البحث عن الصناعة البلاغية بكل ما تحتوي هذه الكلمة من معان ، سواء في ذلك ما يتصل بأساليب البيان ، أو محسنات البديع ؛ يشيد برجالها ويدعو إلى اقتفائهم ، ويحذو هو نفسه حذوهم في نثره وشعره ، وخير الأساليب الأدبية في نظره ما حلاه البديع ، وكساه التصنيع .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الخامس

مقاييسه النقدية

نعالج في هذا الفصل المقاييس التي وضعها أبو هلال لقياس الأدب ، ثم نوضح القواعد البلاغية التي رسمها لبعد الأساليب الأدبية من العيوب وسلامتها من النقد لتكون البلاغة « نحو الأدب » تعصم الأديب من أخطاء الأساليب وعيوب التراكيب التي تنقص حظها من الحسن الأدبي والجمال الفني ، كما يجنب النحو الخطأ في الأعاريب ، ويصون اللسان والقلم من اللحن ، وسنجتهد في عرض هذه القواعد ، والإشارة إلى منابعها الأولى ، إن كانت قد تهيأت لواحد من السابقين الذين عرضوا لعلاج فنون الأدب .

وأبو هلال — كما قدمنا — ينهج في كتاب الصناعتين نهجاً تعليمياً . إذ كانت غايته أن يخضع صناعتي الشعر والنثر لقواعد ومقاييس ، ويطالب الأدباء بالتزام هذه القواعد ، والاقتداء بها . وهو الذي جنح بالنقد الأدبي الذي يعتمد على الذوق في إصدار الحكم على الفن الأدبي أكثر ما يعتمد إلى علم ذي أسس وأصول ، وهو علم البلاغة الذي شرعه وبيّن معالمه .

ولست أحب أن يتبادر إلى الذهن من هذا أن تلك المقاييس والقواعد التي نجدها في كتاب الصناعتين من صنع العسكري وحده ابتكرها ابتكاراً ولم يسبقه إليها واحد من الذين عرضوا لنقد الأدب . فقد مر في الفصل الثالث من هذا البحث الإشارة إلى منابع بلاغته ومصادر آرائه في النقد ، ولكننا هنا سنقف القارىء على حظ العسكري من الابتكار ، وحظ آرائه ومعاييره من الجدة والأصالة في كل مقياس من المقاييس التي نعرض لها بالبحث .

إذا استعرضنا كتاب « الصناعتين » وهو أهم ما يرجع إليه في استخلاص جهود أبي هلال وآرائه التي تتصل بفن الأدب ودراسته ألفينا المباحث التي يشتمل عليها موزعة بين فني البلاغة والنقد ، وهما كما تقدم شديدا الارتباط ووثيقا الاتصال ، إذ أن موضوع كل منهما هو « الأدب » وبيان محاسنه ومساوئه ، ويبدو الفرق بينهما في أن البلاغة اتخذت صيغة العلوم ذات القواعد والأصول التي تشرع للأدباء ، وترسم لهم سبل الإجادة . وتقدم لهم عناصر الجمال الأدبي وأسباب قوته وعوامل وضوحه ، وهي الصفات اللازمة للأعمال الأدبية التي تعين على تأديتها رسالتها في التأثير في نفوس القراء والسامعين ، وكل فن من الفنون التي تنتظمها علوم البلاغة يحقق غاية من تلك الغايات التي نتطلبها في الأدب . ومنهج البلاغة منهج تعليمي ، إذ أنها تشريع للأدب ، تفترض أن الأديب لديه ما يريد أن يقول من الأفكار والمعاني والأخيلة ، ثم تعلمه كيف يعبر عنها ، ومعنى ذلك أنها تعنى في الغالب بناحية الصياغة والأسلوب .

أما النقد فإن مجاله أكثر اتساعاً ، لأنه تقدير للأدب من جميع جهاته وأوسع مجالاته ، إذ ينظر في العمل الأدبي بعد إتمام صياغته ، ويتناول أسلوبه كما يتناول معناه ، ويحكم على التجربة وظروفها وعلى صدق الأدب ومطابقته للغرض وللمعنى وللمخاطب ، وعلى الجملة فإنه ينظر في جميع أجواء العمل الأدبي وملابساته .

وقد عالج أبو هلال في كتاب الصناعتين مسائل كثيرة تدخل في مجال النقد ومسائل كثيرة أيضاً تعد من موضوعات البلاغة .

وضع أبو هلال للأدب مقاييس لأكثر نواحي الكلام رسمت لها سبيل الإجادة ، ولقد اشتد الخلاف بين النقاد أنفسهم حول وضع المقاييس للفنون عامة ، والنقد بوجه خاص ، فمنهم من قال إن النقد مسألة ذاتية خالصة

تعتمد على ما تبعثه النصوص في نفوس القراء من انفعالات ، وما تؤثر في أذواقهم من آثار مقبولة أو منكرة ، وهذه النفوس والأذواق مختلفة باختلاف الأفراد ، فكل يتلقى النصوص وآثارها بطبيعة ممتازة ، ويتذوقها بحس خاص ، ويقدرها تبعاً لذلك ، على أن هذه النصوص والأذواق تستحيل مع الأيام وسعة الثقافة وباستحالة الحياة الاجتماعية والطبيعية ، فتصبح أحكامها معرضة للنقض والتناقض ومعنى ذلك تعدد الأحكام بتعدد النقاد ، ثم تغيرها بتغير الأحوال ، وليس هذا من طبيعة العلم ذي القوانين العامة الثابتة التي لا تتأثر بالملاحظات الفردية ، ولا المؤثرات الزمانية والمكانية ، ولكنها تمثل الموضوعية دون الذاتية التي هي طابع الفنون [1] . . وكلمة « الصناعة » التي ذكرها أبو هلال ترجمة لكلمة الفن للتمييز بينها وبين العلم ، والفن هو المهارة سواء كانت تلك المهارة فيما تثقفه اليد أو يثقفه اللسان ، فهو صناعة ، فالدمية صناعة اليد ، ولا يزاولها إلاّ الفنان أو الصانع الصناع الذي يختار لها المادة الجيدة والأوضاع الجيدة ، وقد يقصر بحسب تمكنه من صناعته ، فإذا اجتمعت جودة المادة إلى جودة الهيئة الحاصلة عدّ الفنان متمكناً من صناعته ، وكذلك سمي الأدب « صناعة » لما فيه من المهارة في إصابة المعنى ، أو ابتكار الخيال ؛ أو جمال الفكرة ، وحسن الصياغة ، والتأنق في الأساوب .

أما تاريخ هذا المصطلح في الأدب العربي فلعل محمد بن سلام كان أول من استعمل ذلك حين قرر أن الشعر « صناعة » وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات [2] . . . وأخذ العسكري عنه ذلك فسمي كتابه « الصناعتين » كما ظهرت كلمة الصناعة على لسان غيره من النقاد كالآمدي الذي يذكر لفظ « الصناعة » ويردد قول ابن سلام وما نقله عن

---

(١) أصول النقد الادبي ١٥٦ .
(٢) طبقات الشعراء ٦ .

خلف [1] والعمدة في الصناعة على المرانة والدربة والممارسة والمباراة ، وكل أولئك يتفاوت بتفاوت الأدباء والنقاد ، وكذلك الفنون عامة مبنية على كثرة المزاولة ، ومن هنا كان الشك في حاجة الفنون إلى قواعد تنظمها ، مع التسليم بأن الذوق لا غنى عنه في هذا السبيل ، وكان أبو هلال يتمتع من الذوق بحظ رفيع ، وكانت لديه القدرة على إصدار أحكام صائبة في كثير من الأحيان .

وكان يسعه أن يتمحض لذوقه ، وطول معاناته للأدب ، فيجيد إجادة ليس وراءها بغية لمستزيد ، ولكن رغبته في الإحاطة بجميع المذاهب ، وجمع الآراء هي التي أفسدت عليه ذوقه ، فجعلته يؤثر مذهب الصنعة ، ويتابع المتكلمين ، فيعنى بأساليبهم في الدرس والبحث ، ووضع الحدود ، وتنظيم الأقسام . ولو أنه أسلم نفسه لفنه ، وأطلق العنان لذوقه وبصيرته النفاذة لسلم من التخبط بين المذاهب ، ولكان له ولكتاب الصناعتين شأن أي شان .

عالج العسكري الكلام بشطريه الشعر والنثر . وسمي كتابه الصناعتين الكتابة والشعر ، وكان الأجدر أن يسميه الشعر والنثر ، ليكون أقرب إلى الصواب ، وإن كان ذكر الكتابة وحدها فلأنها كانت أهم ألوان النثر في العصر الذي عاش فيه ، وتبوأ الكتاب في زمانه أعلى الدرجات ، وكانوا المرموقين من بين أصحاب الصناعات ، وتسنموا المناصب الرفيعة ، ولكن على الرغم من هذه التسمية فإن الكتاب يعالج مسائل من فنون النثر الأخرى ، كالرسائل ، وكالخطب ؛ والمناظرات وغيرها .

قسم أبو هلال الكلام إلى قسميه المعروفين الشعر والنثر ، وتكلم في أحكام تعمهما ، ووضع مقاييس يقاس بها كل منهما . وإذا كان اللفظ والمعنى ركني الأدب اللذين جعلهما أبو هلال محوراً لدراسة الصناعتين ، وكان من السابقين في علاجهما وبيان منزلة كل منهما في بناء الكلام فقد آثرنا أن نتابعه في جعل اللفظ والمعنى أساس دراستنا لاستخلاص مقاييسه النقدية.

---

(١) الموازنة ١٧٧ ، ١٧٨ .

الالفـــاظ

كان العسكري من مدرسة الجاحظ التي تتشيع للصياغة ، وتتعصب للفظ ، وربما كان العسكري أكثر من رأينا مغالاة في تقدير قيمة اللفظ يجعله في الأثر الأدبي كل شيء ، ويجحد المعنى فلا يجعله شيئاً . ونستطيع من غير جهد أن نقرأ هذا القول ، ونستخلص منه هذا الرأي في الفصل الذي عقده في تمييز الكلام ، وهو الفصل الأول من الباب الثاني [1] الذي يؤكد فيه هذا الرأي حين يقرر أن الكلام إنما حسنه بما يكون فيه من سهولة ونصاعة ، وتخير لفظ وإصابة معنى ، وجودة مطالع ، ولين مقاطع ، واستواء تقاسيم ، وتعادل أطراف ، وتشبه أعجازه بهواديه ، وموافقة مآخيره لمباديه ، مع قلة ضروراته ، بل عدمها أصلاً ، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر . فنجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه ، وجودة مقطعه ، وحسن وصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه ، إذا كان كذلك كان بالقبول حقيقاً ، وبالتحفظ خليقاً . . . إلى أن يقولها في صراحة :

« ليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وإنما هو في إجادة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السّبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف . . . وليس يطلب من المعنى إلاّ أن يكون صواباً — وهو ما أراده من قوله « وإصابة معناه » في عبارته الأولى — ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت .

فمدار البلاغة في نظر العسكري هو الصناعة اللفظية والتأنق في صوغ

---

(١) كتاب الصناعتين ٥٤ .

اللفظ ، ويعدّ ذلك التأنق غاية الغايات من نظم الكلام أو هدف الأدب . أو بعبارة أخرى يعد الافتنان في صياغة المعاني والتعبير عنها هو مجال التفاوت بين الأدباء . أما أن تكون الغاية إفهام القارىء أو السامع فحوى الكلام فذلك ما لا يراه العسكري ، مستدلاً بأن الخطب الرائعة والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعاني فقط ، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيّد منها في الإفهام .. ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة ، والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة يبالغون في تجويدها ، ويغلون في ترتيبها ، ليدلوا على براعتهم وحذقهم بصناعتهم . ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر هذا العناء ، فربحوا كذا كثيراً ، وأسقطوا عن أنفسهم تعباً كثيراً [1] .

وهذا الرأي الذي يذهب إليه من أن الأدب ليست غايته الإفهام ، ولا بسط المعلومات وتلقينها ، يشبه إلى حد كبير نظرية أرسطو في الفن الأدبي ، ذلك أن البحث في الفنية هو بحث في الابتكار ، وفي الوسائل التي تتخذ للوصول إلى شيء مبتكر قد يكون موجوداً ، وقد يكون غير موجود ، لأن الفنية موجودة في نفس مبتكرها ، وفي طبيعة الأشياء المتحدث عنها ، والفنان يستطيع أن يبتكر جمالاً من شيء لا جمال فيه ، وأن يضفي جمالاً على شيء ليس جميلاً في ذاته ، وليس موضعاً للجمال ، فإذا وصفنا الأشياء وصفاً مادياً كما هي في الطبيعة والواقع ، فليس هذا فناً ، لأنه لا ابتكار فيه ومن ثم لا فنية . وليست هناك فنية في الأشياء الموجودة بالضرورة ، ولا في الأشياء اللازمة لزوماً عقلياً ، لأن مثل هذه الأشياء لها عناصرها في الطبيعة ، وما زدنا على الطبيعة شيئاً [1] .

والذي يريده أبو هلال من هذا هو أن الأدب ليس غايته الإفهام ، وإنما

---

(١) الصناعتين ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) كتاب الخطابة لأرسطاليس : ٢٧ .

الهدف العمل الفني الذي يدل على ذاتية الأديب ، وتبرز فيه شخصيته ، ومقدرته على التصرف في الصورة ،وإلباس الفكرة ثوباً من الخيال تسمو به عن الواقع المألوف ويؤيد أبو هلال هذا القول في الفن بتقريره أن الأثر الأدبي قد يسمو باللفظ إذا كان سامياً ، وحسب المعنى أن يكون وسطاً ، فالكلام إذا كان لفظه حلواً عذباً ، وسلساً سهلاً ، ومعناه وسطاً ، دخل في جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر كقول الشاعر :

ولمـــا قضينا من منى ..... الأبيات

فقد تعلق بمذهب الصنعة هذا التعلق الذي أعماه عن تقدير المعنى ، وليس المعنى دون اللفظ منزلة في تقدير القيمة الفنية للأدب ، ولا شك أن وجوب مراعاة جانب المعنى لا يقل شأناً عن وجوب الاهتمام بالألفاظ ، وأبو هلال في هذا يجاري الجاحظ الذي ذهب إلى أن المعاني يعرفها الحضري كما يعرفها البدوي ، ويعرفها العربي معرفة العجميّ والحقيقة أن التفاوت بين طبقات الناس هو القاعدة ، ومن ذا الذي يجحد تفاوتهم في المواهب ، وتفاوتهم في الاستعداد وعوامل الوراثة ؟ بل من ذا الذي يستطيع أن يتنكر لأثر التجربة والبيئة وأثر الثقافة في العقليات ، وهي لا تتسنى للناس بدرجة واحدة ؟ وليست المعاني إلاّ الأثر لهذه المقومات أجمع !

فأين الحقيقة من المجاز والاستعارة والكناية ؟ والخيال يلعب في كل فن من تلك الفنون دوراً خطيراً ، بل هو كل شيء فيها ؛ ومعاني الشعر ميزتها الكبرى أنها خيالية ، وهذه المعاني ، وهذا الخيال ، يختلف من شخص إلى شخص ، وخيال ساكن الصحراء غير خيال سكان الشواطىء ، غير خيال سكان الأودية ؛ وخيال العالم غير خيال الجاهل . والحقيقة أنه لم يعثر هذه العثرة إلاّ لإيثاره مذهب الصنعة ومجال هذه الصنعة هو الألفاظ والأساليب والقوالب التي يصب فيها الأديب معانيه. إن العسكري وأضرابه من الذين

يذهبون مذهبه في تقدير اللفظ وإنكار التفاوت بين الناس في الإجادة في المعنى في تقدير الأدب يتجاهلون عمداً عقليتهم ، وينكرون أثر الحضارة في بناء هذه العقلية ، وكذلك شأن الذين يجحدون التفاضل بين الألفاظ لأنهما متصلان أشد اتصال «لأن التفكير في اللفظ والمعنى تفكير جملي يفكر فيه الأديب مرة واحدة ، وبحركة عقلية واحدة ، فإذا رتبت المعاني في الذهن ترتيباً منطقياً ، وإذا تحددت في الفكر تحديداً يجمعه ترابط المعاني وتداعيها ، هذا الترابط وهذا التداعي الذي يرضاه المنطق أو يرضاه حس الأديب ، انحدرت هذه المعاني على اللسان بألفاظها الملائمة لها خطابة ، وانحدرت على القلم بألفاظها المطاوعة لها كتابة وشعراً ، من غير تهذيب واختيار لهذه الألفاظ ، وكبار الكتاب الذين ينقحون من ألفاظهم بعد كتابتها إنما يغيرون من هذه الألفاظ ، لأن معانيها قد تغيرت في نفوسهم ، إما بالتحديد ، وإما بالزيادة والنقص . فهم يستبدلون اللفظ باللفظ وفق ما غيروا في أنفسهم من المعاني ، ففصل اللفظ عن المعنى هذا الفصل الذي يريده أبو هلال مخالف لطبيعة الأشياء ولطبيعة العقل نفسه [1] .

على أن عالماً أديباً يسبق أبا هلال بنحو قرنين من الزمان يعرف منزلة اللفظ ، كما يفطن إلى منزلة المعنى في الحكم على الأدب وتقدير قيمته الفنية ، ذلك هو بشر بن المعتمر [2] الذي كتب صحيفة ذكر فيها البلاغة ، ودل على مظان الكلام والفصاحة يقرر فيها أن التوعر يسلم إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك المعاني ، ويشين الألفاظ . والأديب الذي يريغ معنى كريماً عليه أن يلتمس له لفظاً كريماً ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن يصانا عما يفسدهما ويهجنهما .

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ١٥١ ، ١٥٢ .
(٢) توفي بشر بن المعتمر سنة ٢١٠هـ وكان من أئمة المعتزلة .

والمنزلة الأولى عند بشر بن المعتمر للأديب الذي يكون لفظه رشيقاً عذباً ، وفخماً سهلاً ، ومعناه ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، إما عند الخاصة إن كان إليها قصد ، وإما عند العامة إن كان إياها أراد ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة . . . والبليغ التام هو الذي يبلغ ببيان لسانه ، وبلاغة قلمه ، ولطف مداخله أن يفهم العامة معاني الخاصة ، ويكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء . وعلى هذا فالمعاني عند بشر ليست على درجة واحدة ، بل هي متفاوتة ، فينها الكريم وغير الكريم ، وفينها معان للخاصة ، ومعان للعامة ، كما أن الألفاظ كذلك ، ولا شك أن هذا هو القول الصواب مع تقدمه في الزمن . وليس الأمر كما زعم أبو هلال أن المعاني في مستطاع الناس بدرجة واحدة مهما تختلف مواهبهم وتتعدد ألوانهم وتتباين ثقافاتهم ! والعجيب أن صحيفة بشر قرأها أبو هلال وسجلها في كتابه ، كما نقلها أبو عثمان الجاحظ في بيانه .

وإذا تنكر العسكري للمعاني على هذه الصورة فإن الحقيقة تغالبه فلا يلبث أن يقررها إن قصداً وإن عفواً ، فيقول [1] : الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها وتعبر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين الألفاظ ، لأنه المدار بعد إصابة المعنى ،ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة ، وتراه يقول في موضع آخر [2] : لا خير فيما أجيد لفظه وسخف معناه ! وهذا هو الصواب الذي لا ينازعه فيه أحد «لأن الذي ينبغي أن يمنع هو أن يفكر الأديب في معانيه تفكيراً سليماً يقره العقل ، وتدفعه العاطفة ، ثم يورد هذه المعاني في عبارات سقيمة متداعية

(١) الصناعتين ٦٨ .
(٢) الصناعتين ٥٥ .

ولكن من قال إن هذا يسمى أديباً ، أو يستحق أن تطلق عليه هذه الكلمة ؟ إن الأديب هو الذي يملك اللغة التي ينشيء بها الأدب ، فإذا قصرت به لغته لم ينفعه عقله ، ولم تنفعه معانيه ، فقبل تأليف الأدب لا بد أن يعرف الأديب اللغة التي يورد فيها الأدب ، والأمر لا يعدو ما قال أرسطو مخاطباً الخطباء : « يجب أن نعرف اللغة اليونانية »[1] . وكذلك كل أديب من الأدباء عليه أن يثقف لغته التي يعبر بها ، ويعرف وجوه الفضل بين مفرداتها وتراكيبها .

ولنا بعد هذا البيان كلمة ، هي أن هذه الظاهرة ظاهرة الخلاف في تقدير اللفظ والمعنى ربما ترجع في أساسها إلى خلاف عنصري ؛ ذلك أن أكثر الذين تشيعوا للألفاظ كانوا من العنصر العربي ، أو من الذين تفانوا في العروبة وتلاشت فيها عصبيتهم ، وكان أكثر الذين تشيعوا للمعنى من غيرهم من الأمم الذين سكنت ريحهم ، ودالت دولتهم ، وبقي في نفوسهم شعور مكبوت ، وحنين خفيّ إلى مجدهم الغابر ، فاصطرع العداء السافر بين الشعوبية والعرب ، وكان هذا الصراع الخفي في إبداء الرأي متنفساً لغيرهم ممن منعهم دينهم وحرصهم على وحدتهم عن المجاهرة بهوى النفوس ، فاتخذ هذا الصراع الخفي مظاهر شتى ، لعل منها هذا الخلاف النظري بين اللفظ والمعنى ، وهو في أصله أكبر من خلاف بين اللفظ والمعنى ، ولكنه في حقيقته هتاف العرب : لنا لسان وبيان ، فيجيبهم لسان حال أولئك : ولنا فكر وعقل ! !

بعد هذا البيان ننتقل إلى القول في مقاييس الألفاظ التي وضعها العسكري ، وسنجده قد وفق فيها توفيقاً يرضى عنه الذوق والإنصاف ، لأنه استوحى فيه ذوقه وطبعه الفني ، ولقد جمع العسكري هذه المقاييس في هذه العبارة : إن الشعر كلام منسوج ولفظ منظوم ، وأحسنه مما تلاءم نسجه ولم يسخف ، وحسن لفظه ولم يهجن ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفاً بغيضاً .

---

(١) بلاغة أرسطو ١٢٥ .

ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلاً دونا [1] . فالمقياس الذي يقيس به لغة الشعر أن يكون الأسلوب متلائم النسج في غير سخف ، وأن يكون اللفظ حسناً في غير ابتذال متوسطاً بين البغيض والسوقي المهلهل . هذه هي القاعدة العامة أو المقياس العام للغة الشعر ، ثم قسم الألفاظ أقساماً ، وبين ما يستجاد منها وما يستكره ، وفيما يأتي تفصيل ذلك :

اللفظ الغريب :

الغرابة تخل بالفصاحة ، وتباعد بين الأسلوب ووصفه بالبلاغة ، وهذا هو رأي العلماء والنقاد ، وهو رأي العسكري الذي يصرح بأن الغريب لم يكثر في كلام إلاّ أفسده لما فيه من دلالة الاستكراه والتكلف [2] والأديب الذي يميل إلى الإغراب في اللفظ أديب ملتوي الحس ، لا يصدر عن ذوق ، ولا يعبر فيه صاحبه عن طبع ، بل يصرح بأن الاستعانة بالغريب عجز ، حتى النقاد والرواة الذين يعنون برواية الغريب لا يرضى العسكري عن مسلكهم ، فالمفضل الضبي ، وهو المعروف بضبط الرواية وصحة النقل ، وقد أكسبه هذا هيبة واحتراماً في نفوس العلماء ، يعيب عليه أبو هلال أنه كان لا يختار من الشعر إلاّ ما يقل تداول الرواة له ، ويكثر فيه الغريب ، وهذا حظه في الاختيار ، فكان اختياره فاسداً ، وعلة هذا الفساد أنه اختار الغريب ، واختيار الرجل دليل على عقله ، ولم ينج الأصمعي وهو الثقة الصدوق من نقد العسكري ، لأن هذه الغرابة تنافي الوضوح والظهور في معنى البيان ، وإنما الكلام الفصيح هو الذي تكون ألفاظه مألوفة عند الأدباء شعرائهم وكتابهم لما اتصفت به من نعوت الجودة وصفات الجمال .

---

(١) الصناعتين ٥٩ .
(٢) الصناعتين ٥ .

الوحشي :

إن العدول عن سلس الألفاظ وسهلها إلى الوحشي منها مما يمقته أبو هلال أشد المقت ، ويعده تعقيداً ، ويسميه إغلاقاً وتقعيراً ، يؤدي إلى تغليق الكلام بعضه ببعض ، حتى يستبهم المعنى ، فزهير بن أبي سلمى الجاهلي معيب ، لأنه أورد لفظاً حوشياً هو قوله في المديح :

تقيٌّ نقيٌّ لم يكثّر غنيمةً بنهكة ذي القُربَى ولا بحَقَلّدِ

فاستبشع لفظ « الحقلد » وهو السيىء الخلق ، وليس في لفظ زهير أنكر منه [1] .

أما الطريف في هذا الباب فهو ما زعمه العسكري من أن بعض الأمراء قد اعتلت أمه ، فكتب رقاعاً ، وطرحها في المسجد الجامع بمدينة السلام فيها : « صين امرؤ ورعى دعا لامرأة انقحلة مقسئنة ، قد منيت بأكل الطرموق فأصابها من أجله الاستمصال أن يمن الله علينا بالاطرغشاش والابرغشاش [2] . فكل من قرأ رقعته دعا عليه ولعنه ولعن أمه !

ويصف العسكري بالجهل قوماً صاروا لا يستجيدون الكلام إلاّ إذا لم يقفوا على معناه إلاّ بكد ، ويستفحصونه إذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة ، وجاسية غريبة ، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلساً عذباً وسهلاً حلواً ؛ ولم يعلموا أن السهل أمنع جانباً ، وأعز مطلباً ، وهو أحسن موقعاً ، وأعذب

---

(١) الصناعتين ٣٢ .

(٢) قحل الشيخ يبس جلده على عظمه فهو قحل بالفتح وانقحل كجردحل (قاموس ج ص ٣٦) . مقسئنة : عجوز . منيت : أصيبت . الطرموق : الطين . الاستمصال : الاسهال . الاطرغشاش : التماثل من المرض فعله اطرغش . الابرغشاش : الابلال من المرض ، قال الجاحظ : ولو خاطب احد الاصمعي بمثل هذا الكلام لظننت انه سيجهل بعضه (صناعتين ٣٢) .

مستمعاً ، ولهذا قيل أجود الكلام السهل الممتنع . وقيل للسيد : ألا تستعمل الغريب في شعرك ؟ فقال : ذلك عي في زماني وتكلف مني او قلته ؟ وقد رزقت طبعاً واتساعاً في الكلام ، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير ، ولا يحتاج إلى تفسير . ثم أنشد :

أيا ربِّ إنّي لم أُرِدْ بالذي بهِ　　مدحْتُ عليّاً غيرَ وجهكَ فارحمِ

فهذا كلام عاقل يضع الشيء موضعه ، ويستعمله في إبانة ، ليس كمن قال

* جَفَخَتْ وَهُمْ لا يجْخَفُونَ بهابِهِمْ *

فأشمت عدوّه بنفسه [1] .

لم يعرّف أبو هلال الحوشي أو الوحشي ، ومعناه اللغوي الغامض من الكلام [2] . وعرفه الآمدي فقال : هو الذي لا يتكرر كثيراً في كلام العرب فإذا ورد ورد مستهجناً [3] .

وقد يعيننا تعريف الآمدي للحوشي على التفريق بينه وبين الغريب ، فالغريب ما خفي معناه ، لأنه ليس من لغة العصر التي تواضع عليها الأدباء ، وليس لغة أوساط الناس ، فإذا ورد لم يفهم معناه بيسر وسهولة ، وقد يتسنى الفهم باستشارة خبير من العلماء ، أو الرجوع إلى معجم من معاجم اللغة . وهو لهذا يعوق القارىء أو السامع عن متابعة اللذة الفنية التي يجدها في الأثر الأدبي .

أما الحوشي فإن استبشاعه ناشيء مما فيه من ثقل في الحروف التي بنيت منها الكلمة ، فإذا نطق نطق مستكرهاً . ولذلك لم يتكرر في كلام أصحاب اللغة ، وإنما نطقه أجلافهم ، فإذا سمعه غيرهم كرهوه واستهجنوه . ولعل

(١) الصناعتين ٦١ ومعنى جفخت فخرت .
(٢) القاموس ج ٢ ص ٢٧٠ .
(٣) الموازنة ١٢٥ .

من أوضح الأمثلة للحوشي أو الوحشي العكر قول ابن جحدر :

حلفتُ بمـــا أرقلتْ حولَهُ هَمَرْجلةٌ خلفهـــا شيْظَمُ

وما شَبْرَقَتْ مـــن تَنُوفيّة بها من وحَى الجن زيزَيزمُ[1]

ونستطيع أن نوجز القولَ في التفريق بينهما ، فنقول : إن الغريب عيبه في معناه ، والحوشي عيبه في لفظه .

وجل البلاغيين والنقاد لم يفرّقوا بين الحوشي والغريب فخلطوا بينهما . وكذلك خلط بينهما أبو هلال ، ألست تراه يقول : غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلاّ بكد « وهذا نعت للغريب » ثم يقول : ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزّة غليظة وجاسية . . . « وهذا نعت للحوشي » وتراه يستدل على رأيه في الحوشي بقوله : وقيل للسيد ألا تستعمل الغريب في شعرك ؟

الألفاظ المشتركة :

ومن الألفاظ ما تعدد معناه وهو المشترك ، فإذا أراد الأديب الإبانة عن معنى من المعاني ، فأتى بألفاظ لا تدل عليه خاصة ، بل تشترك معه فيه معان أخر ، فلا يعرف السامع أيها أراد ، فربما استبهم الكلام في نوع من هذا الجنس ، حتى لا يوقف على معناه إلاّ بالتوهم ، فذلك مما يخل بفصاحة الكلام.

فقول جرير :

لو كنتُ أعلمُ أنّ آخرَ عهدكمْ يومَ الرَّحيل فعلتُ ما لم أفعلِ

من المشترك الذي يستبهم به الكلام ، ووجه الاشتراك في هذا أن السامع

---

(١) أرقلت : أسرعت . الهمرجلة : الناقة النجيبة . والشيظم : الفتى من الابل والناس . والشبرقة : عدو الدابة . والتنوفية : الفلاة . وزيزيزم : حكاية أصوات الجن .

لا يدري إلى أي شيء أشار من أفعاله في قوله « ما لم أفعل » : أأراد أن يبكي إذا رحلوا ؟ أو يديم على وجهه من الغم الذي لحقه؟ أو يتبعهم إذا ساروا ؟ أو يمنعهم من المضي على عزمة الرحيل ؟ أو يأخذ منهم شيئاً يتذكرهم به ؟ أو يدفع إليهم شيئاً يتذكرونه به ؟ أو غير ذلك مما يجوز أن يفعله العاشق عند فراق أحبته ، فلم يُبِن عن غرضه ، وأحوج السامع إلى أن يسأله عما أراد فعله عند رحيلهم .

وليس هذا كقولهم : « لو رأيت علياً بين الصفين » لأن دليل البسالة والنكاية في هذا الكلام بيّن ، وأمارة النقصان في بيت جرير واضحة ، فمن لم يسمعه إن لم يكن من أهل البلاغة يستبرده ويستغثه ،ويسترجع الآخر ويستعيده.

ومثله قول سعد بن مالك الأزدي :

فإنّكَ لو لاقيتَ سعدَ بنَ مالكٍ للاقيتَ منه بعضَ ما كانَ يفعلُ

فلم يُبِنْ عما أراد بقوله أخيراً أراد أم شراً ، إلاّ أن يسمع ما قبله أو ما بعده ، فيتبين معناه ، وأما في نفس البيت فلا يتبين مغزاه [1] .

ونقد الشعر على هذه الصورة مما يوافق رأي أبي هلال في أن « التضمين » وهو افتقار البيت إلى ما قبله أو بعده ، من عيوب الشعر ، ولنا فيه قول نذكره فيما بعد ، وعلى هذا لا يكون العيب في هذا البيت آتياً من جهة الاشتراك في معنى اللفظ ، بل من افتقاره إلى غيره من الأبيات عند أبي هلال وعند كثير غيره من النقاد الذين يطلبون الوحدة في البيت المفرد .

السهل والجزل :

نظر العسكري إلى لغة الأدب ، وألفاظه المختارة ، الجديرة بالقبول ، نظرة العالم ذي الحس المرهف ، والذوق البارع القادر على التمييز بينها ،

(١) كتاب الصناعتين ٣٥ .

والتنبه إلى الجدير بالاختيار منها ، واتبع لذلك سبيل التقسيم العلمي ، فجعل الألفاظ سهلة وجزلة ، ولكنه كغيره من العلماء الذين لا يعنون بتحديد مدلول الألفاظ لم يحدد كلاً منهما التحديد الواضح الذي يستقل به ، ويميزه من غيره ، وإن كان في الأمثلة التي مثل بها ما يشير إلى ناحية الاختلاف بينهما بالذوق والنظرة الفاحصة .

إن أعلى ضروب اللفظ الجدير بالاحتذاء عند أبي هلال هو السهل المطبوع الجيد أو « السهل الممتنع » والأديب المقتدر على تأليف هذه الألفاظ السهلة العذبة هو الأديب المطبوع سواء أكان شاعراً أم ناثراً .

فعمرو بن مَسعده أبلغ الناس ، ودليل بلاغته أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كتبه ، لما يجد فيها من اليسر ، فإذا رامها تعذرت عليه .

والعباس بن الأحنف أشعر الناس في هذه الأبيات :

إليكَ أشكو ربّ ما حلَّ بي   من صدّ هذا التائهِ المعجبِ
إن قال لم يفعلْ وإن سِيلَ لمْ   يبذلْ وإن عوتبَ لمْ يُعتبِ
صَبٌّ بعصياني ولو قالَ لي   لا تشربِ البارِدِ لم أشرَبِ

فهذا شعر حسن المعنى ، سهل اللفظ ، عذب المستمع ، قليل النظير ، عزيز التشبيه ، ممتع ممتنع ، بعيد مع قربه ، صعب في سهولته [1] . . . هكذا وصفه أبو هلال ، وهكذا وصفه أستاذه أبو أحمد من قبله .

ومن أمثلة النثر السهل اللفظ الذي يدل على طبع ما وقع به علي بن عيسى : « قد بلّغتك أقصى طلبتك ، وأنلتك غاية بغيتك ، وأنت مع ذلك تستقل كثيري لك ، وتستقبح حسني فيك ، فإنك كما قال رؤبة :

كالحوتِ لا يكفيهِ شيء يلقمهْ   يصبحُ ظمآن وفي البحرِ فمُهْ

(١) كتاب الصناعتين ٦٠ .

على أن هذا السهل قد يصبح مرذولاً مردوداً ، إذا كان معناه مكشوفاً بيناً . فليست سهولة اللفظ وحدها مقياس القبول ، وإنما هي السهولة المقترنة بقوة المعنى . وقد نجده هاهنا يخفف من غلوائه في تقدير اللفظ ، وجعله مدار البلاغة ، كما رأينا فيما سبق . فقول الشاعر :

يا ربّ قد قلّ صبري وضاقَ بالحبّ صدري
واشتد شوقي ووجدي وسيّدي ليس يدري
مغفلٌ عن عذابي وليسَ يرحمُ ضرّي
إن كان أُعْطي اصطباراً فلستُ أملكُ صَبري
أنا الفِدَا لغزالٍ دنا فقبّلَ نَحْري
وقالَ لي مِنْ قريبٍ يا ليتَ بيتَكَ قبري !

من هذا الرديء المرذول ، وليس فيه مع سهولته خير ، لا سيما إذا ارتكب فيه مثل هذه الضرورات . هذا رأي أبي هلال ، وإن كان في البيتين الأخيرين من هذا الشعر من جمال المعنى ما لا يمكن أن يجحد ، مع الرقة المناسبة للغرض .

ويؤكد العسكري نفوره من هذا الأسلوب ، ويشترط في السهل المقبول أن يكون بريئاً من الغثاثة ، عارياً من الرثاثة ، والكلام إذا كان غثاً ومعرضه رثاً كان من المردود ، ولو اشتمل على أجل معنى وأنبله وأرفعه ، كقول الشاعر :

لمّا أطعناكُمُ في سُخْطِ خالِقنا لا شكَّ سلَّ علينا سيفَ نقمتِهِ

وقول الآخر :

أرى رجالاً بأدنى الدّين قد قنعُوا وما أراهم رضُوا في العيشِ بالدُّونِ
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استْ تغنى الملوكُ بدنياهمْ عن الدِّينِ

لا يدخل هذا في جملة المختار ، ومعناه كما ترى نبيل فاضل جليل [1] وقد تسأل عن موضع النبل والفضل ، فلا تجد له أثراً إلاّ ما فيه من وعظ وإرشاد ، وهو في الحق معنى عامي ليس له حظ من الأصالة والابتكار .

وكما يكون السهل الجيد مقبولاً ، يكون الجزل مقبولاً ، ومقياس الجودة في الجزل أن العامة تستطيع أن تدركه وتقف على معناه ، وإن كنت لا تستعمله في محاوراتها ، ومنه قول مسلم بن الوليد :

وردنَ رواق الفضل فضل بن خالدٍ فحطَّ الثناء الجزلَ نائلهُ الجزلُ
بكفّ أبي العباس يستمطر الغِنى وتُستنزل النعمى ويسترعفُ النصلُ
ويُستعطفُ الأمرُ الأبيّ بحزمهِ إذا الأمرُ لم يعطفه نقضٌ ولا فَتْلُ

ومما هو أجزل من هذا قول المرار الفقعسي :

فظلَّ يديرُ الموتَ في مُرْجَحِنّةٍ تسفّ العَوالي وسطها وتشُولُ
وكائِنْ تركْنا من كَرائم معشرٍ لهنَّ عـلى أيـامهنَّ عويـلُ
على الجُرُدِ يعلِكْنَ الشكيم كأنها إذا ناقلت بالدارعينَ وُعُولُ [1]

فهذا وإن لم يكن من كلام العامة فإنهم يعرفون الغرض فيه ، ويقفون على أكثر معانيه .

ولقد مثل أبو هلال للجزل المختار من النثر بقول يحيى بن خالد : « أعطانا الدهر فأسرف ، ثم عطف علينا فعسف » . وقول سعيد بن حميد : « وأنا من لا يحاجك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرمه ، ولا يلتمس رضاك إلاّ من جهته ، ولا يستدعي برك إلاّ من طريقته ، ولا يستعطفك إلاّ بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك إلاّ بالاعتراف بالجرم » .

---

(١) كتاب الصناعتين ٩٧ .
(٢) استرعف : استقطر . المرجحنة : المتمايلة الثقيلة . تشول : تفرق . المناقلة : ضرب من السير . الدارعون : المتقدمون في السير .

هذا ما مثل به العسكري ، وعندي أن مثالي النثر ليسا من الجزالة في شيء بل هما أجدر أن يكونا من السهل المطبوع .

والحق أن مفهوم الجزالة غير واضح وغير محدود ، فإن أبا هلال وغيره من العلماء لم يبينوا لنا حدود هذه الجزالة ، وإنما الذي رأيناه أنهم يذكرونها مقابلة السهولة والسلاسة ، والمقابل للسهولة هي الصعوبة والتعقيد ، فإن كان ذلك الذي يريد أبو هلال فإننا لا نرى في مثالي النثر شيئاً من العسر والتعقيد ، والعامة يفهمون مدلول هذه الألفاظ من غير استكراه ، ويستعملونها في محاوراتهم من غير عنت ولا عناء .

والمعنى اللغوي للجزل : الحطب اليابس ، أو الغليظ منه . . . والجزل خلاف الركيك من الألفاظ [1] . ولعل هذا المعنى منقول عن المعنى الأول . ولعل هذا المعنى أيضاً — الجزل خلاف الركيك من الألفاظ — هو الذي ذهب إليه العسكري في تقسيمه ، بدليل أنه جمع الجزالة والسهولة في وصف الكلام الجيد حين قال : وأجود الكلام ما كان جزلاً سهلاً لا ينغلق معناه ، ولا يستبهم مغزاه .

وهذا المعنى قريب مما ذكره أبو العباس ثعلب عن جزالة اللفظ . وذلك في قوله : « فأمّا جزالة اللفظ فما لم يكن بالمغرب البدوي ، ولا السّفْساف العامي ولكن ما اشتد أسره ، وسهل لفظه ، ونأى واستصعب على غير المطبوعين مرامه ، وتوهم إمكانه [2] . والذي يمكن أن يفهم من هذا الوصف هو أن الجزالة معناها التوسط بين العامية المتبذلة والغرابة الحوشية وبذلك تتداخل هذه الألقاب — الغرابة ، والحوشية ، والجزالة ، والسهولة — تداخلاً شديداً ، ويصبح تمييز بعضها من بعض أكثر صعوبة وتعقيداً .

---

(١) انظر القاموس ج ٢ ص ٣٤٨ .
(٢) كتاب قواعد الشعر لثعلب ٥٩ (مطبعة الحلبي — القاهرة ١٩٤٨م) .

على أن هذا الجزل قد يحول فجاً بغيضاً إذا كان تمييز ألفاظه ، يحتاج إلى جهد ومشقة وإذا كان قبيح الرصف فاسد النسج كقول تأبط شراً :

إذا ما تركتُ صاحبي لثلاثة ... أو اثنين مثلينا فلا أُبْتُ آمنا
ولما سمعتُ العَوْض تدعو تنفّرتْ ... عصافيرُ رأسي من نَوًى فعوَاينا
وحثْحثْتُ مشعوفَ الفؤادِ فِراعني ... أناسٌ بفيفان فمزتُ القَراينا
فأدرْتُ لا ينجو نجائي نقنقٌ ... يبادرُ فَرْخَيْهِ شمالاً وداجنا
من الحُصّ هزروف يطير عفاؤه ... إذا استدرج الفيفاء مدّ المغابنا
أزَجُّ زَلوجٌ هِزْرِفيٌّ زفازِفٌ ... هِزَفٌّ يبذُّ الناجياتِ الصّوافنا (١)

* * *

هذه المقاييس التي فصلناها تتصل باللفظ المفردة ، وهناك مقاييس للتراكيب في مجموعها منها :

(١) حروف الوصل والربط :

يجب أن تتجنب إعادة حرف الصلات والرباطات في موضع واحد . فمن المعيب أن يكتب مثل قول القائل : « منه له عليه » أو « عليه فيه » ، أو « به له منه » . وأخفها « له عليه » . وسبيله أن تداويه حتى تزيله بأن تفصل

---

(١) العوض : قبيلة من العرب (بالضاد او بالصاد) . وعصافير الرأس : في مقدمة الدماغ . عواينا : بمعنى الاستضعاف . الفيفان : موضع بالبادية . والقراين : جبال معروفة مقترنة ، ويروي البيت :
وحثحثت مشغوف النجاء وراعني ... أناس بقيعان فمرت القراينا
النقنق : الظليم ، وهو ذكر النعام . الحص : شدة العدو . الهزروف: اسم الظليم ، العفاء : الغبار ، الفيفاء : المفازة التي لا ماء فيها مع الاستواء والسعة ، المغابن : بواطن الافخاذ عند الحوالب . الأزج : المسرع في مشيته ، ومثله الزلوج . الهزراف : الخفيف السريع . الهزف : الجافي من الظلمان ، أو الطويل الريش . البذ : السبق .

ما بين الحرفين مثل أن تقول : « أقمت به شهيداً عليه » . ولا يعرف العسكري أحداً كان يتبع العيوب فيأتيها غير مكترث إلاّ المتنبي ، فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ، حتى تخطى هذا النوع قال :

ويسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

فأتى من الاستكراه بما لا يطار غرابه[1] .

(٢) موسيقى الألفاظ :

وإذا كان العسكري من المولعين الولوع كله بالصناعة فقد أدى به هذا الولوع إلى أن يجهد نفسه فيخترع بعض المحسنات البديعية ، وليس يعنينا هنا الآن إلاّ أن نسجل أن العسكري يجعل هذه الصناعة مقياسه في الحكم على الكلام بالجودة . ونشير هنا إلى مقياس جديد جعل له العسكري من الاعتبار ما يفوق كل تقدير ، وذلك هو « الازدواج » الذي عقد له باباً مستقلاً عن صنوف البديع ، ورأى أن منثور الكلام لا يحسن ولا يحلو ، حتى يكون مزدوجاً ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما خلا من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن ، لأنه في نظمه خارج عن كلام الخلق ، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات ، فضلاً عما تزاوج من الفواصل منه كقول الله تعالى : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » وقوله تعالى « ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه » وأما ما زووج بينه بالفواصل فهو كثير ، مثل قوله تعالى « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر » .

وكذلك السجع له من الاعتبار ما للازدواج . والذي يجعله مقبولاً ويجعل الكلام به ممتازاً يبعد عن التكلف والتعسف ، حتى لا يكون كسجع الكهان

---

(١) الصناعتين ١٥٣ .

الذي ذمه الرسول عليه السلام ؛ لا السجع المطبوع الوارد في الكتاب الكريم وحديث النبي [1] .

واعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع ، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد ، وكثيراً ما يقع ذلك في السجع ، وقلما يسلم إذا طال من استكراه وتنافر .

الكم في الأسلوب :

قوة الكلام بقوة نظمه وتمام رصفه لا بكثرة لفظه ، والمعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهي سبيلها أن تؤكد غاية التوكيد ، بجهة كيفية نظم الكلام ، لا بجهة كثرة اللفظ [2] .

ويعد العسكري التوسط من حيث الكم هو الغاية المثلى ، ويرى أن الإكثار يورث الإملال ، وقلما ينجو صاحبه من الزلل والعيب والخطل وعرض لقول إياس لمن نقدوه على إطالته : « الزيادة من الخير خير » فخطأه العسكري « لأن للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال ، وصار سبباً للملال ، فذلك هو الهذر والإسهاب والخطل ، وهو معيب عند كل لبيب » !

وأبو هلال لا يحبذ الاطناب مطلقاً ، ولا الإيجاز مطلقاً ، بل أورد حجة كل من أنصار الفريقين :

---

(١) كتاب الصناعتين ٢٥٠ ـ ٢٥١ ـ ٢٥٢ . هذا وقد ذكر ابو هلال في مقدمة الصناعتين انه جعل السجع والازدواج فصلين ، ولكنهما فيما بين أيدينا فصل واحد أدمج فيه الكلام عليهما معا ، وقد ذكر الثاني قبل الاول .

(٢) الصناعتين ١٤٩ .

قال أصحاب الإيجاز : الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة ، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو يدخل في باب الهذر والخطل ، وهما من أعظم أدواء الكلام ، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة . وفي تفضيل الإيجاز يقول جعفر بن يحيى لكتّابه : « إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا » وقال بعضهم : « الزيادة في الحد نقصان » ، وقال محمد الأمين : « عليكم بالإيجاز فإن له إفهاماً وللإطالة استبهاماً » ، وقال شبيب بن شبة « القليل الكافي خير من كثير غير شاف » ، وقال آخر : إذا طال الكلام عرضت له أسباب التكلف ، ولا خير في شيء يأتي به التكلف . وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال : الإيجاز ، قيل : وما الإيجاز ؟ قال حذف الفضول ، وتقريب البعيد . . .

وقال أصحاب الإطناب : المنطق إنما هو بيان ، والبيان لا يكون إلاّ بالإشباع ، والشفاء لا يقع إلاّ بالإقناع ، وأفضل الكلام أبينه ، وأبينه أشده إحاطة بالمعاني ، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامة إلاّ بالاستقصاء ، والإيجاز للخواص ، والإطناب مشترك فيه الخاصة والعامة ، والغبيّ والفطن والرّيض والمرتاض . . .

وبعد هذا العرض الأدبي الممتع ، يقول الرأي الفصل في هذا الموضوع الذي أعيا العلماء ، وأعجز البلغاء ، وهو أن القول القصد أن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام ، ولكل واحد منهما موضع فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه .

ولم يكن في استطاعة أبي هلال أو غيره أن يقول خيراً مما قال ، ولا أن يستخلص مقياساً عاماً ثابتاً ، أو حداً جامعاً مانعاً . . . فإن ذلك أقرب إلى الاستحالة في هذا الباب ، ذلك أن هذه الأحكام أو تلك المقاييس مبنية على استقراء الأدب ، واستنباط المقاييس منه ، وفي هذا الأدب ، بل في الجيّد

منه وفي عيونه المختارة شواهد من الإطناب ، وأدلة للإيجاز ، وكلها رائق معجب يأخذ بمجامع القلوب ، بل إن القرآن الكريم ، وهو المثل الأعلى للأساليب ، قد نوّع بين طرفي الإيجاز والإطناب .

وهذا الخلاف بين الأدباء في سلوك أحد السبيلين مرجعه إلى العامل النفسي ، وخصائص الشخصية ؛ فالأديب الموجز في طبعه الدقة والتحفظ والحزم ، والأديب المطنب في طبعه سماحة وسلاسة تدفعه إلى التدفق والإغزار ، فابن المقفع مثلاً فيه الحفاظ العقلي ، بسبب الأفكار الدقيقة والثقافة العلمية التي اجتمعت لديه ، ومن هنا كان أسلوبه الموجز الذي يجتزىء بالإشارة الدقيقة واللمحة الدالة ، أما الجاحظ فإن خفة روحه وسلاسة طبعه وسماحة نفسه وعقله ، كل أولئك أطلق العنان لقلمه ، فبسط القول وأطنب في التعبير . وخلاصة القول أن الأسلوب هو الرجل ، ومرجع اختلاف الأساليب هو في الحقيقة اختلاف العقول التي تسلطت على الألسنة والأقلام ! . .

لقد وجد العلماء والبلاغيون أنفسهم بين هذه الآثار الأدبية المتباينة المعجبة ، فلم يستطيعوا أن يقولوا أحسن مما قال أبو هلال : إن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام . . . والحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في موضعه ، ولعلهم في الحقيقة يريدون : حسن من البليغ كل ما يأتي به ! والدليل على ذلك أن يحيى بن خالد بن برمك أمر اثنين أن يكتبا كتاباً في معنى واحد ، فأطال أحدهما واختصر الآخر ، فقال للمختصر وقد نظر في كتابه : ما أرى موضع مزيد ، وقال للمطيل : ما أرى موضع نقصان !

وقد ألحق بالبحث بحث يتصل بالأدب ، وهو ذكر المواضع التي يحسن فيها الإطناب . . .

(١) في الكتب والرسائل الديوانية : فلا شك أن الكتب الصادرة عن

السلاطين في الأمور الجسيمة والفتوح الجليلة وتفخيم النعم الحادثة والترغيب في الطاعة والنهي عن المعصية ، سبيلها أن تكون مشبعة مستقصاة تملأ الصدور ، وتأخذ بمجامع القلوب .

(٢) في المواعظ : كقول الله تعالى (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون (فتكرير ما كرر هاهنا في غاية الله حسن الموقع .

(٣) في خطب الصلح بين العشائر .

(٤) في إنشاد الشعر في مديح الملوك .

* * *

نستطيع بعد ذلك أن نجمل المقاييس التي وضعها أبو هلال للألفاظ المفردة وللتراكيب فيما يأتي :

(١) المختار من الكلام ما كان سهلاً جزلاً لا يشوبه شيء من الكلام الحوشي ولا ينحدر إلى لغة العامة .

(٢) ينبغي البعد عن كل ما يستبهم به المعنى ، وأن تكون الألفاظ نصاً في الدلالة على المعنى المراد ، وأن تتجنب الألفاظ المشتركة التي تتحمل المعنى وغيره .

(٣) تخير الألفاظ وتنقيحها وإبدال بعضها من بعض حتى يلتئم الكلام ضرورة لا بد أن يحفل بها الأديب المجيد ، ومن علامات إجادته أن تكون الألفاظ من حروف سهلة المخارج .

(٤) ذكر الأسماء البغيضة في الشعر تفسده ، وإن كان جيداً ، وقد أنشد جرير بعض ملوك بني أمية :

وتقول بوزع قد دببّت على العصا هلا هزئت بغـيرنـا يا بوزع ؟

فقال له الملك : أفسدتها ببوزع ، وقد يستهجن هذا في غير الشعر ، بل هو مستهجن في لغة التخاطب .

(٥) يقبح الكلام بتكرار اللفظ الواحد في كلام قصير .

(٦) ينبغي ألاّ يعدل الأديب عن جهة الاستعمال ، لأن الخروج عن الطريقة المسلوكة والنهج المعروف رديء على كل حال ، وقد ضرب مثلاً لهذا الخروج بما يأتي :

(أ) من الألفاظ ما يستعمل رباعية وخماسية دون ثلاثية ، ومنها ما هو بخلاف ذلك . فيجب ألاّ يعدل عن وجه الاستعمال ولا يغر الأديب أن أصولها مستعملة . ومن ذلك أن الناس يستعملون لفظ « التعاطي » فيكون منهم مقبولاً ، ولو استعملوا « العطو » وهو أصل الكلمة وهو ثلاثي ، والثلاثي أكثر استعمالاً ، لما كان مقبولاً ولا حسناً . ولهذا المقياس الذي رآه أبو هلال أثر سيء في تضييق نطاق اللغة ، ذلك أن الألفاظ محدودة والمعاني غير محدودة ، ويجيء العسكري فيزيدها تحديداً وتضييقاً ، ولا يخفى أن الكلمات تتفاوت معانيها بالزيادة ، وإن كانت أصولها واحدة .

(ب) ومن الألفاظ ما إذا وقع نكرة قبح موضعه ، وحسن إذا وقع معرفة ، فلو خولف وجه الاستعمال في ذلك ، فاستعمل النكرة في مقام المعرفة أو المعرفة مكان النكرة ، قبح ذلك وفسد به الكلام كقول بعضهم :

لمـا التقينـا صاحَ بينٌ بيننا يُدني من القربِ البعادَ لحاقا

فقوله « صاح بين بيننا » متكلف جداً . ولو قال « البين » كان أقرب على أن البيت كله رديء ، وليس من وصف البلغاء .

ونحن نرى في هذا المقياس تضييقاً لا معنى له . واللفظ إذا كان من

حروف سهلة المخارج لان على اللسان ، وحسن في السمع ، وعد في ذاته فصيحاً .

وإنما ينبغي أن ينظر في تقدير اللفظ بعد ذلك إلى موضعه من التركيب الذي يبين فيه استساغته ، أو تنافره وقلقه . واللفظ قد يحسن في موضع ، ويقبح في موضع ، بحسب مكانه من التركيب . ولقد عقد عبد القاهر فصلاً في هذا الموضوع في كتابه « دلائل الإعجاز » يقول فيه : إن الكلمة تروق وتؤنس في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر ، فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلما بأعيانها، ثم ترى هذا قد فرع السماك ، وترى ذلك قد لصق بالحضيض . فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذاك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم ، لما اختلفت بها الحال ، ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً (١) .

فإن يكن في نظم هذا البيت الذي استشهد به العسكري قبح ،فإن هذا القبح لم يأت من سبيل تنكير كلمة « البين » وإنما جاء من مجاورتها لكلمة « بيننا » فحدث هذا التنافر الملحوظ في البيت من كلمتين اتفقت أكثر حروفهما في مخرجها من اللسان .

(٧) يجب أن يوضع كل لفظ موضعه ، وأن ترتب الألفاظ ترتيباً صحيحاً ، فيقدم منها ما يحسن تقديمه ؛ ويؤخر ما يحسن تأخيره ، ولا يقدم منها ما يكون التأخير به أحسن ، ولا يؤخر منها ما يكون التقديم به أليق فمما أفسده سوء ترتيب ألفاظه قول بعضهم :

---

(١) دلائل الإعجاز ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

يضحك منها كل عضو لها من بهجة العيش وحسن القوام

ترفل في الدار لهـــا وفرة كوفرة الملط الخليع الغلام

كان ينبغي أن يقول « كوفرة الغلام الملط الخليع » أو « الغلام الخليع الملط » فأما تقديم الصفة على الموصوف فرديء في صنعة الكلام .

(٨) الكلام الجيد ما اجتنب فيه ارتكاب الضرورات ، وإن جاءت فيها رخص من أهل العربية فإنها قبيحة . . . وإن كان القدماء قد وقعوا في شيء منها فذلك لعدم علمهم بقباحتها ، أو بسبب الارتجال لأن بعضهم كان صاحب بداهة والبداهة مزلة ، ولأن أشعارهم لم يتعرض لها النقاد كثيراً ، ولو قد نقدت وبهرج منها المعيب كما تنقد على شعراء هذه الأزمنة وبهرج من كلامهم ما فيه أدنى عيب لتجنبوها .

(٩) الشاذ ليس للمحدث أن يقيس عليه ، ولا أن يتخذ منه حجّة ، فإنه لا يعذر في شيء منه ، لاجتماع الناس اليوم على مجانبة أمثاله ، واستجادة ما يصح من الكلام ، واسترذال ما يشكل ويستبهم .

المعاني

العسكري من أوائل النقاد الذين فطنوا إلى التجديد والتقليد ، وفرقوا بين الابتداع والاتباع ، فقسم المعاني قسمين :

١ — ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه ، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها .

وقد يعرض هذا الضرب للشاعر عند الخطوب الحادثة ، ويتنبه له عند

الأمور النازلة الطارئة . . . وأبو هلال يتنبه هنا إلى العامل النفسي ، وأثر الانفعال في ابتكار المعاني ، وتلك لفتة طيبة سابقة نسجلها للرجل .

٢ ــ أما الضرب الآخر التقليدي ، فهو الذي يحتذى على مثال سبق ورسم فرط .

وهو لا يتنكر لأحد الضربين ، بل يضع مقياساً لاستحسان كل منهما ، وهو اشتراط الإجادة فيهما ، والإصابة في توخي الصورة المقبولة والعبارة المستحسنة ولا يتكل المبتكر فيما يبتكر على فضيلة الابتكار ، ولا يغرنه أنه مبتدع وفي هذا إشارة إلى ضرورة لزوم الصناعة في الصياغة ، والتأنق في اختيار الألفاظ والأساليب ، ليوافق مذهبه الذي فرط .

الغلو :

لا ينكر العسكري الغلو ، بل يرضاه ويستحسنه ، مجاراة لأستاذه قدامة ابن جعفر الذي يجعل الغلو من نعوت المعاني ، ويفضله على الاقتصار على الحد الوسط ، ويعد الغلو أجود المذهبين ، وقدامة أيضاً يتابع أرسطو في هذا الرأي وقد مثل العسكري للغلوّ في المعاني بقول الطمحان مولى بن أبي السمط :

فتىً لا يبـالي المدجونَ بنُورِهِ إلى ما به ألا تضيء الكواكبُ
لهُ حاجبٌ عن كلّ أمرٍ يشينُهُ وليسَ له عن طالب العُرْف حاجبُ

وردد قول القدامى : أمدح بيت قالته العرب قول الأعشى :

فتىً لو ينادي الشمسَ ألقتْ قِناعِها أو القمرَ السّاري لألقىَ المقالدا

قال : وهذا وقول أبي الطمحان من الغلو ، والغلو عند بعضهم مذموم وليس كذلك ! ولو كان مذموماً لما جعلوا هذين البيتين من أمدح ما قالت

العرب ،وهما من الغلو على ما هما عليه.وفي هذا التعليل ما يدل على أن أبا هلال من النقاد المقلدين . فإنه لم يسق دليلاً واحداً على ما يجعل هذا الغلو مقبولاً ، وإنما قصر دفاعه عما رأى من الغلو بأن النقاد القدماء قد استحسنوه ولم يعيبوه.
ومن الغلو قول طريح بن إسماعيل :

أنتَ ابنُ مسلنطحِ البطاحِ ولمْ ... يضربْ عليكَ الحنيُ والولجُ
لو قلتَ للسيل دعْ طريقكَ والـ ... ـموج عليهِ كالهضْبِ يعتلجُ
لارتدَّ أو ساخَ ، أو لكانَ لهُ ... في جانبِ الأرض عنك منعرجُ

وهذا من أعلى الغلو ، لأن السيل لا ترد وجهته هيبة ولا مخافة ، والعرب تقول « أجرأ من السيل » فيهمز ولا يهمز من الجرأة ، وترك الهمزة من الجري ، ويقال في المثل : لا أفعل كذا حتى يرد وجه السيل !

ويعاود الرجل ذوقه الفني الخالص ، فينقد هذا الشعر بأنه ليس مختار اللفظ والرصف ، وأنه إنما أتى به لمكانه من الغلو .

ومن الغلو المشهور المستفيض الذي قبله الناس واستحسنوه ، ورووه بكل لسان قول أبي تمام في المعتصم :

بيُمْنِ أبي إسحاق طالتْ يدُ العلا ... وقامتْ قناةُ الدّين واشتدَّ كاهلُهْ
هو البحرُ من أيّ النواحي أتيتــهُ ... فلُجّتُهُ المعروفُ والجودُ ساحلُهْ
تعوَّد بسطَ الكفّ حتى لو انّــهُ ... أرادَ انقباضاً لم تُطعه أناملُهْ
ولو لم يكنْ في كفّه غيرُ روحِــهِ ... لجـادَ بها فليتّقِ اللهَ سائلُهْ

وقلت في قريب منه :

وكيف يبيتُ الجارُ منك على صدًى وكفُّك بحرٌ لجّةُ البحرِ ساحلُهْ [1]

وتراه لا يوضح في هذا المقام كما رأيت علة استحسانه الغلو بغير استحسان العرب لأمثال هذه النصوص التي أوردها ، وقد سبقه إلى هذا الرأي في تفضيل الغلو قدامة بن جعفر في نقد الشعر [2] بقوله : « إن الغلو عندي أجود المذهبين « الغلو والاقتصار على الحد الوسط » وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً . وقد بلغني عن بعضهم أنه قال : أحسن الشعر أكذبه ، وكذا نرى الفلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم ، فهذا المذهب متأثر بفلسفة اليونان .

ذكر ذلك قدامة في صراحة ، وإن كان لا يصرح في غير هذا المقام باقتفائه أثرهم ، وانتهاجه منهج صاحب « الخطابة » و « الشعر » .

وقد نبّه العسكري إلى أن من الناس من يكره الإفراط الشديد ويعيبه ويذكر الوسيلة التي تجعل الغلو مقبولاً . وهي أن يتحرز المبالغ ، ويستظهر فيورد شرطاً ، أو يجيء بلفظ « يكاد » وما يجري مجراها ، فبذلك يسلم من العيب مثل قول الأول :

لو كنتَ من شيء سوى بَشَرٍ كنتَ المنوَّرَ ليلـــةَ البَدْرِ

ومن عيوب الغلو أن يخرج فيه إلى المحال ، ويشوبه بسوء الاستعارة ، وقبيح العبارة كقول أبي نواس .

توهّمْتها في كـــأسِها فكأنّني توهّمتُ شيئاً ليسَ يُدركُ بالعقلِ

---

(١) ديوان المعاني ٤٢ .
(٢) نقد الشعر ٥٥ .

وصفراءَ أبقى الدهرُ مكنونَ روحها وقد ماتَ من مخبورها جوهرُ الكلّ

فما يرتقي التكييفُ منها إلى مدًى تحــدّ به إلاّ ومن قبْله قبلِ

فجعلها لا تدرك بالعقل ، وجعلها لا أول لها ، وقوله جوهر الكل والتكييف في غاية التكلف ونهاية التعسف ، ومثل هذا من الكلام مردود ، لا يشتغل بالاحتجاج عنه له ، والتحسين لأمره ، وهو يترك التداول أولى . إلاّ على وجه التعجب منه ومن قائله [1] .

الوحدة :

مقياس الشعر عند العسكري هو وحده وحدة البيت ، لا وحدة القصيدة ، فقد عد احتياج البيت إلى ما بعده ليكمل معناه عيباً من العيوب التي ينبغي أن يتجنبها الشاعر ، وسماه « التضمين » .

وقد سبقه قدامة فسمّى هذا العيب « المبتور » . قــال أبو هلال : « والتضمين أن يكون الفصل الأول مفتقراً إلى الفصل الثاني ، والبيت الأول محتاجاً إلى الأخير ، كقول الشاعر :

كأنّ القلب ليلةَ قيل يغدَى بليلى العامريّة أو يُراحُ

قطاةٌ غرَها شركٌ فبــاتَتْ تجاذبه وقــد علَقَ الجناحُ

فلم يتم المعنى في البيت الأول ، حتى أتمه في البيت الثاني ، وهو قبيح ومثاله من النثر قول بعضهم : « وجعل سيدنا آخذاً بكل ما دعى ويدعى به من الأعياد بأجزل الأقسام ، وأوفر الأعداد » .

ولست أرى علة العيب عند العسكري وغيره ، لأن احتياج بعض الكلام إلى بعض لا عيب فيه ، ما لم يكن بينهما بعد ينسى علاقة الكلام بعضه ببعض

(١) الصناعتين ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

والقول الصواب ما قال ابن الأثير : لأنه إن كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثاني فليس ذلك بسبب يوجب عيباً، إذ لا فرق بين البيتين من الشعر في تعلق أحدهما بالآخر ، وبين الفقرتين من الكلام المنثور في تعلق إحداهما بالأخرى ، لأن الشعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى ، والكلام المسجوع هو لفظ مقفى دل على معنى ، فالفرق بينهما يقع في الوزن لا غير ، والفقر المسجوعة التي يرتبط بعضها ببعض قد وردت في القرآن الكريم في مواضع منه ، فمن ذلك قوله عز وجل في سورة الصافات « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إني كان لي قرين . يقول أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون » فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض ، فلا تفهم واحدة منهن إلاّ بالتي تليها . وهذا كالأبيات الشعرية في ارتباط بعضها ببعض ، ولو كان عيباً لما ورد في كتاب الله عز وجل، ومما ورد من ذلك شعراً قول بعضهم :

ومن البلْوى التي ليـ ... سَ لها في الناس كنْهُ
أنّ من يعرفُ شيئاً ... يدّعي أكثر منهُ

وقد استعملته العرب كثيراً ، وورد في شعر فحول شعرائهم ، فمن ذلك قول امرىء القيس :

فقلتُ لـــهُ لمّا تمطّى بصُلْبـــهِ ... وأردفَ أعجـــازاً وناءَ بكلكلِ
ألا أيهـــا اللّيلُ الطويلُ ألا انجلِ ... بصبحٍ وما الإصباح منك بأمثلِ [1]

صحة المعاني :

رأينا فيما سبق أن أبا هلال لا يتطلب في المعنى إلاّ أن يكون صواباً ،

---

(١) المثل السائر ٥٨ ، ٥٩ .

ولكنه لم يضع مقياساً صحيحاً واضحاً يستطيع به الناقد أن يحكم على المعنى بالخطأ أو الصواب من الناحية البلاغية ، فيكون هذا المعنى صواباً لأنه وافق هذه القاعدة أو خضع لمقياس بعينه ، أو يحكم عليه بالخطأ لأنه خالف القاعدة المصطلح عليها ؛ ولكنه على الرغم من ذلك ألّف باباً طويلاً في التنبيه على خطأ المعاني وصوابها ، ليتبعه من يريد العمل برسمه مواقع الصواب فيرتسمها ، ويقف على مواقع الخطأ فيجتنبها . وفي هذا الباب قد يكون من الممكن العثور على بعض أسباب الخطأ في المعاني ، ومنها أن يكون الأديب فيما أتى به كاذباً ، وإن كان كلامه مستقيم النظم مثل قول القائل : حملت الجبل وشربت ماء البحر . ومنها أن يعمد الأديب إلى المحال فيصوره ببيانه ، كقوله : آتيك أمس ، وأتيتك غداً ، وكل محال فاسد ، ومنها أن يطلق الشيء على غير ما هو له ، ومن ذلك قول الراعي :

يكسُو المفارقَ واللبّاتِ ذا أرَجٍ من قصْب معتلفِ الكافورِ درّاجِ

أراد المسك ، فجعله من قصب الظبي ، والقصب : المعي ، وجعل الظبي يعتلف الكافور ، فيتولد منه المسك ، وهذا من طرائف الغلط ! وقريب منه قول زهير :

يخرجنَ من شرباتٍ ماؤها طَحِلٌ على الجذوعِ يخفْن الغمر والغرقا [1]

ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة الغرق !

والذي يبدو أن الخطأ في هذين المثالين آت من عدم المعرفة بخصائص المسك في البيت ، أو أن الشاعر جهل أن المسك بعض دم الغزال ، وجهل زهير في البيت الثاني أن الضفادع التي تحيا في الماء تغرق فيه كما زعم !

---

(١) الشربات جمع شربة ، وهي حوض صغير يتخذ حول أصل النخلة فيرويها ، والطحل : الكدر ، ويريد بالجذوع جذوع النخل . قال المرزباني : والضفادع لا تخرج من الماء ، لخوفها من الغمر والغرق ، وانما تطلب الشطوط لتبيض هناك وتفرخ .

ولقد أصاب أبو هلال في هذا النقد لأنه في الحقيقة يريد للأديب أن يكون واسع الثقافة والمعرفة ، أو في المعنى الذي يتعرض له في الأقل ، حتى قيل في حد الأدب إنه الأخذ من كل فن بطرف .

وعليه أيضاً أن يعرف طبائع النفوس وما تحب وما تكره ، حتى لا يجيء بما يخالف هذه الطباع زعماً منه أن ذلك هو المألوف ، فيرمى بالغفلة والجهالة ، لقد أخطأ الأعشى حين قال في حبيبته :

وما رَابَهَا من ريبةٍ غيرَ أنّها رَأتْ لِمّتي شابتْ وشابتْ لداتيا

فأي ريبة عند امرأة أعظم من الشيب ؟ ومثله قوله :

وأنكرتْني وما كان الذي نكرتْ من الحوادث إلاّ الشّيبَ والصّلعا

وأعجب منه قوله أيضاً :

صدّتْ هُرَيْرَةُ عنّا ما تكلمنا جهلاً بأمّ خُلَيْدٍ حبل مَن تصلُ

أأنْ رأتْ رجلاً أعشى أضرَّ به ريبُ الزمان ودهرٌ خاتل خَبلُ

فأي شيء أبغض عند النساء من العشا والضرّ يتبيننّه في الرجل ؟ وأعجب ما في هذا الكلام أنه قال : حبل من تصل هذه المرأة بعدي ، وأنا بهذه الصفة من العشا والفقر والشيب ؟

أما أبو هلال فإنه يحذر من مغالطة النفس ، فلا تقع فيما وقع فيه الأعشى حين يقول :

فلا تعجبا أنْ يعبْنَ المشيب فما عينَ من ذاكَ إلاّ مَعيبا

إذا كانَ شَيْبي بغيضاً إليّ فكيفَ يكونُ إليها حبيبا ؟

ومن عيوب المعاني أيضاً أن يقع الأديب في « الاستحالة والتناقض » ،

بالجمع بين المتقابلين ، اللذين يستحيل اجتماعهما ، فيزيد بن مالك العامري في قوله .

أكفّ الجهل عن حلماءِ قَومي وأُعرِضُ عنْ كلامِ الجاهلينا

يخبر أنه يحلم عن الجهال ولا يعاقبهم ، ثم ينقض ذلك في البيت الثاني حيث يقول :

إذا رجلٌ تعرَّضَ مُسْتخِفاً لنا بالجهلِ أوشكَ أنْ يحينا

فذكر أنه كاد أن يفتك بمن جهل عليه ، وهكذا ناقض الشاعرُ نفسه فوقع في الخطأ . وقريب من هذا قول عبد الرحمن بن عبيد الله القس :

أرى هجرَها والقتلَ مثلَين فاقصروا مَلامَكم فالقتل أعْفَى وأيْسَرُ

فأوجب أن الهجر والقتل سواء . . . ثم ذكر أن القتل أعفى وأيسر ، ولو أتى بلفظ « بل » استوى وسلم من الاستحالة والتناقض . وأبو هلال في وصفه العامري والقس بالخطأ في وقوعهما في الاستحالة والتناقض يتابع قدامة الذي تكلم في الاستحالة والتناقض كلاماً شافياً ، وعقد لهذا الكلام فصلاً خاصاً من فصول نقد الشعر .

وأنت تستطيع أن ترى أثر النقل واضحاً إذا قرأت كلام قدامة الذي يقول فيه : ومما جاء في الشعر من التناقض على طريق الإيجاب والسلب قول عبد الرحمن القس « أرى هجرها . . . البيت » فأوجب هذا الشاعر الهجر والقتل أنهما مثلان ، ثم سلبهما ذلك بقوله : إن القتل أعفى وأيسر ، فكأنه قال : إن القتل مثل الهجر وليس هو مثله . قال قدامة : وأرى أن هذا الشاعر أراد أن يقول : بل القتل أعفى وأيسر ، ولو قال « بل » لكان الشعر مستقيماً ، لأن مقام لفظة « بل » مقام ما ينفي الماضي ويثبت المستأنف ، لكنه لما لم يقلها وأتى بجمع الإثبات ونفيه استحال شعره . . . وأرى أن مما يجري هذا المجرى

قول يزيد بن مالك الغامدي حيث يقول « أكف الجهل . . . البيت » ثم قال في هذه القصيدة « إذا رجل . . . البيت » فقد أوجب الشاعر في البيت الأول لنفسه الحلم والإعراض عن الجهال ، ونفي ذلك بعينه في البيت الثاني بتعديه في معاقبة الجاهل إلى أقصى مراتب العقوبات وهو القتل[1] . . .

معاني الشعر

وضع العسكري بعد كل أولئك مقياساً لكل فن من فنون الشعر بأسلوبه التعليمي الذي أوضحناه فيما سبق متأثراً إلى حد كبير بمقاييس قدامة ، ونجمل تلك المقاييس فيما يأتي :

(١) فن المديح :

ينبغي ألاّ يعدل المادح عن الفضائل التي تختص بالنفس من العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحسن والبهاء والزينة ، كما قال ابن قيس الرقيات في عبد الملك بن مروان :

يأتلقُ التاجُ فوقَ مفرقِهِ على جَبينٍ كأنه الذهبُ

فغضب عبد الملك وقال : لقد قلت في مصعب :

إنما مُصعبٌ شهابٌ من الله تجلّتْ عن وجهه الظلماءُ

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم ، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه ، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة .

ومثل ذلك قول أيمن بن خريم في بشر بن مروان :

---

(١) نقد الشعر ١٣٠ ــ طبعة ليدن .

يابن الأكارم من قريش كلّها وابن الخلائف وابن كلّ قلَمّس[1]

من فرع آدم كابراً عن كابر حتى أتيت إلى أبيك العَنْبَسِ

مروان إن قناته خطية غرست أرومتها أعز المغرسِ

وبنيت عند مقام ربّك قبة خضراء كلل تاجها بالفِسفِسِ[2]

فسماؤها ذهب وأسفل أرضها وَرِق تلألأ في صميم الحندسِ

فما في هذه الأبيات شيء يتعلق بالمدح الذي يختص بالنفس ، وإنما ذكر سؤدد الآباء ، وفيه فخر للأبناء ، ولكن ليس العظامي كالعصامي ، وربما كان سؤدد الوالد وفضيلته نقيصة للولد إذا تأخر عن رتبة الوالد الفاضل ، ويكون ذكر الوالد الفاضل تقريعاً للولد الناقص . وقيل لبعضهم : لم لا تكون كأبيك ؟ فقال ليت أبي لم يكن ذا فضل ، فإن فضله صار نقصا لي .

ثم ذكر أيمن بناء قبة حسنة ، وليس بناء القباب مما يدل على جود وكرم ، بل يجوز أن يبني اللئيم البخيل الأبنية النفيسة ، ويتوسع في النفقة على الدور الحسنة مع منع الحق ورد السائل ، وليس اليسار مما يمدح به مدحاً حقيقياً ، ألا ترى كيف يقول أشجع السلمي .

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعون كما يصنع

وليس بأوسعهم في الغنى ولكن معروفه أوسع

ومن عيوب المديح قول أيمن بن خريم أيضاً في بشر بن مروان :

فإن أعطاكَ بشر ألف ألف رأى حقاً عليه أن يزيدا

---

(١) يقال عز قلمس اذا كان قديما عريقا .

(٢) الفسفس : الفضة الرطبة والفسيفساء قطع صغيرة ملونة من الرخام وغيره يؤلف بعضهم الى بعض .

وأعقب مدحتي سرجاً خلنجا [1] وأبيض جوزجانياً عنودا
وإنا قد رأينا أم بشر كأم الأسد مذكاراً ولودا

وجميع هذا الكلام جار على غير الصواب ، إلاّ في ابتداء وصفه في التناهي في الجود ، ثم انحط إلى ما لا يقع مع الأول موقعاً وهو السرج وغيره . وأتى في البيت الثالث بما هو أقرب إلى الذم منه إلى المدح ، وهو قوله :

وإنا قد رأينا أمّ بشر كأمّ الأسد مذكاراً ولودا

لأن الناس مجمعون على أن نتاج الحيوانات الكريمة أعسر ، وأولادها أقل ، كما قال الأول :

بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلات نزور

وتلك الآراء التي تقرؤها لأبي هلال منقولة بأمثلتها من كلام قدامة في نقد الشعر الذي يجعل أسس معاني المديح إنما هي الفضائل النفسية ، ويقول في ذلك : « إنه لما كانت فضائل الناس من حيث هم ناس لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً ، والمادح بغيرها مخطئاً . أمّا ما مثل به أبو هلال وشرح جهات العيب فيه فإنه منقول كله من كلام قدامة أيضاً [2] .

(٢) فن الهجاء :

ومقياسه أنه إذا لم يسلب الصفات المستحسنة التي تختصها النفس ، ويثبت الصفات المستهجنة التي تختصها أيضاً لم يكن مختاراً ، والاختيار أن ينسب المهجوّ إلى اللؤم والبخل والشره ، وما أشبه ذلك .

---

(١) الخلنج : كل مخطوط بأشكال وألوان .
(٢) انظر نقد الشعر ص ٢٨ وما بعدها ، واقرأ دراسة مفصلة لراي قدامة في نقده وتأثره بالفكر اليوناني في ص ٣١٤ وما بعدها من الطبعة الثانية من كتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبي) .

وليس بالمختار في الهجاء أن ينسبه إلى قبح الوجه وضؤل الجسم ، يدل على ذلك قول القائل :

فقلتُ لها ليسَ الشحوبُ على الفتى بعارٍ ولا خيرُ الرجـــال سمينها

وقول لآخر :

تنـــالُ الخيرَ مِمّنْ تزدَريـــهِ ويخلفُ ظنَّك الرجلُ الطريرُ (١)

وقول الآخر :

رأوهُ فازدروهُ وهو خِرْق وينفعُ أهله الرّجلُ القبيحُ (٢)

وذكر السموأل أن قلة العدد ليست بعيب ، فقال :

تعيّرنـــا أنّا قليلٌ عديدُنا فقلتُ لها إنَّ الكرامَ قليلُ

ومن الهجاء قول بعضهم :

اللؤم أكبرُ من رَبرٍ ووالده واللؤم أكرمُ من وبر وما ولدا
قومٌ إذا ما جنى جانيهم أمِنوا من لؤمِ أحسابهم أن يقتلوا قودا

وقول أعشى باهلة :

بنو تيمٍ قرارة كلِّ لؤمٍ كذاكَ لكلّ سائلةٍ قَرارُ

ولسنا ندري علة استمساك العسكري بهذا المقياس ، ولم لا يوصف المهجو بالعيوب الجسمية ؟ وذلك كثير في الشعر والنثر ، ومنه الحسن المستجاد ! بل هو من الأهاجي الطبيعية المعروفة عند كل الناس من سائر الأجناس من البدو والحضر ، والأميين والعالمين ، والماديات أقرب إلى الذهن من المعنويات ، ولحواس الإنسان أثرها في الاستحسان والاستهجان ، وقديماً قالوا « تسمع بالمعيّدي خير من أن تراه » مخافة أن يقع عليه الطرف فتزدريه النفس ، فالعيب بالقصر المفرط والطول المفرط ، والبياض والسواد ، ودمامة الوجه ..

---

(١) الطرير : و المنظر والرواء .
(٢) الخرق بكسر الخاء : السخي من الرجال الذي يتوسع في العطاء .

من عيوب الجسم الطبيعي قديم ومعروف ، كما أن المدح بأوصاف الجسم من الجمال والبهاء والزينة قديم طبيعي معروف ، وإذا كان الملك استنكر ما استنكر من قول ابن قيس الرقيات ، فلسبب سياسي ، هو أنه سبق أن مدح عدواً من أعدائه ، ولسبب آخر يحذقه العارفون وهو : أنه جعل جمال مصعب هبة طبيعية منحه الله إياها ، فهو « شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء » وجعل بهاء عبد الملك صناعياً ، وعبارة عبد الملك التي لم يوردها صاحب الصناعتين : « يا بن قيس ، تمدحني بالتاج والصولجان ، كأني من ملوك العجم ، وتقول في مصعب . . . »!

ولم يذهب العسكري هذا المذهب إلاّ متابعة لقدامة في رأيه في المديح والهجاء كما مرّ .

(٣) فن الوصف :

أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف ، حتى كأنه يصور الموصوف لك ، فتراه نصب عينك . . . كقول يزيد بن عمر الطائي :

ألا من رأى قومي كأنَّ رجالهم نخيلٌ أتاها عاضدٌ فأمالها [1]

فهذا التشبيه كأنه يصور لك القتلى مصرعين . وقال العتابي في السحاب :

والغيمُ كالثوب في الآفاقِ منتشرٌ من فوقهِ طبقٌ من تحته طبقُ
تظنّه مُصْمتاً لا فتقَ فيه فإنْ سالتْ عزَاليه قلتَ الثوبُ مُنفتِقُ
إن معمعَ الرعدُ فيه قلتَ منخرقٌ أو لألأ البرقُ فيه قلتَ محترقُ [2]

وهو أيضاً مقياس قدامة ، وعبارة قدامة : « ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها ، ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى

---

(١) عضد الشجر من باب ضرب قطعه .
(٢) العزالي جمع عزلاء مصب الماء من الراوية . والمعمعة ـ بوزن المزرعة ـ صوت الحريق في القصب ونحوه .

يحكيه بشعره ، ويمثله بنعته (١) ، وكما استشهد قدامة ببيت الشماخ في وصف النبالة تمثل به أبو هلال كما مرّ بنا .

(٤) التشبيب :

ينبغي أن يكون دالاً على شدة الصبابة وإفراط الوجد ؛ والتهالك في الصبوة . ويكون بريئاً من دلائل الخشونة والجلادة ، وأمارات الإباء والعزة ، ومن أمثلة ذلك — جيد التشبيب — قول أبي الشيص .

وقفَ الهوى بي حيثُ أنت فليس لي ... متأخَّرٌ عنهُ ولا مُتقدَّمُ
أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً ... حُباً لذكرك فليَلُمني اللوَّمُ
أشبهْتِ أعدائي فصرتُ أحبّهم ... إذ كان حظي منك حظي منهمُ
وأهنْتِني فأهنت نفسي صاغراً ... ما مَن يهونُ عليك ممن أكرمُ

فهذا غاية التهالك في الحب ، ونهاية الطاعة للمحبوب .

ويستجاد التشبيب أيضاً إذا تضمن ذكر التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بهبوب الرياح ، ولمع البروق ، وما يجري مجراها من ذكر الديار والآثار ، فمن أجود ما قيل في الديار قول الأزدي :

فلم تدع الأرياحُ والقطرُ والبلى ... من الدّارِ إلاّ ما يشفّ ويشغفُ

وأبو هلال في هذا المقياس ، وقبله قدامة ، مقلدان للأقدمين في بكاء الأطلال والوقوف على الآثار والدّمن ، ولئن صح ذلك في الأطلال الداثرة لقد يمتنع في الحواضر العامرة ، ومثل الرجلين عاش في الحواضر بعيداً عن هذه الظواهر ، وإنما دفعهما إلى التمسك بهذا المقياس تقليد الشعراء الأقدمين ، ومجاراة النقاد السابقين ، قال ابن قتيبة : وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذ كان

(١) نقد الشعر ١١٨ .

نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم عن ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلا ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد ، وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق . . .

وفي ذكر البرق قول الأول :

سرى البرق من نحو الحجازِ فشاقني ... وكلّ حجازيٍّ له البرقُ شائقُ
بدا مثلَ نبضِ العِرْقِ والبعدُ دونه ... وأكنافُ لُبنى دوننا والأسالقُ
نهاري بأشرافِ التّلاعِ موكّلٌ ... وليلي إذا ما جنّني الليلُ آرقُ
فواكبدي ممّا ألاقي منَ الهوى ... إذا حنّ إلفٌ أو تألقَ بارقُ

وكذلك ينبغي أن يكون التشبيب دالاً على الحنين والتحسر ، وشدة الأسف ، كقوله :

وليستْ عشيّاتُ الحمى برواجعٍ ... إليكَ ولكنْ خلّ عينيكَ تدمعا
وأذكرُ أيــامَ الحمى ثمَّ أنثني ... على كبدي من خشية أن تصدّعا

وقول ابن مطير :

وكنتُ أذودُ العين أن ترد البَكا ... فقد ورَدَتْ ما كنتُ عنه أذودُها
خليلي ما في العيشِ عيبٌ لو اننا ... وجدْنا لأيامِ الحمى من يُعيدُها

وهذا يدل على تحسر شديد ، وحنين مفرط .

وينبغي أن يظهر الناسب الرغبة في الحب ، وألاّ يظهر التبرم به كأبي صخر حين يقول :

فيا حبّها زِدْني جوى كل ليلةٍ ... ويا سلوة الأيامِ موعِدكِ الحشْرُ

وقول الآخر :

تشكي المحبّونَ الصبــابَةَ ليتني ... تحمّلت ما يلقَونَ من بينهم وحدي

فكانتْ لنفسي لـــذةُ الحبّ كلّها ولم يلْقها قبلي محبٌّ ولا بعدي

وينبغي أن يكون في النسيب دليل التوله والتحير ، كقول الشاعر :

فواللهُ ما أدري أزيدتْ ملاحةً وحُسناً على النسوان أم ليس لي عقلُ

وقيل لبعضهم : ما بلغ من حبك لفلانة ؟ فقال : إني أرى الشمسَ على حيطانها أحسن منها على حيطان غيرها !

وغاية هذا المقياس هي صدق العبارة عن العاطفة الصادقة ودليلها استسلام المحبين ، ونسيانهم ذواتهم أمام سطوة الحب وغلبته وذلك ما يبدو أكثر وضوحاً في ذلك النحو من الحب الذي يسمى « الحب العذري » .

* * *

ترك أبو هلال من أغراض الشعر المراثي والفخر ، لأنهما داخلان في المديح ، وذلك أن الفخر هو مدحك نفسك بالطهارة والعفاف والحلم والعلم والحسب ، وما يجري مجرى ذلك .

والمرثية مديح الميت ، والفرق بينها وبين المديح أن تقول : كان كذا وكذا وتقول في المديح : هو كذا ، وأنت كذا . فينبغي أن يتوخى في المرثية ما يتوخى في المديح .

إلاّ أنك إذا أردت أن تذكر الميت بالجود والشجاعة تقول : « مات الجود » و « هلكت الشجاعة » ؛ ولا تقول : « كان فلان جواداً وشجاعاً » ، فإن ذلك بارد غير مستحسن . وما كان الميت يكدّه في حياته فلا ينبغي أن يذكر أنه يبكى عليه مثل الخيل والإبل ، وما يجري مجراها ، وإنما يذكر اغتباطها بموته ، بل يوصف بالبكاء عليه من كان يحسن في حياته إليه ، كما قال الغنوي :

ليبككَ شيخٌ لم يجدْ من يعينُـــه وطاوي الحشا نائي المحلّ غريب

وهكذا يرسم العسكري أصولاً ، ويضع مقاييس لمعاني الشعر بأسلوبه

التعليمي الذي أوضحناه في الفصل الماضي .

* * *

أما النثر فقد أوضح أبو هلال أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة . وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل ، ولا فرق بينهما إلاّ أن الخطبة يشافه بها ، والرسالة يكتب بها ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة ، ولا يتهيأ مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه وإحالته إلى الرسائل إلاّ بكلفة ، وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعراً إلاّ بمشقة .

كما تحدث عن مجالات الشعر ومجالات النثر ووجوه الاختلاف بينهما :

فالخطابة والكتابـــة مختصان بأمر الدين والسلطان ، وليس للشعر بهما اختصاص . أما الكتابة فعليها مدار السلطان ، والخطابة لها الحظ الأوفر في أمر الدين ، لأن الخطبة شطر الصلاة التي هي عماد الدين في الأعياد والجمع والجماعات ، وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهد بها الإمام رعيته ، لئلاّ تدرس من قلوبهم آثار ما أنزل الله عزّ وجلّ من ذلك في كتابه ، إلى غير ذلك من منافع الخطب . ولا يقع الشعر في شيء من هذه الأشياء موقعاً ، ولكن له مواضع لا ينجع فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها ، وأكثر الشعر قد بني على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة ، والنعوت الخارجة عن العادات والألفاظ الكاذبة من قذف المحصنة وشهادة الزور وقول البهتان لا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفحله ، وليس يراد منه إلاّ حسن اللفظ وجودة المعنى ، هذا هو الذي سوّغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه .

وقيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب في شعره ، فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يراد من الأنبياء !

والشعر يفضل النثر بطول بقائه على أفواه الرواة ، وامتداد الزمان الطويل

به ، وذلك لارتباط بعض أجزائه ببعض . وكذلك استفاضته في الناس ، وبعد سيره في الآفاق ، وليس شيء أسير من الشعر الجيد ، وهو في ذلك نظير الأمثال.

وقد خصص أبو هلال فصلاً من الصناعتين لما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله في مكاتباته .

فأول ما ينبغي أن تستعمله في كتابك مكاتبة كل فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق ، والشاهد عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم مما يمكن ترجمته ، فسهل الألفاظ غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية ؛ ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخّم اللفظ ، لما عرف من فضل قوتهم على فهمه ، وعادتهم لسماع مثله .

* * *

أما معاني الأدب من حيث الحقيقة والخيال فإن العسكري تكلم فيها ، وعالجها أيضاً علاجاً شافياً ، فعقد باباً للتشبيه ، وآخر للاستعارة ، وثالثاً للكناية ، وجعل لكل منها مقياساً للجودة والاستحسان ، وكلها تتصل بناحية الخيال .

وجعل العسكري أبلغ التشبيه وأجوده ما يقع على أربعة أوجه :

(١) أحدها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه،وهو قول الله عز وجل : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء » فأخرج ما لا يحس إلى ما يحس . والمعنى الذي يجمعهما بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة .

(٢) والوجه الآخر : إخراج ما لم تجربه العادة ما جرت به العادة كقوله تعالى : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلّة » والمعنى الجامع بين المشبه والمشبه به الانتفاع بالصورة .

(٣) والوجه الثالث : إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها فمن ذلك قوله عز وجل : « وجَنّة عرضها السموات والأرض » فقد خرج

ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها ، والجامع بين الأمرين العظم ، والفائدة فيه التشويق إلى الجنة بحسن الصفة .

(٤) والوجه الرابع : إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ماله قوة فيها ، كقوله عز وجل : « وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام » والجامع بين الأمرين العظم. والفائدة البيان عن القدرة في تسخير الأجسام العظام في أعظم ما يكون من الماء .

ثم ذكر بعد هذه الوجوه المستحسنة التشبيه الجيد ، وهو التشبيه التقليدي كما فعل المبرد ، فقال : وأما الطريقة المسلوكة في التشبيه والنهج القاصد في التمثيل عند القدماء والمحدثين فتشبيه الجواد بالبحر والمطر ، والشجاع بالأسد ، والحسن بالشمس والقمر ، والسهم الماضي بالسيف ، والعالي الرتبة بالنجم ، والحليم الرزين بالجبل ، والحييّ بالبكر ، والفائت بالحلم ، ثم تشبيه اللئيم بالكلب ، والجبان بالصفرد ، والطائش بالفراش ، والذليل بالنقد والنعل والفقع والوتد ، والماضي بالحديد والصخر ، والبليد بالجماد[1] .

ويقبح التشبيه لعدة أمور :

(١) إخراج الظاهر إلى الخافي .

(٢) إخراج المكشوف إلى المستور .

(٣) إخراج الكبير إلى الصغير .

وينبغي أن يكون المشبهان قريبين في الجنس ، أما التشبيه البعيد فرديء مردود في رأي أبي هلال ، فمن رديء التشبيه قول لبيد :

فمتى ينقع صراخٌ صادقٌ يحلبوها ذاتَ جرسٍ وزَجَلْ
فخمةٌ دَفراءُ تُرْتي بالعرا قُرْدُمانيّاً وتَرْكاً كالبصل[2]

---

(١) الصناعتين ٢٢٩ .

(٢) ينقع من نقع الصارخ بصوته اذا رفعه أو تابعه وأدامه . يحلبونها من أحلبوا الحرب اذا جمعوا لها متى سمعوا صراخا . الزجل : الجلبة ورفع الصوت . الدفراء : النتنة . ترتي من الرتو وهو الشد ، القردمانية : الدرع الغليظة . الترك : جمع تركة بيضة الحديد .

فشبه البيضة بالبصل ، وهو بعيد ، وإن كانا يتشابهان من جهة الاستدارة ، لبعد ما بينهما في الجنس .

والخلاصة أن مقياس الحسن في التشبيه كثرته وتركيبه . ومقياس القبح فيه الخفاء وعدم الملاءمة بين الطرفين ، كأن تشبه الظاهر بالخفي ، والمكشوف بالمستور والكبير بالصغير .

أما الاستعارة فهي عند العسكري أعلى ضروب البيان ، وهي تفضل الحقيقة بأن فيها شرح المعنى ، وفضل الإبانة عنه ، أو توكيده والمبالغة فيه ، والإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو بحسن المعرض الذي يبرز فيه .

وهذه الأوصاف كلها موجودة في « الاستعارة المصيبة » ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمن الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالاً .

ولم يحدد العسكري معنى الاستعارة المصيبة ، ولكن هذه الأوصاف تشير إلى المعنى ، فهي التي تحقق الأغراض المذكورة آنفاً .

ولكنه عاب الاستعارة البعيدة ، والاستعارة البعيدة ما بعد فيها المستعار عن المستعار له كقول أحد شعراء بني عبد القيس :

ولما رأيتُ الدهرَ وعراً سبيلهُ وأبدى لنا ظهراً أجبَّ مسلّعا
ومعرفة حصّاءَ غيرَ مُفاضة عليه ولوناً ذا عثانينَ أنزَعا
وجبهةَ قردٍ كالشراك ضئيلةً وصعّرَ خدّيهِ وأنفاً مجدّعا

ولا يعرف أبو هلال متى رأى هذا للدهر جبهة كالشراك مع هذا الذي عدده ، فجاء بما يضحك الثكلى [1] .

---

(١) قال الآمدي في الموازنة (١١٨) : ان هذا الاعرابي جعل للدهر ظهرا =

ومن الاستعارة الرديئة قول الأخطل :

إكسيرُ هذا الخلقِ يلقى واحد منه على ألفٍ فيكرم خيمهُ

وقول أبي تمام « حتى اتقته بكيمياء السؤدد » .

فلا ترى شيئاً أبعد من « إكسير الخلق » و « كيمياء السؤدد » . وقد أكثر أبو تمام من هذا الجنس ، اغتراراً بما سبق منه في كلام القدماء ، وأسرف فنعى عليه ذلك ، وعيب به ، وتلك عاقبة الإسراف [1] .

وقول العسكري في الاستعارة المصيبة لعله هو الذي أخذه الشيخ عبد القاهر فيما بعد ، ففصل القول ، وقسم الاستعارة إلى استعارة مفيدة ، واستعارة غير مفيدة وبين مزايا الأولى وعيوب الأخرى ، ويكاد كلامه في الاستعارة المفيدة يطابق كلام العسكري في الاستعارة المصيبة ، فهي عنده « ما بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعاني وغرض من الأغراض . لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل ذلك [2] .

السرقات

ومما يتصل بالمعاني وتقسيمه إياها إلى مبتكرة ومقلدة ، ذلك الباب الذي

= أجب ومعرفة حصاء ولونا ذا عثانين ، وشبه جبهتـه بجبهة قـرد ، وجعل أنفه مجدعا . . . ومثل هذا في كلامهم قليل جدا ليس مما يعتمد ويجعل أصلا يحتذى عليه ويستكثر منه .
أجب مسلع : الأجب الغليظ والمسلع الجبل ذو الشقوق . معرفـة حصاء : المعرفة كمرحلة موضع العرف من الفرس ، والحصاء قليلة الشعر . عثانين جمع عثنون، اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين. والأنزع : ذو النزع وهو انحسار الشعر من جانبي الجبهة .

(١) كتاب الصناعتين ٢٩٥ .
(٢) أسرار البلاغة ٢٤ .

عقده لحسن الأخذ وحل المنظوم ، وهو المسمى عند علماء الأدب ونقاده « باب السرقات » .

وفي كتاب الصناعتين دراسة فريدة في بابها ، لأن أبا هلال تابع فيها حسه الفني ، وساير ذوقه الأدبي ، وتخلص فيها من أساليب العلماء ومناهج المتكلمين ، ولهذا حالفه التوفيق في أكثر ما قال ، فاهتدى إلى أحكام فنية خالصة اهتدى بهديها تابعوه ممن كتبوا في البلاغة أو في النقد .

وقد قرر أبو هلال أن الناس لا غنى لهم عن تناول معاني المتقدمين يأخذونها ويكسونها ألفاظاً من عندهم ، ويبرزونها في معرض من تأليفهم ويوردونها في غير حلتها الأولى ، ويزيدونها حسن تأليف وجودة تركيب وكمال حلية . فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها ، وهو بهذا يرى أنه لا مناص من التقليد ، مستدلاً بأن الطفل إنما ينطق بعد استماعه من البالغين وتقليده أصواتهم.

ويؤكد ما سبق أن قرره من اشتراك الناس في المعاني. فهي سواء بين العقلاء ، وربما وقع المعنى الجيد للسوقيّ والنبطيّ والزنجي ، وإنما تتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها . وقد يقع للمتأخر معنى سبقه إليه المتقدم من غير أن يلم به ، ولكن كما وقع للأول وقع للآخر ، ويتخذ العسكري من نفسه شاهداً ودليلاً ، فيروي أنه قال في صفة النساء :

* سَفَرْنَ بُدُوراً وانتقَبْنَ أهِلّةً *

ثم ظن أنه سبق إلى جمع هذين التشبيهين في نصف بيت إلى أن وجده بعينه لبعض البغداديين ، فكثر تعجبه ، وعزم ألا يحكم على متأخر بالسرقة من المتقدم حتماً .

عالج أبو هلال بعد ذلك ضروب الأخذ ووسائله ، فقسمه قسمين : الأخذ الحسن ، والأخذ القبيح :

الأخذ الحسن :

فالأخذ الحسن الذي يحبذه العسكري ، أن تأخذ المعنى ، فتكسوه لفظاً جديداً أجود من لفظه الأول ، ومن فعل مثل ذلك كان أحق بالمعنى من صاحبه الأول . أخبرنا بعض أصحابنا قال : قيل للشعبي : إنا إذا سمعنا الحديث منك نسمعه بخلاف ما نسمعه من غيرك ، فقال إني أجد المعنى عارياً ، فأكسوه من غير أن أزيد فيه حرفاً أي من غير أن أزيد في معناه شيئاً ، والذي يأخذ معنى غيره فيكسوه بألفاظ جديدة ، ويصوغه صياغة جيدة جدير بأن ينسب إليه المعنى . كان دعبل في حلقته فجرى ذكر أبي تمام ، فقال دعبل : كان يتتبع معانيَّ فيأخذها ! فقال له رجل في مجلسه : ما من ذلك أعزك الله ؟ فقال : قلتُ :

وإنَّ امرءاً أسدى إليّ بشافعٍ ... إليه ويرجو الشكر منّي لأحمقُ
شفيعكَ فأشكرْ في الحوائج إنّه ... يصونك عن مكروهها وهويخلقُ

وقال هو يمدح يعقوب بن أبي الربعي :

إن الأميرَ بلاكَ في أحواله ... فرآك أهزَعَهُ غداةَ نضاله [1]
فمتى أقوم بحقّ شكرِك إذ جنتْ ... بالغيب كفَّك لي ثمارَ نواله
فلقيتُ بين يديكَ حلوَ عطائه ... ولقيتَ بين يديَّ مُرَّ سؤاله
وإذا امرؤٌ أسدى إليك صنيعةً ... منْ جاهه فكأنّها من ماله

فقال الرجل : أحسن والله : فقال دعبل : كذبت قبّحك الله ! قال : لئن كان سبق بهذا المعنى فتتبعته لما أحسنت ، وإن كان أخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك ! ولما قال بشار :

---

(١) الأهزع : آخر سهم في الكنانة رديئا كان أو جيدا ، أو هو أفضل سهامها لأنه يدخر لشديدة .

من راقبَ الناسَ لم يظفرْ بحاجتـــهِ وفازَ بالطيّباتِ الفاتكُ اللّهجُ

تبعه سلم الخاسر ، فقال :

من راقب الناسَ ماتَ غمّـاً وفازَ بـــــاللذةِ الجسُورُ

فلما سمعه بشار قال : ذهب ابن الفاعلة ببيتي !

وقد فصل العسكري وسائل الأخذ الحسن ، وشرط لاستحسانها جميعاً المهارة في إخفاء الأخذ ، والحاذق هو الذي يخفي دبيبه إلى المعنى يأخذه في ستْرة ، فيحكم له بالسبق إليه أكثر من ربّه ، ووسائل الأخذ :

(أ) أخذ معنى منظوم وإيراده في كلام منثور ، أو من نثر فيورد في نظم .

(ب) النقل من غرض إلى غرض ، فالمعنى المستعمل في صفة خمر يؤخذ فيجعل في مديح ، أو في مديح ينقل إلى وصف ، وهكذا . . . وذلك كثير ، بشرط كسوة المعنى حلة جديدة ، لتخفي آثار التتبع ، كقـــول أبي نواس :

أعطتك ريحانها العقار وحان من ليلك انسفار

إن كان أخذه من قول الأعشى على ما حكوا فقد أخفاه غاية الإخفاء وبيت الأعشى :

وسبيئة ممّـــا تعتّقُ بابلُ كدمِ الذّبيح سلبْتُها جريالها[1]

سئل الأعشى عن « سلبتها جريالها » ، فقال : شربتها حمراء ، وبلتها بيضاء ، فبقي حسن لونها في بدني ، ومعنى « أعطتك ريحانها العقار » أي شربتها فانتقل طيبها إليك .

---

(١) السبيئة : الخمر . جريالها : لونهـا ، وقال ثعلب : الجريال صفوة الخمر .

وهكذا قوله :

لا ينزلُ الليلُ حيثُ حلّتْ فدَهْرُ شُرّابِها نهارُ

من قول قيس بن الخطيم :

قضى اللهُ حينَ صوّرها الـ خالقُ ألا تكنّها السُّدَفُ (١)

وهذا المعنى منقول من الغزل إلى صفة الخمر فهو خفيّ . ومن هذا ما نقله من أوس بن حجر في صفة الفرس ، فجعله في صفة امرأة :

فجرَّدها صفراء لا الطّولُ عابها ولا قِصَرٌ أزْرى بها فتُعطَّلا

وقول أبي نواس :

فوقَ القصيرةِ والطويلةُ فوقَها دونَ السمينِ ودونها المهزولُ

وقد يكون من وسائل الإخفاء أن يؤخر المتأخر في عبارة المتقدم كقول الشاعر :

* أفناهُمُ الصبرُ إذْ أبقاكمُ الجزَعُ *

وهو من قول السموأل :

يقربُ حبّ الموتِ آجالَنا لَنا وتكرهُهُ آجالهُمْ فتطولُ

أورده أبو تمام في نصف بيت ، واستوفى التطبيق .

---

(١) السدف : الظلمة ، قال الأصمعي : وذلك في لغة نجد ولغة غيرهم هو الضوء ، فهو من الأضداد ، والبيت أورده في الموازنة هكذا :

وقضى الله حين صورها الـ خالق الا يكنها سدف

وفي احدى نسخ الأصل « وقضى لها الله . . . » عن هامش الصناعتين.

ومن هذا الضرب قوله :

علّمني جودُك السّماحَ فما أبقيتَ شيئاً لديّ من صلتك !

من قول الشاعر :

لمستُ بكفّي كفّهُ أبتغي الغِنى ولم أدْرِ أنّ الجودَ من كفّه يُعدي
فلا أنــا منه ما أفادَ ذَوُو الغِنى أفدتُ، وأعداني فأتلفتُ ما عندي !

ويزيد الأخذ حسناً أن يزيد المتأخر في معنى المتقدم ، كقول أبي نواس :

يبكي فيذري الدرّ من نرجس ويلطمُ الــورد بعنــاب

أخذه من قول الأسود بن يعفر :

يسعى بها ذُو تُومتين كأنما قَنَأتْ أناملهُ من الفِرصادِ [1]

وأخذ بعض المتأخرين بيت أبي نواس ، فزاد عليه زيادة عجيبة ، فقال :

وأسبلتْ لؤلؤاً من نرجسٍ فسقَتْ ورداً وعضّتْ على العنابِ بالبرَدِ

فجاء بما لا يقدر أحد أن يزيد عليه . وهكذا يردد أبو هلال إعجابه بهذا البيت في كل مناسبة !

ومن ذلك أيضاً قوله ، وقد زاد فيه عن الأول :

فتمشّتْ في مفاصِلِهِمْ كتمشّي البُرْءِ في السّقَمِ

أخذه من قول مسلم :

تجري محبّتُها في قلبِ عــاشقها مجرى المعافاةِ في أعضاءِ منتكسِ

---

(١) التومتان : مثنى تومة ، وهي الحبة من الدر . والفرصاد : الحمرة .

وجميع ذلك مأخوذ من قول بعض ملوك اليمن :

منعَ البقـــاء تقلبُ الشمس وطلوعُها من حيث لا تُمْسي
تجري على كبدِ السماء كما يجري حِمامُ الموتِ في النفسِ

وأخبرنا أبو أحمد قال : سمعت أبا العيناء يقول : سمعت أبا نواس يقول : والله ما أحسن الشماخ حيث يقول :

إذا بلّغتني وحملتِ رَحْلي عرابة فاشْرقي بدمِ الوتينِ

هلا قال كما قال الفرزدق :

عَلامَ تلفّتين وأنتِ تحتي وخيرُ الناسِ كلهمُ أمامي ؟
متى نَردي الرصافةَ تستريحي من التهجيرِ والدَّبرِ الدوامي !

وكان قول الشماخ عيباً عندي فلما سمعت قول الفرزدق تبعته ، فقلت :

وإذا المطيّ بنـــا بلغْنَ محمـــد فظهورهُنّ على الرجال حرامُ
قرّبننـــا من خير من وصيء الحصى فلها علينـــا حُرْمَةٌ وذمـــامُ

يعترف أبو نواس بالمتابعة ويقر بالأخذ ، ولكنه على كل حال أسلس من قول الشماخ وأوجز من قول الفرزدق .

أما حل المنظوم ونظم المنثور فقد عدّه بعضهم من البلاغة فقال : الكتابة نقض الشعر . وقيل للعتابي : بم قدرت على البلاغة ؟ قال : بحل معقود الكلام ، وقد قسمه أبو هلال أربعة أقسام :

(١) أن يعمد الآخذ إلى ألفاظ الشعر ، فيدخل بين هذه الألفاظ ألفاظاً من عنده ، ومن ذلك أن قليباً المعتزلي سمع أبياتاً للعتبي وهي :

أفلتْ بطالتـــه وراجعَهُ حلمٌ وأعقبه الهوى نَدَما

ألقَى عليهِ الدّهْرُ كلكلهُ وأعارَهُ الإفتارَ والعَدَما
فإذا ألمّ بهِ أخُو ثقـــةٍ غضّ الجفونُ ومجمجَ الكلِما

فقال لبعض الملوك يستعطفه على رجل من أهله : « جعلني الله فداءك ، ليس هو اليوم كما كان ، إنه وحياتك أفلت بطالته ، إي والله ؟ وراجعه حلمه ، وأعقبه — وحقك — الهوى ندما ، أنحى الدهر والله عليه بكلكله ، فهو اليوم إذا رأى أخا ثقة غضّ بصره ، ومجمج كلامه » .

وبهذا يعرف أن حل المنظوم ونظم المحلول أسهل من ابتدائهما ، لأن المعاني إذا حلت منظوماً أو نظمت منثوراً حاضرة بين يديك ، تزيد فيها شيئاً فينحل ، أو تنقص منها شيئاً فينتظم ، وإذا أردت ابتداء الكلام وجدت المعاني غائبة عنك ، فتحتاج إلى فكر يحضركها .

(١) والضرب الثاني ينحل بتأخير لفظة منه وتقديم أخرى ، فيحسن محلوله ويستقيم ، ومثاله ما ذكره بعض الكتاب من قول البحتريّ :

نطلبُ الأكثرَ في الدنيا وقدْ نبلغ الحاجةَ فيهـــا بالأقلّ

ثم قال : فإذا نثرت ذلك ولم تزد في ألفاظه شيئاً قلت : « نطلب في الدنيا الأكثر ، وقد نبلغ منها الحاجة بالأقل » .

(٣) والضرب الثالث أن يفعل الآخذ مثل ذلك التقديم والتأخير ، فلا يحسن الكلام ولا يستقيم إلاّ بالالتجاء ضرورة إلى الزيادة فيه أو النقص منه ، ومن النظم ما لا يمكن حله أصلاً بتأخير لفظة وتقديم أخرى منه ، حتى يلحق به التغيير والزيادة والنقصان ، مثل قول الشاعر :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يبقَ إلاّ صورةُ اللحمِ والدّمِ

فالمصراع الأول يمكن أن يؤخر بعض ألفاظه ويقدم ، فيصير نثراً مستقيماً

وهو أن تقول : « فؤاد الفتى نصف ولسانه نصف » . ولا يمكن في المصراع الثاني ، ذلك ، حتى تزيد فيه أو تنقص منه ، فتقول : « لسان الفتى نصف وفؤاده نصف ، وصورته من اللحم والدم فضل لاغناء بهما دونهما ولا معول عليهما إلاّ معهما » .

(٤) والضرب الرابع أن تكسو ما تحله من المنظوم ألفاظاً من عندك ، وهذا أرفع درجاتك ، وهكذا يلقي أبو هلال على مزاولي صناعة الكتابة درساً في وسائل الإفادة من أدب سابقيهم ، ويوطىء لهم السبيل في الانتفاع بآثار غيرهم ، مبيّناً لهم ما يحسن وما يقبح ، وما هو ممكن أو غير ممكن ، وهكذا تبقى للرجل أهم صفاته ، وهي صفات المعلم ، الذي يرود لتلاميذه طرق الإجادة والإحسان .

ولأول مرة يطلق العسكري لفظ « السرقة » على هذا الأخذ ، بل وفي معرض الاستجادة والاستحسان أيضاً .

وكما يستطيع الناثر أن يفيد من الشاعر بحل منظومه بإحدى الوسائل التي ذكرها ، فإن في استطاعة الشاعر أن يفيد من نصوص النثر الكلامية أو الكتابية فيعمد إلى هذه النصوص فيدخل معانيها في شعره ، وهكذا يكون أبو هلال وفياً لرجال الصناعتين .

ومن أجود ما مثل به للنثر يورد في الشعر قول بعضهم للربيع بن خيثم ، وقد رأى اجتهاده في العبادة : أتعبت نفسك ، قتلت نفسك ! فقال : راحَتها أطلبُ ! أخذه الشاعر فقال :

سأطلبُ بُعْدَ الدّارِ عَنكم لتقربوا وتسكبُ عيناىَ الدّمُوعَ لتجْمُدا

وقال غيره « عروة بن الورد » :

تقولُ سُلَيمى لو أقمتَ بأرضِنا ولم تدْرِ أنّي للمُقامِ أُطَوِّفُ

ومثل ذلك أن بعضهم رأى أعرابياً مقبلاً إلى مكة ، ليصوم فيها شهر رمضان والحر شديد ، فقال له : أتجمع على نفسك الصوم وحرّ تهامة ؟ فقال :

من الحرّ أفرّ ! وقيل لروح بن قبيصة بن المهلب ، وهو واقف في الشمس على باب الخليفة : لقد طال وقوفك في الشمس ! فقال : الظلّ أريد ! فقال أبو تمام :

أآلفة النّحيبِ كم افتراقِ أظلّ فكانَ داعيةَ اجتماعِ
وليستْ فرحةُ الأوباتِ إلاّ لموقوفٍ على تَرَحِ الوَداعِ

وسمع أبو تمام قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه للأشعث بن قيس : « إنك إن صبرت جرى عليك قضاء الله وأنت مأجور ، وإن جزعت جرى عليك أمر الله وأنت موزور ، فإنك إن لم تسلُ احتساباً سلوت كما تسلو البهائم » ، فحكاه حكاية حسنة في قوله [1] :

وقال عليٌّ في التعازي لأشعثٍ وخافَ عليهِ بعضَ تلك المآثمِ
أتصبرُ للبلوى رجاءً وحسْبةً فتؤجَرَ أم تسلو سلوَّ البهائمِ
خلقنا رجالاً للتجلّد والأسى وتلك الغواني للبكا والمآثمِ

ولم يكن لأبي هلال أن يعدّ هذا من السرقة ، ولا أن يذكره في بابها ، لأن أبا تمام سمع المعنى فأعجبه فنظمه ؛ ولم ينسبه إلى نفسه ، أو يخفي دبيبه إليه ، ولكنه أسنده إلى قائله صراحة ، وذكر المقول له ، ومناسبة القول ، وإن كان البيت الأخير من قول عبد الله بن الزبير لما قتل أخوه مصعب : « وإنما التسليم والسلوة لحزماء الرجال ، وإن الهلع والجزع لربات الحجال » .

إن الأخذ والنقل يحتاجان كما يرى أبو هلال إلى الحذق وإلى الفطنة حتى يكون من الممكن أن يسلم المعنى للآخذ ، ويكون من العسير على القارىء

---

(١) من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق، ويعزيه عن أخيه القاسم بن طوق. وهي في ديوانه ص ٢١٨ ومطلعها :
امالك ان الحـزن أحلام نائـم ومهما يدم فالوجد ليس بدائم

أو السامع أن يفطن إلى النقل ، أو يتنبه إلى الأصل . وناقد الأدب أكثر حاجة من الشاعر أو الناثر إلى الحذق والفطنة وسعة الاطلاع . حتى يستطيع بكل أولئك أن يعرف المصادر والموارد ، وأن يرد المعنى إلى صاحبه والقول إلى قائله ، مهما استطاع الأديب بمهارته إخفاء الأخذ أو النقل ، بتغيير الغرض الأصلي ، ووضع المعنى في معرض آخر ، أو كسوته ثوباً جديداً من الألفاظ ، أو غير ذلك مما يعمل الأديب فيه جهده مبالغة في التعمية والإخفاء .

ولهذا كان علينا أن نعرف لأبي هلال قدره وأن نحكم له بالقدرة الفائقة ، وطول الباع ، وسعة الاطلاع ، من هذا الباب النقدي الذي وفق فيه إلى حشد هذه النصوص ، والفطنة إلى أصولها ، فمن ذلك ما رواه أن أبا تمام سمع قول زياد لأبي الأسود وقد سأله ولاية : لولا أنك ضعيف لاستعملتك ! فقال أبو الأسود : إن كنت تريدني للصراع فإني لا أصلح له ، وإلاّ فغير شديد أن آمر وأنهى ! فقال أبو تمام ، وقد نقله إلى الغزل :

تعجّبُ أن رأتْ جسمي نحيفاً كأنَّ المجدَ يُدْرَكُ بالصِّراعِ

ومن أمثلة نقض الشعر وإيراده في النثر أن أمرأ القيس قال :

فبعضَ اللومِ عاذلتي فإنّي ستكفيني التجاربُ وانتسابي

يقول لا أنتسب إلا إلى ميّت ، فقال لبيد :

فإنْ لم تجدْ من دونِ عَدْنانَ والداً ودونَ معدٍّ فلتَرُعْكَ العَواذلُ

فأخذه الحسن البصري ، فقال نثراً : « إن امرأ لم يعد بينه وبين آدم عليه السلام إلاّ أبا ميتاً لمعرق له في الموت » . فأخذه أبو نواس ، فقال :

وما الناسُ إلاّ هالك وابنُ هالكٍ وذو نسبٍ في الهالكينَ عَريقُ

الأخذ القبيح :

والاخذ القبيح يكون بأحد سبيلين : أولهما : أن يعمد الآخذ إلى المعنى ، فيتناوله بلفظه كله أو أكثره [1] كقول طرفة :

وقوفاً بها صَحْبي عليَّ مطيَّهم ْ يقولون لا تهلِك أسىً وتجلّدِ

وهو قول امرىء القيس :

وقوفاً بها صَحْبي عليَّ مطيّهم ْ يقولون لا تهلكْ أسىً وتجمّلِ

فلم يغير طرفة إلاّ لفظ القافية .

وقال الحارث بن وعلة :

الآنَ لمّا ابيَضَّ مَسْرُبَتي وعضِضْتُ من نابي على جِذِم[2]

وقال غسان السليطي :

الآنَ لمّا ابْيَضَّ مَسرُبَتي وعضضْتُ من نابي أجذامي

وقال البعيث :

أترجُو كليبٌ أن يجيء حديثُهـــا بخيرٍ وقد أعْيا كُليباً قديمُها ؟

وقال الفرزدق :

أترجو ربيعٌ أن يجيءَ صِغارُهـــا بخيرٍ وقد أعْيا ربيعاً كِبارُها ؟

والعسكري الذي يرى اشتراك الناس في المعاني يعد الأخذ على هذه الصورة

---

(١) سئل أبو عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان على لفظ واحد ومعنى، فقال : عقول رجال توافقت على ألسنتها .

(٢) المسربة : الشعر وسط الصدر الى البطن . والجذم : أصل الشيء ، وجذم الاسنان منابتها ، والمعنى : كبرت حتى أكلت على جذم نابي . وبعد هذا البيت : =

قبيحاً معيباً، وإن ادعى أن الآخر لم يسمع قول الأول بل وقع لذا كما وقع لذاك فإن صحة ذلك لا يعلمها إلاّ الله عز وجل ! والعيب لازم للآخر [1] .

ويبدو من هذا أن أبا هلال يناقض نفسه حين يلزم الآخر العيب ، وقد سبق له أن جوّز وقوعه ، واستدل على جواز الاتفاق بما أورد لنفسه مما وافق فيه قول غيره وإن كان لم يره . وبقوله إن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضي الله عنه :

* تشطُّ غداً دارُ جيراننا *

فقال ابن عباس :

* وللدّارُ بعد غدٍ أبعدُ *

فقال عمر : والله ما قلت إلاّ كذلك !

والجميل في هذا البحث أن يتنبه أبو هلال بفطرته إلى أثر البيئة في اتفاق المعاني وجواز توارد الخواطر ، ونعتقد أنه من السابقين إلى التنبيه إلى أثر البيئة فيما يصدر عن أصحابها بقوله : « وإذا كان القوم في قبيلة واحدة ، وفي أرض واحدة ، فإن خواطرهم تقع متقاربة، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة » .

ويروي قصة له مع الصاحب ابن عباد تماثل قصة ابن أبي ربيعة وابن عباس ، فيروي أنه أنشد الصاحب :

* كانت سراة الناس تحت أظلّه *

فسبقه الصاحب بن عباد فقال :

= وحلبت هذا الدهر أشطره وأتيت ما آتي على علم
ترجو الأعادي أن ألين لها هذا تخيل صاحب الحلم

(١) الصناعتين ٢١٩ .

* فغدَتْ سراة الناس فوق سراتهِ *

وكذلك كان قال : وبهذا يجوز الادعاء بالاتفاق ، وإن كان الظاهر الأخذ والنقل .

أما الضرب الآخر من الأخذ القبيح فهو أن يأخذ المتأخر المعنى فيفسده ، أو يعوّصه ، أو يخرجه في معرض قبيح ، ويكسوه كسوة مستّرذلة .

وقد مثل العسكري لهذا الضرب بأمثلة كثيرة منها :

(١) قول أبي كريمة :

قفاهُ وجهٌ ثم وجْهُ الذي قفاهُ وجهٌ يشبهُ البدْرَا

وإنما أخذه من قول أبي نواس :

بأبي أنتَ من مَليحٍ بَديعٍ بذَّ حسن الوجوهِ حسنُ قفاكا

وأحسن ابن الرومي فيه فقال :

ما ساءني إعراضُــه عنّي ولكنْ سرّني
سَالِفَتَـــاهُ عوض من كلّ شيء حسن

وأخذه أبو نواس من قول النابغة للنعمان بن المنذر « أيفاخرك ابن جفنة ؟ واللات لأمسك خير من يومه ، ولقذالك أحسن من وجهه ، وليسارك من يمينه ، ولعبيدك أكثر من قومه ، ولنفسك أكبر من جنده ، وليومك أشرف من دهره ، ولوعدك أنجز من رفده ، ولهزلك أصوب من جدّه ، ولكرسيّك أرفع من سريره ، ولفترك أبسط من شبره ، ولأمك خير من أبيه » :

والنابغة أحذق الجماعة ، لأنه ذكر « القذال » . وهؤلاء قالوا « القفا » ، ولا يستحسن أن يخاطب الرجل فيقال له : قفاك حاله كذا كذا . . .

(٢) ومن ذلك قول الحسن بن وهب ، وقد سمع قول أعرابي اجتمع مع عشيق له في بعض الليالي : اجتمعت معها في ظلمة الليل وكان البدر يرينيها . فلما غاب أرتنيه ، فقال :

أراني البدرُ سنّتها عشاءً فلما أزمعَ البدرُ الأفولا
أرتنيه بسُنّتِها فكانتْ من البدر المنوّر لي بَديلا

فأطال الكلام ، وجعل المعنى في بيتين ، وكرر السنّة والبدرَ !

(٣) وقول البحتري :

من غادةٍ منعتْ وتمنعُ نيلها فلو انها بذلتْ لنا لم تبذلِ

أخذه من قول عبد الصمد بن المعذّل :

ظبيٌ كأنّهُ بخَصرِهِ من دقة ظمأ وجوعا
ومـــن البليّةِ أنني علَقْتُ ممنوعاً منُوعا

بيت عبد الصمد أبيَن معنى مـــع شدة الاختصار ، وبيت البحتري كالعويص ، لا يقام إعرابه إلاّ بعد نظر طويل .

ومن هذا يتضح أن مقياس قبح الأخذ واحد من عدة أمور :

(١) أخذ المعنى بلفظه كله .

(٢) أخذ المعنى بجل لفظه .

(٣) عرض المعنى الجميل في معرض مستهجن .

(٤) أخذ البين الواضح بإخفائه .

(٥) أخذ الموجز المختصر بإطالته من غير زيادة في معناه .

ولقد كان في هذا الباب موفقاً كما أسلفنا لأنه عالجه بروح أديب ذي

ذوق سليم واطلاع واسع ، فجمع ووازن ؛ وبين فضل السابق على اللاحق ، أو مهارة المتأخر على المتقدّم ، وقد أراد أن يفخر على من تقدمه فقال : وقد أتيت في هذا الباب على الكفاية ، ولا أعلم أحداً ممن صنف في سرق الشعر فمثّل بين قول المبتدىء وقول التالي ، وبين فضل الأول على الآخر والآخر على الأول غيري . وإنما كانت العلماء قبلي ينبهون على مواضع السرق فقط ، فقس بما أوردته على ما تركته [1] .

ونسي أبو هلال في هذا المقام أو لعله تناسى فضل عالمين كبيرين وناقدين حاذقين عرضا للسرقات ودرساها ، ووازنا بين قول وقول واستنبطا فضل ما بينهما ، وهما القاضي الجرجاني في وساطته بين المتنبي وخصومه ، وأبو القاسم الآمدي في موازنته بين أبي تمام والبحتري .

والحق أن أبا هلال قد انفرد دون سابقيه بشرح وسائل الأخذ ، وما يلجأ إليه الأدباء من إخفاء أخذهم وستر معالم اقتدائهم .

---

(١) الصناعتين ٢٢٥ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السادس

مقاييسه البلاغية

وأثرها في البلاغة والبلاغيين

هذه المقاييس التي استنبطناها في الفصل السابق ، منها ما كان رائده العقل والفكر ، ومنها ما كان رائده الحسّ المرهف والذوق الأدبي ، ولم يكن هنالك بد من الجمع بين المذهبين . والمقياس في الحالين له حظه من الاعتبار في نظر الذين يؤثرون قياس الأدب ونقده بالدربة والذوق والممارسة ، وله أيضاً حظه من الاعتبار عند الذين جنحوا إلى تقنين الأدب ، ليكون كغيره من المعارف التي نظمت مسالكها بقوانين العلم الثابتة .

وضع العسكري هذه المقاييس بأسلوبه التقريري ومنهجه التعليمي ، ليقتفيها من يريد أن يكون بليغاً سواء أكان شاعراً أم ناثراً أم ناقداً يعالج الشعر والنثر ، وقد كان لهذا الأسلوب أثره في تحويل مجرى النقد الأدبي من الاحتكام إلى البصيرة الواعية والذوق المستقيم ، يعضدهما الاطلاع الواسع على آثار فحول الكتاب والشعراء الذي يعين على وزن الكلام وموازنة بعضه ببعض ، لتبين أسباب القوة وتظهر عوامل الضعف ، إلى علم منظم ذي قواعد وأصول هو « علم البلاغة » .

وكان العسكري من أوائل الذين وضعوا اللبنات الأولى في هذا العلم ، وأوائل من كتبوا في البلاغة بحوثاً مستفيضة مبنية على قواعد العلم وتأثره بمنطق العقليين ، حتى عد من أعلام البلاغيين . وقد وصفه العلوي في طرازه

بأنه كان متقدماً في علم البلاغة على غيره ، آخذاً منها بحظ وافر [1] ، كما أن عبد القاهر ذكر آراءه كثيراً في كتابيه ، وإن يكن الجاحظ قد سبق العسكري إلى القول في الفصاحة والبلاغة ، وأورد كثيراً من أقوال الناس فيها وتصور الأمم لها على اختلاف مواطنهم وأجناسهم في كتابه البيان والتبيين « إلاّ أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلاّ بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير » كما قال أبو هلال [2] الذي تناول التعريفات والحدود التي أوردها الجاحظ وغيره ، ففصلها وشرحها وحللها وأضاف إليها من علمه ورأيه شيئاً كثيراً .

* * *

فالبحث في الفصاحة والبلاغة الذي شغل علماء البلاغة منذ كانت نبتاً صغيراً حتى أفرغوا ما في جعبتهم في محاول فهمها ، وبيان أسباب ائتلافهما ونواحي اختلافهما . كل ذلك مدين بتنظيمه لأبي هلال ، واقتفاه المؤلفون في البلاغة ممن جاءوا بعده ، فجعلوا هذا الباب أول موضوعات البلاغة تكلموا في أصل اشتقاقهما اللغويّ ، وأيهما يكون في اللفظ أو في المعنى ، أو في الكلمة أو الكلام أو المتكلم ، كما فعل أبو هلال تماماً .

* * *

ولئن كان اللفظ عند أبي هلال هو كل شيء ، والتجلية فيه مدار البلاغة في رأيه مجاراة للجاحظ فيما ذهب إليه ، لقد تصدى لهذا الموضوع « اللفظ والمعنى » كل من عرض لموضوع البلاغة من الذين جاءوا بعد العسكري بين متحيز للّفظ هائم بالصناعة ، ومتعصب للمعنى هاله هذا التيار من الإعجاب

---

(١) الطراز : ج ٢ ص ٣٢٠ .
(٢) الصناعتين : ص ٧ .

بالصياغة ، فكان خلاف شديد ، ولكن هذا الخلاف لم يتخذ شكلاً أدبياً بقدر ما اتخذ شكلاً كلامياً ، وسلك أسلوباً جدلياً ، لا غنية فيه لناقد الأدب أو لطالب البلاغة .

كان العسكري أشد العلماء تغالياً في تقدير اللفظ ، ويرجع ذلك إلى مذهب الرجل ، وإيثاره مذهب الصنعة . ومن المقرر أن كل مذهب من المذاهب جنح دعاته إلى المغالاة فيه والتعصب له ، لا بد أن يجد تياراً مناهضاً يسير في عكس الاتجاه الذي سار فيه ، ولهذا وجدنا فريقاً من المغالين أيضاً في تقدير المعنى يجعلونه كل شيء ، ويجحدون اللفظ فلا يجعلونه شيئاً ، وقد تزعم هذا الفريق إمام من أئمة البلاغة ، وعلم من أعلام الفكر هو عبد القاهر الجرجاني ، الذي عالج الموضوع بأسلوبه الكلامي ، وتشيّع للمعنى ، ورأى أن الأديب لا يتطلب جهداً في اختيار اللفظ ، أو إجادة الصياغة ما دام المعنى حاضراً في الذهن ، ولا يتصور أن يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى ، وأنت إذا أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال ، ولكنك إذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك وإزاء ناظرك[1] ، حتى الألفاظ إن جاز وصفها بالفصاحة فليس ذلك لسبب في ذاتها ، وإنما جاز وصفها بالفصاحة لاعتبار مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ، حتى نظم الكلام في نظر عبد القاهر لا أثر فيه للعناية بالألفاظ ورصفها ، وليس للأديب جهد في تلك الناحية ، وإنما تكون جودة الرصف نتيجة لجودة ترتيب المعاني في النفس ، والأديب يقتفي في نظم الألفاظ آثار المعاني ، ويرتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق ، وليس الغرض بنظم الكلم أن تتوالى ألفاظها في النطق ، بل أن تتناسق دلالتها ، وتتلاقى معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل ، ولو كان القصد بالنظم إلى

---

(١) دلائل الاعجاز ٤٩ .

اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ، ثم النطق بالألفاظ على حدودها ، لكان ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه ، لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً ، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يجهله الآخر [1] .

أما ما قد يكون في الكلام من تقديم أو تأخير فمردّه إلى حصول هذا التقديم أو التأخير في النفس ، فإن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها ، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب في اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق [2] .

لقد أراد الجرجاني بهذا الأسلوب الذي اقتطفنا فقرات منه أن يحصر التفاوت بين الأدباء في دائرة المعنى ، وجعله مناط الإجادة ومدار البلاغة وليس يرضى بالذوق وحده هادياً حتى يهديه العقل ، ويأخذ بيده التفكير إلى أبعد حدوده . ولم يكن في هذا البحث الذي استنفد ما رأيت من الجهد غناء لطالب البلاغة أو طالب البيان ،ذلك أن هذا الجدل الذي رأيت بعض صوره هو الذي غلب هذا الأسلوب فيما بعد في دراسة البلاغة ، بل تجاوزها إلى سائر العلوم لسانية وغير لسانية .

ويجيء بعد عبد القاهر عالم من طراز آخر ، ليس عنده هذا التعمق في التفكير وإقامة الحجة ، ولكنه لا ينقصه الذوق ولا يعوزه الاطلاع على رأي هذا أو ذاك ، لا يتقبّل هذا المنطق والقياس ، وإن كان يسلم إلى نتائج يرضاها العقل ويطمئن إليها ، لا يرضى هذا الرأي ، بل يؤثر جانب اللفظ على جانب المعنى في تقدير البلاغة ، أو تقدير القيم الفنية للأدب ، ذلك العالم هو ضياء

---

(١) المصدر السابق ٤١ .
(٢) المصدر نفسه ٤٣ .

الدين بن الأثير الذي يرى النظم والنثر إنما يكون الحسن فيهما من الألفاظ ، ويستدل بالذوق شاهداً ، كما يستدل بالصياغة والتجاء الأديب إلى التغيير والتأنق في الألفاظ « وهذا من الأمور المحسوسة التي شاهدها من نفسها ، لأن الألفاظ داخلة في حيّز الأصوات ، فالذي يستلذّه السمع منها ويميل إليه هو الحسن ، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح ، ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره نهيق الحمار ، ولا يجد ذلك في صهيل الفرس ؟ والألفاظ جارية هذا المجرى ، فإنه لا خلاف في أن لفظة المزنة والديمة حسنة يستلذها السمع ، وأن لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع وهذه اللفظات الثلاث من صفة المطر ، وهي تدل على معنى واحد ، ومع ذلك فإنك ترى لفظتي المزنة والديمة وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال وترى لفظ « البعاق » وما جرى مجراه متروكاً لا يستعمل ، وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة ، أو من ذوقه غير سليم ، لا جرم أنه ذم وقدح ولم يلتفت إليه ، وإن كان عربياً محضاً من الجاهلية الأقدمين »[1] .

ما قول الجرجاني في هذا البيان ؟ وما رأيه في هذه الحجة الصحيحة التي تتمشى مع الذوق ، وتتمشى مع العقل ؟

بل ما قوله في الذي يحكى عن المبرد رحمه الله تعالى ، أنه قال : ليس أحد في زماني إلاّ وهو يسألني عن مشكل من معاني القرآن أو مشكل من معاني الحديث النبوي ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربية ،فأنا إمام الناس في زماني هذا ، وإذا عرضت لي حاجة إلى بعض إخواني وأردت أن أكتب إليه شيئاً في أمرها أحجم عن ذلك ، لأني أرتب المعنى في نفسي ، ثم أحاول أن

---

(١) المثل السائر ٤١ .

أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع ذلك ! ولقد صدق في قوله هذا وأنصف غاية الإنصاف . ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلاّ من يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق . ولكنه لا يحسن أن يزاوج بين لفظتين ، فالعبارة عن المعاني هي التي تخلب بها العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون في استخراج المعاني . فإنه لا يمنع الجاهل الذي لا يعرف علماً من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة ، واستخراج المعاني إنما هو بالذكاء لا بتعلم العلم [1] .

إن المعنى الذي يخطر في النفس أولاً على رأي الجرجاني هو معنى السحابة أو هذا الجرم بين السماء والأرض يسقط منه المطر ، وهذه الألفاظ ، وقد يكون إلى جانبها غيرها مما يدل دلالتها مما يخطر على الذهن أيضاً ، ويأتي عمل الأديب بعد استواء المعنى لديه فيميز بين الألفاظ ، ويفاضل بين لفظ وآخر ، ثم يختار لنظمه ما يلائم ذوقه ، وما يظن أن أذواق الناس ترتضيه ، إذ كان عمله الفني يحاول به إشراك غيره ، فيما أثار نفسه وهاج شاعريته من انفعالات وأحاسيس .

ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع المعنى لكانت هذه الألفاظ في الدلالة عليه سواء ، ليس منها حسن ومنها قبيح ، ولما لم يكن كذلك علمنا أنها « الفصاحة » تخص اللفظ دون المعنى ، وليس لقائل هاهنا أن يقول : لا لفظ إلاّ بمعنى ، فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى ؟ فإني لم أفصل بينهما ، وإنما خصصت اللفظ بصفة هي له ، والمعنى يجيء فيه ضمناً وتبعاً [2] .

---

(١) المثل السائر ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) المصدر السابق .

والعلويّ [1] يأخذ في الطراز بنظرية عبد القاهر في دلائل الإعجاز ، وإن كان لا يصرح بهذا الأخذ ، فيقول : إياك أن يعتريك الوهم ، أو يستولي على قلبك غفلة ، فتظن أنا لما قلنا إن الألفاظ دالة على المعاني فتعتقد من أجل ذلك أن المعاني تابعة للألفاظ وأنها مؤسسة عليها ، فهذا أو أمثاله خيال باطل وتوهم فاسد ، فإن الألفاظ في أنفسها هي السابقة للمعاني ، وإن المعاني هي السابقة بالتقرير والثبوت ، والألفاظ تابعة لها [2] .

لئن كان الجاحظ وغيره ممن سبقوا العسكري تكلموا في اللفظ أو آثروه بوجوب الرعاية له والاهتمام به ، لقد كان علاجهم أدبياً موجزاً ، أما الإفاضة في منزلة اللفظ ومنزلة المعنى ، وإقامة الحجة والدليل على أن أحدهما مدار البلاغة ، فإن العسكري كان أول من نصب لذلك ، فتعصب للفظ ، وجعله الأدب كله ، وفتح مثل هذا البحث الجدليّ الذي لا يخرج منه صناع الأدب بطائل ، وقفاه الجرجاني ، فنقض قوله ، وآثر المعنى وجعل اللفظ تابعاً له بأسلوبه العلمي المنطقي الذي قرأت فقرات منه ، وآثر صاحب المثل السائر مذهب الجاحظ وأبي هلال ، وتابع العلوي عبد القاهر فيما ذهب إليه ، وتتابع البلاغيون والنقاد في الانتصاف لهذا الرأي أو لذاك .

على أن هؤلاء جميعاً لم يحسنوا علاج هذا الباب من الناحية الأدبية بل

---

(١) أمير المؤمنين يحيى بن حمزة علي بن ابراهيم العلوي اليمني ، وكتابه « الطراز ، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز » يعد من الموسوعات التي ألفت في البلاغة ، لسعة موضوعه ، وغزارة مادته ، واحاطته بجل ما كتب في البلاغة والنقد قبله . وله غيره : كتاب الانتصار على علماء الأمصار في تقرير المختار من مذاهب الأئمة وأقاويل الأمة ، وقد صاغه في ثمانية عشر مجلدا ، وكتاب الحاصر لفوائد مقدمة طاهر ، وهو شرح على مقدمة أبي الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ ابن داود المصري . ولد سنة تسع وستين وستمائة وقد تقلد باليمن إمارة المؤمنين ، وقضى نحبه سنة تسع وأربعين وسبعمائة .

(٢) الطراز ج ١ ص ١٨٦ .

التزموا الناحية العقلية المنطقية، فلم يفد الأديب من دراسة هذا الرأي أو ذلك شيئاً يعود على إنتاجه الأدبي بعائدة ، ولم يفد الناقد كذلك شيئاً يعود على صناعته بفائدة .

ما جدوى أن اللفظ يجر المعنى ؟ وما جدوى أن المعنى يستدعي اللفظ ، أو أنه إذا تهيأ للأديب فاللفظ بين يديه ، وطوع أمره ؟

ولقد كان ما فعل أبو هلال حين قسم الألفاظ إلى طبقات ، وبين المقبول منها والمردود خير ما يقدم لطالب الأدب ، كما كان علاجه للمعاني وتقسيمه إياها إلى جديدة مبتكرة ومسبوق إليها مقلدة، واشتراط الصواب في كلتيهما بحثاً أدبياً نقدياً ناجعاً. ولو أن هؤلاء الأعلام اجتزءوا بمثل هذا البحث وقصروا جهودهم عليه لكان ذلك أولى من الجدل العقيم الذي كدوا أنفسهم فيه ، ولم يخرجوا منه بطائل .

نعم ، فتح أبو هلال القول في كثير من موضوعات الأدب ، وكان له أتباع أخذوا عنه ما قال ، ومن جملة ذلك أن العسكري قسم المعاني قسمين أحدهما ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها ، وقد يعرض هذا الضرب للشاعر عند الخطوب الحادثة ، ويتنبه له عند الأمور النازلة الطارئة . والآخر: ضرب يحتذى على مثال سبق ورسم فرط .

ويأخذ صاحب المثل السائر هذا القول ، فيقسم المعاني هذين القسمين ، ويكاد يعبر عنهما بعبارة العسكري نفسه ، فيقول : المعاني على ضربين أحدهما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدي فيه بمن سبقه ، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، ويتنبه له عند الأمور الطارئة [1] ، ثم

---

(١) المثل السائر ١٨٧ .

أفاض القول في هذه الأمور الطارئة ، وما استدعته من معان جديدة . . . أما الضرب الآخر من المعاني ، وهو الذي يحتذى فيه على مثال سابق ومنهج مطروق ، فذلك جل ما يستعمله أرباب الصناعة .

وكذلك تابع ابن الأثير أبا هلال في تقسيم الألفاظ ، قسمها أبو هلال إلى جزلة وسهلة وقسمها ابن الأثير إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك . أما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد ، وفي استجلاب المودات ، وملاينات الاستعطاف ، وأشباه ذلك ، وربما كان معنى الجزل عند صاحب المثل السائر أقرب إلى الفهم من معناه عند العسكري وتعبيره بالرقة بدل السلاسة فيه من الوضوح ما ليس في الثاني ، فلا يعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهيّة البداوة بل يعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ، ولذاذته في السمع ، وليس يعني بالرقيق أن يكون سفسفاً ، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس[1] ، وكلامه في هذا قريب من قول العسكري ، إلاّ أنه أقرب إلى الوضوح منه ، فليست الجزالة التوعر ، وإنما هي المتانة مع استساغة السمع واللسان ، فمرجع تقديرها إلى الذوق وحده .

كذلك درس أبو هلال السرقات على الوجه الذي رأيت في الباب السابق ، وتبعه بعض علماء البلاغة ، فاحتذوه وزادوا عليه في الأقسام ، وفي الألقاب ، وممن فعل هـــذا ضياء الدين بن الأثير الذي تكلم في السرقات ، فقسمها ثلاثة أقسام :

(١) النسخ : وهو أخذ المعنى برمته من غير زيادة عليه ، مأخوذاً ذلك من نسخ الكتاب .

---

(١) المثل السائر ١٠٠ .

(٢) السلخ : وهو أخذ بعض المعنى ، مأخوذاً ذلك من سلخ الجلد الذي هو بعض الجسم المسلوخ .

(٣) المسخ : وهو إحالة المعنى إلى ما دونه ، مأخوذاً ذلك من مسخ الآدميين قردة .

ثم زاد على هذه الأقسام الثلاثة قسمين : أحدهما أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، والآخر عكس المعنى إلى ضده ، وهذان القسمان ليسا بنسخ ولا سلخ ولا مسخ .

وعنى ابن الأثير بعد ذلك بالتفريعات ، فجعل النسخ ضربين ، وجعل السلخ اثني عشر ضرباً ، والمسخ ضربين ، وزاد عليه المتأخرون ما شاءوا من الأنواع والتقاسيم ، وهذه الأنواع كلها ، والضروب التي أتوا بها ، منتزعة من كلام أبي هلال ، وأكثر ما مثلوا به لهذه الأقسام مما أورد في كتاب الصناعتين الذي فصل الأخذ وضروبه ، وشرح الحسن منه والقبيح .

* * *

كان تحيّز أبي هلال للفظ وما كتب في تفضيله هو الذي دعا عبد القاهر إلى أن يتعصب للمعنى على الوجه الذي خلف ، ويدفعه هذا التعصب إلى أن يكتب في تعلق الكلم بعضها ببعض ، وهي كما يراها معاني النحو وأحكامه ، فجعل النحو عمدة دراسته ، وما ينشأ عن وضع الكلمة وموضعها الإعرابي في التركيب ، من تغير في المعنى قوة وضعفاً ، وفصلاً ووصلاً ، وإيجازاً وإطناباً وقصراً ، وهذه الدراسة النحوية يبني عليها دراسة المعاني ، وسميت دراسة معاني النحو « علم المعاني » عند البلاغيين ، وجعل علماً مستقلاً من علوم البلاغة الثلاثة .

وقد سبق عبد الله بن المعتز صاحبي الصناعتين ودلائل الإعجاز إلى الكتابة في « البديع » وسمى كل محسن باسمه ، وإن كان أدخل فيه ما لم يجعله البلاغيون كالاستعارة والتشبيه والكناية والتعريض .

أما علم البيان فإن أكثر أهل الفن يسمي جميع فنون البلاغة « علم البيان » لتعلقها جميعاً بالبيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير ، وبعضهم أطلقه على البيان والبديع معاً ، تغليباً للبيان المتبوع على البديع التابع .

وبعض علماء البلاغة يسمى العلوم الثلاثة « المعاني والبيان والبديع » علم البديع ، لأن البديع هو الشيء الذي يستحسن لظرافته وغرابته ، وعدم وجود مثاله من جنسه ، وهذه العلوم كذلك [1] .

ولقد كان البيان من قبل اسماً شاملاً لكل ما يتصل ببناء الكلام وتأليفه ، سواء منه ما يتصل بالألفاظ والمعاني ، أو بوجوه التحسين اللفظي والتحسين المعنوي ، وبهذا المعنى فهمه العلماء والأدباء والنقاد إلى عبد القاهر ، وجاء السكاكي فنظم العلوم الثلاثة ، وحدد مباحثها التحديد الذي لا يزال أساس دراستها إلى اليوم في الجزء الخاص بالبلاغة من كتابه « مفتاح العلوم » .

* * *

ومع أن العسكري لم يكن له يد في تقسيم العلوم التي تعالج فن الكلام هذا التقسيم التقليدي ، إلاّ أنه عالج من مباحث هذه العلوم موضوعات كثيرة كانت أساس موضوعات كثيرة من مباحث علوم البلاغة كما يأتي :

(١) فعلم البيان : الذي عرفه البلاغيون بأنه العلم الذي يبحث في التعبير عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة في وضوح الدلالة على المعنى المراد ، عالج أبو هلال من مباحثه التشبيه ، فعرفه تعريفاً لا يختلف كثيراً في دلالتهعن تعريف المتأخرين ، وأفاض القول فيه وفي صنوفه ، وفي الجيد والقبيح منه ، وذكر أركانه ، وتعرض للنوع الذي حذفت منه الأداة ووجه الشبه « التشبيه البليغ » وإن كان لم يسمّه بهذا الاسم الذي لا معنى له في نظرنا ، لأن هذا

---

(١) مواهب الفتاح ، شروح التخليص ج ١ ص ١٥١ .

التشبيه البليغ قد يكون غير بليغ ، وقد يكون التشبيه كامل الأركان أكثر بلاغة منه في موضعه ، والتشبيه أكثر أبواب الخيال وروداً في أشعار العرب وكلامهم . وربما كان هذا الأسلوب أكثر الأساليب البيانية قرباً من الطبيعة للحاجة إليه في التوضيح والتزيين والتقبيح « وهو جار كثير في كلام العرب ، حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد [1] .

ومن أقدم الذين عالجوا التشبيه باعتباره أُسّاً من أسس البيان أبو العباس المبرد ، فقد عقد له في كتابه « الكامل » باباً طويلاً استغرق نحو ثمانين صفحة ، ويقول في أخريات هذا الباب «والتشبيه كثير ، وهو باب كأنه لا آخر له ، وإنما ذكرنا منه شيئاً لئلاّ يخلو هذا الكتاب من شيء من المعاني » [2].

ولكن كان علاج المبرد لهذا الموضوع علاجاً استقرائياً تقليدياً يعرض فيه ألواناً من تشبيهات القدامى والمحدثين ، ويعلق عليها بالاستحسان أو بالاستهجان . وقد يورد في أثناء عرضه الاستطرادي شيئاً من التشبيهات التقليدية ، ولا غرو فإنه من أعلام المحافظين ، فيقول « والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والغزال والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدرة والبيضة [3] . وشبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبي أو البقرة الوحشية ، والأنف بحد السيف ، والفم بالخاتم ، والشعر بالعناقيد ، والعنق بإبريق فضة ، والساق بالجمار [4] .

ومن النادر أن تجد للمبرد شيئاً في الحدود والتقاسيم كقوله : والعرب تشبه على أربعة أضرب ، فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه ، وهو أخس الكلام [5] وعالجه أبو الفرج قدامة علاجاً موجزاً في التحديد على غير عادته ، وأكثر من سرد

---

(١) الكامل ج ٣ ص ٤٢ .
(٢) الكامل ج ٣ ص ٧٨ .
(٣) الكامل ج ٣ ص ١٨ .
(٤) المصدر نفسه ص ٦٦ .
(٥) المصدر نفسه ص ٦٣ .

الشواهد ، وتوضيح التشبيه فيها ، وعرفه بأنه يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ، ويوصفان بها ، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها [1] .

أما أبو هلال فقد عرض للتشبيه عرضاً شاملاً ، عرّفه ، وذكر وجوهه وأنواع الجيد منه ، وعقد باباً لبيان قبح التشبيه وعيوبه .

عرفه بأنه الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ، وقسمه إلى ثلاثة أقسام :

(١) تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون ، مثل تشبيه الليلة بالليلة ، والماء بالماء .

(٢) تشبيه شيئين متفقين يعرف اتفاقهما بدليل ، كتشبيه الجوهر بالجوهر ، والسواد بالسواد .

تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما ، كتشبيه البيان بالسحر ، والمعنى الذي يجمعهما لطافة التدبير .

ثم قسم التشبيه تقسيماً آخر من حيث الصورة ، واللون ، والحسن ، والحركة ، والمعنى .

عرض أبو هلال للتشبيه البليغ ، وجعله ضرباً مستقلاً ، وإن لم يسمّه بهذا الاسم الاصطلاحي ، وهو الذي يحذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه . قال : وضرب منه آخر ، ومنه قول امرىء القيس :

سموتُ إليها بعدما نامَ أهلها سموَّ حَبابِ الماء حالاً على حالِ

فحذف حرف التشبيه .

ومما هو جدير بالنظر أنه جعل بعض الاستعارات تشبيهات ، مع أنه عقد فصلاً مستقلاً للاستعارة ، وعدها من البديع . أورد في باب التشبيه هذا البيت للوأواء الدمشقي :

---

(١) نقد الشعر ١٠٨ .

وأسبلتْ لؤلؤاً من نرجسٍ وسقتْ ورداً وعضّتْ على العنابِ بالبرَدِ

وقال إنه شبه خمسة أشياء بخمسة أشياء [1] . . . ولم يذكر الخطوة التالية وهي استعارة لفظ المشبه به للمشبه . والتشبيه أصل الاستعارة ، لولا أنه خصص للاستعارة باباً خاصاً ، وكذلك استشهاده ببيتي أبي نواس :

يا قمراً أبصرتُ في مـــأتمٍ يندُبُ شجواً بـين أتراب
يبكي فيذري الدرَّ من نرجسٍ ويلطمُ الوردَ بعنّـــابِ

وقول العسكري :

وكئوسٍ إذا دجا الليلُ دارتْ تحت سَقْفٍ مرصّعٍ باللجينِ
وكأنَّ الهلالَ مرآةُ تـــبرٍ ينجلي كل ليلـةٍ أصبعينِ

وعكس ذلك تماماً ما ذهب إليه من عد بعض التشبيهات من الاستعارة ، وهذا الذي نقله صاحب الطراز عن أبي هلال والغانمي والآمدي والخفاجي وغيرهم من علماء البيان ولهم حجتان :

الحجة الأولى : قولهم إن الاستعارة ليس لها آلة ، والتشبيه له الآلة ، فما كانت فيه آلة التشبيه ظاهرة فهو تشبيه ، وما لم تكن فيه ظاهرة فهو استعارة ، فقوله « زيد الأسد » لا آلة فيه فوجب كونه استعارة .

الحجة الثانية : هو أن المفهوم من قولنا « زيد الأسد » مثل المفهوم من قولنا « لقيت الأسد » و « أتاني أسد » فإن كان مفهومهما واحداً في المجاز ، فإذا قضينا بكون أحدهما استعارة وجب أن يكون الآخر كذلك من غير تفرقة بينهما .

ولقد اعترض على مثل هذا الخلط إمام من أئمة النقد في القرن الرابع

(١) الصناعتين ٣٢٩ .

هو القاضي الجرجاني ، صاحب الوساطة ، فقال : وربما جاء ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل ، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعاً من الاستعارة عد فيهما قول أبي نواس :

والحبّ ظهرٌ أنتَ راكبهُ فإذا صرفتَ عِنانه انصَرفا

ولست أرى هذا وما أشبه استعارة ، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه . فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء . وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها . وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى ، حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر [1] .

والوجه الذي يقتضيه القياس في رأي عبد القاهر ، وعليه يدل كلام القاضي في الوساطة ألا تطلق الاستعارة على نحو قولنا « زيد أسد » و « هند بدر » ولكن نقول هو تشبيه ، فإذا قال « هو أسد » لم تقل استعار له اسم الأسد ، ولكن تقول شبهه بالأسد ، وتقول في الأول انه استعارة لا تتوقف فيه ، ولا تتحاشى ألبتة ، وإن قلت في القسم الأول إنه تشبيه كنت مصيباً من حيث تخبر عما في نفس المتكلم وعن أصل الغرض . وإن أردت تمام البيان قلت : أراد أن يشبه المرأة بالظبية ، فاستعار لها اسمها مبالغة . . . إنك في القسم الأول قد عزلت الاسم الأصلي عنه واطرحته ، وجعلته كأنه ليس باسم له ، وجعلت الثاني هو الواقع عليه والمتناول له ، فصار قصدك التشبيه أمراً مطوياً في نفسك ، مكنوناً في ضميرك ، وليس كذلك القسم الثاني ، لأنك قد صرحت فيه بالمشبه ، وذكرك له صريحاً يأبى أن تتوهم كونه من جنس المشبه . . . وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يفصل بين القسمين ، فيسمى

---

(١) الوساطة ٤٠ .

الأول استعارة على الإطلاق ، ويقال في الثاني إنه تشبيه ، فأما تسمية الأول تشبيهاً فغير ممنوع ولا غريب ، إلاّ أنه على أنك تخبر عن الغرض وتنبىء عن مضمون الحال ، فأما أن يكون موضوع الكلام وظاهره موجباً له صريحاً فلا [1] .

وقد تحدث أرسطو عن الاستعارة Metaphor في أكثر من موضع من كتاب الخطابة ، كما أنه يحيل على ما قاله عنها في كتاب الشعر ، فيقول (ج ٣ باب ٤) التشبيه استعارة ، وذلك أنه قليل الاختلاف عنها فعندما يقول الشاعر رجل « انطلق كالأسد » يكون تشبيهاً وأما عندما يقول : « انطلق هذا الأسد » فيكون هذا استعارة [2] .

وكلام أرسطو مع هذا هو أساس ما عرف في البلاغة الاصطلاحية ، فالاستعارة أصلها التشبيه ، أو كما يقول علماء البلاغة العربية : الاستعارة مجاز علاقته المشابهة ، ولكن ضياء الدين أبا الفتح بن الأثير ، وهو بعد صاحب الصناعتين ، لا يكاد يفرق بين التشبيه والاستعارة ، فيجعلهما جنساً واحداً بعد أن يجعل المجاز قسمين ، أولهما : توسع في الكلام ، والآخر التشبيه . ثم يجعل التشبيه ضربين : أحدهما : التشبيه التام ، والآخر التشبيه المحذوف ، فالتشبيه التام أن يذكر المشبه به ، والتشبيه المحذوف أن يذكر المشبه به دون المشبه به وسمي استعارة ، وهذا الاسم وضع الفرق بينه وبين التشبيه التام ، وإلاّ فكلاهما يجوز أن يطلق عليه اسم التشبيه ، ويجوز أن يطلق عليه اسم الاستعارة لاشتراكهما في المعنى [3] .

وذكرها أيضاً الجاحظ وعرفها بأنها « تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه » [4] .

---

(١) راجع دلائل الإعجاز ص ٢٧٧ وما بعدها .
(٢) النقد المنهجي ٤٠ .
(٣) المثل السائر ٢١٤ .
(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٥ .

وكما عد ابن المعتز الاستعارة أول البديع فكذلك جعلها أبو هلال أول أبوابه ، وجاراهما ابن رشيق القيرواني في ذلك فقال : « الاستعارة أفضل المجاز ، وأول أبواب البديع ، وليس في حلى الشعر أعذب منها »[1] .

وظلت الاستعارة كذلك حتى ميزها المتأخرون ، وجعلوها في موضعها من علم البيان حين استواء التقاسيم واستقرارها .

ونحن نرى أن الاستعارة من محاسن الكلام لا شك ، ولكنها ليست ترفاً في الوسع الاستغناء عنه ، كما نظر المتأخرون من البلاغيين إلى البديع . والعسكري لا يجعل التشبيه من البديع ، بل يجعله باباً مستقلاً من أبواب البلاغة ، ثم يجعل الاستعارة أول أبواب البديع ، مع قرب أحدهما من الآخر ، ومع أنه جعل بعض الاستعارات تشبيهاً ، وبعض التشبيهات استعارة ، والاستعارة منتزعها التشبيه لا محالة بالإجماع الذي لا يجحد .

أما الكناية فإن العسكري قد عقد بابين من البديع سمى أولهما « المماثلة »[2] وسمى الآخر « الكناية والتعريض »[3] وما أورد في تعريف المماثلة ينطبق على ما حدّ به المتأخرون الكناية قال : المماثلة أن يريد المتكلم العبارة عن معنى فيأتي بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر ، إلاّ أنه ينبيء إذا أورده عن المعنى الذي أراده ، كقولهم : « فلان نقي الثوب » يريدون لا عيب فيه ، وليس موضوع نقاء الثوب البراء من العيوب ، وإنما استعمل فيه تمثيلاً ، قال امرؤ القيس :

ثيابُ بني عوفٍ طهارٌ نقيّةٌ وأوجههم غرُّ المشاهد غُرّانُ[4]

---

(١) العمدة ج ١ ص ١٨٠ .
(٢) الصناعتين ٣٤٤ .
(٣) الصناعتين ٣٦٠ .
(٤) هكذا في الأصول . وفي ديوانه :
ثياب بني عوف طهارى نقية وأوجههم عند المشاهد غـران
قال أبو علي : غران مثل سودان وحمران ، والأغـر الابيض (هامش الصناعتين ٢٧٧ طبعة الآستانة) .

ويقولون : « فلان أوسع من أبيه ثوباً » أي أكثر منه معروفاً ، و « فلان غمر الرداء »[1] إذا كان كثير المعروف ، قال كثير :

غمرُ الرداءِ إذا تبسّم ضاحكاً غَلِقَتْ لضحكته رقابُ المالِ

وفي الفصل الثاني عشر من البديع « الكناية والتعريض » قال : هو أن يكنى عن الشيء ويعرّض به ولا يصرح ، على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء ، كما فعل العنبري إذ بعث إلى قومه بصرة شوك وصرّة رمل وحنظلة يريد جاءتكم بنو حنظلة في عدد كثير كثير الشوك ، وفي كتاب الله عز وجل « أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء » فالغائط كناية عن الحاجة ، وملامسة النساء كناية عن الجماع ، وقوله تعالى : « وفرش مرفوعة » كناية عن النساء .

ومن التعريض الجيد ما كتب به عمرو بن مسعدة إلى المأمون : أما بعد فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين ، ليتطول في إلحاقه بنظرائه من المرتزقين فيما يرتزقون ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفع بهم ، وفي ابتدائه بذلك تعدّي طاعته ، والسلام ، فوقع في كتابه : « وقد عرفنا تصريحك له وتعريضك بنفسك ، وأجبناك إليهما ، وأوقفناك عليهما » .

وقد فطن لهذا الخلط ضياء الدين بن الأثير وحاول أن يفصل بين الكناية والتعريض فقال : « وقد تكلم علماء البيان فيه ، فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض ولم يفرقوا بينهما ، ولا حدّوا كلا منهما بحد يفصله عن صاحبه ، بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر ، وأدخلوا أحدهما في الآخر ، فذكروا

---

(١) الغمر بالفتح : السخي الكثير العطاء . وانما قال : غمر الرداء ، لأنه أراد بقوله سخي الرجال ، والعرب تفعل هذا فتقول : فدى لك ردائي ، وفدى لك ازاري ، ويريدون بذلك أبدانهم . وقال الاصمعي : اذا قالت العرب الثوب والإزار فانهم يريدون البدن ، وانشد :

الا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخي ثقة ازاري

للكناية أمثلة من التعريض ، وللتعريض أمثلة من الكناية ، فمن فعل ذلك الغانمي وابن سنان الخفاجي والعسكري [1] . . . والذي عندي في ذلك أن الكناية إذا أوردت تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز وجاز ، حملها على الجانبين معاً ، ألا ترى أن اللمس في قوله تعالى « أو لامستم النساء » يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، وكل منهما يصحّ به المعنى ولا يختل ، فاللمس مصافحة الجسد للجسد ، أو المراد باللمس الجماع وذلك مجاز فيه ، وهو الكناية ، وكل موضع ترد فيه الكناية فإنه يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ، ويجوز حمله على كليهما معاً [2] ، على أنه إذا صح في بعض الكنايات الحمل على الحقيقة والمجاز ، فإننا لا نراه صحيحاً في كل أقسامها ، وكيف يمكن الحمل على الحقيقة في « كناية النسبة » في مثل قولهم المجدبين ثوبيه ؟

أما التعريض « فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ، ولا المجازي ، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته بغير طلب : « والله إني لمحتاج ، وليس في يدي شيء ، وأنا عريان ، والبرد قد آذاني ، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب حقيقة ولا مجازاً » [3] .

وقد لخص صاحب الطراز الفروق بين الكناية والتعريض في ثلاثة أمور :

(٣) أن الكناية واقعة في المجاز معدودة منه ، بخلاف التعريض فلا يعدّ منه ، وذلك من أجل كون التعريض مفهوماً من جهة القرينة ، فلا تعلق على باللفظ ، لا من جهة حقيقته ولا من جهة مجازه .

(٢) أن الكناية كما تقع في المفرد [4] ، فقد تكون واقعة في المركب بخلاف التعريض ، فإنه لا موقع له في باب اللفظ المفرد .

---

(١) المثل السائر ٣٧٦ .
(٢) المثل السائر ٣٧٨ .
(٣) المصدر نفسه ٣٨٠ .
(٤) من أمثلة وقوع الكتابة في المفرد قول الله تعالى (ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة . . .) فقد كنى بالنعجة عن المراة . .

(٣) أن التعريض أخفي من الكناية ، لأن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز ، بخلاف التعريض ، فإنما دلالته من جهة القرينة والإشارة [١] .

(٣) وعلم المعاني : كان نشاط العسكري في مباحثه الاصطلاحية ضئيلاً ، وكان عبد القاهر أول من فصل مسائله تفصيلاً في « دلائل الإعجاز » ، وقد عالج أبو هلال من موضوعات علم المعاني باب الإيجاز والإطناب والمساواة عالجه علاجاً شافياً . ولم يزد البلاغيون الذين أتوا بعده على ما فعل العسكري شيئاً في هذا الباب ، اللهم إلاّ تفصيل ضروب الإطناب ، التي ذكر العسكري منها صراحة التكرير ، وذكر الخاص بعد العام بالمثال ، وذكر من أنواعه التي عددها المتأخرون الإيغال [٢] والاعتراض [٣] ، والتكميل والتتميم [٤] ، ذكرها في أنواع البديع ، وهو يقصد من غير شك أن هذه تفيد الكلام حسناً ، وتزيد البيان جمالاً .

---

(١) الطراز ج ١ ص ٣٨٩ .

(٢) الإيغال : هو أن يستوفي معنى الكلام قبل البلوغ الى مقطعه ، ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحا وتوكيدا وحسنا . مثل قول ذي الرمة :

قف العيس في أطلال مية فاسأل رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

فتم كلامه بالرداء ، ثم قال المسلسل فزاد به شيئا ، ثم قال :

أظن الذي يجدي عليك سؤالها دموعا كتبذير الجمان المفصل

فتم كلامه بالجمان ، ثم قال المفصل فزاد شيئا ، وكقول الاعشى :

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فتم كلامه بيضرها ، فلما احتاج الى القافية قال (وأوهى قرنه الوعل) فزاد معنى .

(٣) الاعتراض : هو اعتراض كلام في كلام لم يتم ، ثم يرجع اليه فيتمه كقول النابغة الجعدي :

الا زعمت بنو سعد بأني الا كذبوا كبير السن فان

(٤) التتميم والتكميل : هو أن توفي المعنى حظه من الجودة وتعطيه نصيبه من الصحة ، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه الا تورده أو لفظا يكون فيه توكيده الا تذكره كقوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) فبقوله (وهو مؤمن) تم المعنى ، ومثل قول عمرو بن براق : =

قسم العسكري الإيجاز التقسيم الاصطلاحي الذي لا يزال حتى اليوم ، وأكبر الظن أنه لم يعالجه أحد قبله ممن تكلم في النقد ، وإن كان النحاة قد تكلموا في إيجاز الحذف وذكروا أنواع المحذوف في أبواب متفرقة من النحو .

عرف أبو هلال (إيجاز القصر) بأنه تقليل الألفاظ وتكثير المعاني ووازن بين أسلوب القرآن في قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة » وقول العرب « القتل أنفى للقتل » [1] وهو أثر من آثار مذهب المتكلمين والقائلين في إعجاز القرآن ، ولعل ما عرض أبو هلال في هذا الباب من النصوص القرآنية ، وعلاجه ما فيها من الإيجاز ، وبيان بلاغتها في العبارة والدلالة ، كان أهم النواحي التي عالج بها إعجاز القرآن في كلام مستقيم مفصل في كتاب الصناعتين على أنه مع ذلك لم يقصر الكلام في هذا الموضوع على آي الكتاب الكريم ،

= فلا تأمنن الدهر حرا ظلمته فما ليل مظلوم كريم بنائم

فقوله (كريم) تتميم . وقد جعل العسكري التتميم والتكميل شيئا واحدا ، وقال غيره : التتميم هو أن يؤتي في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة مثل مفعول أو حال مما ليس بجملة مستقلة ولا ركن كلام ، وهذه الفضة تفيد نكتة كالمبالغة في قوله تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) « أي مع حبه » والضمير للطعام أي مع اشتهائه والحاجة اليه . وعندهم أن التكميل هو الاحتراس وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع هذا الايهام ، كقول الشاعر :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي

فلما كان المطر قد يئول الى خراب الديار وفسادها اتى بقوله (غير مفسدها) دفعا لذلك .

(١) قال أبو هلال : ويتبين فضل هذا الكلام اذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه وهو قولهم (القتل أنفى للقتل) فصار لفظ القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه في الفائدة . وهو إبانة العدل لذكر القصاص ، وذكر العوض المرغوب فيه لذكر الحياة ، واستدعاء الرغبة والرهبة لحكم الله به ، ولايجازه في العبارة ، فان الذي هو نظير قولهم (القتل أنفى للقتل) انما هو (القصاص حياة) وهذا أقل حروفا من ذلك ، ولبعده من الكلفة بالتكرير وهو قولهم : القتل أنفى للقتل ، ولفظ القرآن بريء من ذلك ، وبحسن التأليف وشدة التلاؤم المدرك بالحس ، لأن الخروج من الفاء الى اللام أعدل من الخروج من اللام الى الهمزة .

بل إنه أورد إلى جانبها كثيراً من موجز القول في الحديث الشريف وكلام العرب منظومه ومنثوره .

ثم عرض بعد ذلك للقسم الآخر وهو (إيجاز الحذف) فذكر أنواعه ، ولا تزال هذه الأنواع عمدة التقسيم إلى اليوم في أبواب البلاغة الاصطلاحية وهذه الأنواع :

(١) حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه ، ويجعل الفعل له كقوله تعالى « واسأل القرية » أي أهلها ، وقوله تعالى « وأشربوا في قلوبهم العجل » أي حبه . وقوله عز وجل « الحج أشهر معلومات » أي وقت الحج . وقال المتنخل الهذلي :

يمشي بيننـــا حانوتُ خَمرٍ   من الخرس الصّراصرة القطاط[1]

يعني صاحب حانوت ، فأقام الحانوت مقامه . وقال الشاعر :

لهم مجلسٌ صهبُ السّبال أذلة   سَواسية أحرارُهـــا وعبيدُها

يعني أهل المجلس :

(٢) وقوع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ويضمر للآخر فعله ، وهو قول الله تعالى « فاجمعوا أمركم وشركاءكم » معناه : وادعوا شركاءكم ، وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود . وقال الشاعر :

قراهُ كانَّ اللهَ يجـــدعُ أنفَـــهُ   وعينيه إنْ مولاه ثابَ له وَفْرُ

أي يفقأ عينيه . . . وقول الآخر :

إذا ما الغانياتُ برَزْنَ يوماً   وزجّجْنَ الحواجبَ والعيونا

العيون لا تزجج ، وإنما أراد : وكحلن العيون .

---

(١) الخرس الصراصرة : هم خدم من العجم لا يفصحون فلذلك جعلهم خرسا ، والقطط : شعر الزنجي لقصره وتجعده ، وقيل الصراصرة نبط الشام .

(٣) أن يأتي الكلام على أن له جواباً ، فيحذف الجواب اختصاراً ، لعلم المخاطب كقوله عز وجل « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعاً » أراد لكان هذا القرآن فحذف . وقوله تعالى « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم » أراد لعذّبكم . وقول الشاعر :

فأقسمُ لو شيءٌ أتـــانا رسولهُ سواك ولكن لم نجد لك مدفعـــا

أي لرددناه . . .

(٤) حذف الكلمة والكلمتين ، كقوله تعالى « وأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم » أي : فيقال لهم . وقوله تعالى « وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً » أي : ووصى بالوالدين إحساناً .

وقال النمر :

فإنّ المنيةَ من يخشَها فسوفَ تصادفهُ أينما

أي : أينما ذهب . . .

(٥) ومنها القسم بلا جواب ، كقوله تعالى « ق » والقرآن المجيد ، بل عجبوا » معناه والله أعلم : والقرآن المجيد لتبعثن !

(٦) ومن الحذف إسقاط « لا » من الكلام في مثل قوله تعالى « يبين الله لكم أن تضلوا » أي : لئلاّ تضلوا . وقوله تعالى « أن تحبط أعمالكم » أي : لئلاّ تحبط أعمالكم . وقال امرؤ القيس :

فقلتُ يمينُ اللهِ أبرحُ قـــاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي : لا أبرح قاعداً . . .

(٧) ومن الحذف إضمار غير مذكور ، كقوله تعالى « حتى توارت بالحجاب » يعني الشمس بدأت في المغيب . وقوله تعالى « ما ترك على ظهرها من دابة » يعني على ظهر الأرض . وقوله « فأثرن به نقعاً » أي بالوادي .

وقال لبيد :

حتى إذا ألقتْ يـداً في كافرٍ وأجنّ عوراتِ الثغورِ ظلامها (١)

يعني الشمس تدأب في المغيب .

(٨) وضرب منه آخر « لم يسمه أبو هلال وهو الذي يمكن أن يسمى « نزع الخافض » ومثل له بقوله تعالى « واختار موسى قومه سبعين رجلاً » أي من قومه .

(٩) وضرب منه أن يحذف الشيء أولاً ، ثم يذكر آخراً ، كقول الله تعالى في أول سورة الرحمن « فبأيّ آلاء ربكما تكذبان » وذكر قبل ذلك الإنسان ولم يذكر الجان ثم ذكره . ومثله قول المثقب :

فما أدري إذا يمّمْتُ أرضاً أريـدُ الخيرَ أيّهما يليني
أألخير الـذي أنـا أبتغيهِ أم الشرّ الذي هو يبتغيني

فكنى عن الشر قبل ذكره ثم ذكره . . .

وأكثر هذه التقاسيم كما رأينا مستقى من ثقافة الرجل النحوية ، وقد عولج بعضها في أبواب من النحو متفرقة ، ولكن العسكري استطاع أن ينظمها وأن يجمع شملها ، وأخذها عنه علماء البلاغة وشراحها فيما بعد .

---

(١) الكافر : الليل ، واجن : أظلم ، والثغور : كل فرجة في جبل أو بطن واد أو طريق مسلوك . قال ابن السكيت : ان لبيدا سرق هذا المعنى من قول ثعلبة بن صعيرة المازني يصف الظليم والنعامة ورواحهما الى بيضهما عند غروب الشمس :

فتذكرا ثقـلا رئيدا بعدمـا ألقت ذكاء يمينها في كافـر

ثم انتقل إلى الطرف الثاني وهو الإطناب ، فعالجه بما عالج به الإيجاز ، فأورد حجة أصحابه بأن المنطق إنما هو بيان . . . الخ .

وعرض من أنواع الإطناب الاصطلاحية للتكرير والاتباع بقصد التوكيد ، وذكر الخاص بعد العام ، وإن لم يسمه بهذا الاسم ، ولكنه مثل له بقول حسان بن ثابت :

إن شرخَ الشّباب والشعر الأسـ ودِ ما لم يعاصَ كان جنونا

فالشعر الأسود داخل في شرخ الشباب ، وكذلك قول أبي تمام :

ربَّ خفضٍ تحت السّرى وغناءٍ من عناءٍ ونضرةٍ من شُحوبِ

الغناء داخل في الخفض ، والعناء داخل في السرى . . . ومما هو أجل من هذا كله قول الله عز وجل «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي » فالإحسان داخل في العدل ، وإيتاء ذي القربى داخل في الإحسان ، والفحشاء داخل في المنكر ، والبغي داخل في الفحشاء .

تكلم أبو هلال عن الحد الوسط وهو (المساواة) وعرّفها بأن تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعض عن بعض ، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب ، وإليه أشار القائل بقوله « كأن ألفاظه قوالب لمعانيه » أي لا يزيد بعضها عن بعض ، فمما في القرآن من ذلك قوله عز وجل « حور مقصورات في الخيام » وقوله تعالى « ودّوا لو تدهن فيدهنون » وفي الحديث قوله صلى الله عليه وسلم « لا تزال أمتي بخير ما لم ترَ الأمانة مغنماً والزكاة مغرماً » . ولم يستطع أحد من العلماء أن يزيد على ما قال أبو هلال في المساواة شيئاً .

ولعل أبا هلال كان أول من تكلم من علماء البلاغة في الفرق بين الإطناب

والتطويل ، ولهذا كان من الخطأ أن ينسب العلويّ في الطراز [1] إلى أبي هلال ما ليس من رأيه ، فيدعي أنه لم يفرق بينهما في قوله : وأما التفرقة بينه (الإطناب) وبين التطويل فاعلم أن علماء البيان لهم في ذلك مذهبان : المذهب الأول أن الإطناب هو التطويل ، وهذا هو المحكي عن أبي هلال العسكري ، وعن الغانمي أيضاً ، وقالا إن كتب الفتوح والتقاليد كلها ينبغي أن تكون مطولة كثيرة الإطناب ، لأنها مما يقرأ على عوام الناس ، لافتقارها إلى البيان ، فكلامهما يقضي بأنه لا تفرقة بين الإطناب والتطويل .

وهذا الذي ذكره العلوي منقول عن المثل السائر لابن الأثير مع عدم الدقة في النقل ! ذلك أن ابن الأثير يذكر أن علماء البيان قد اختلفوا في الإطناب فمنهم من ألحقه بالتطويل الذي هو ضد الإيجاز ، وهو عنده قسم غيره ، فأخطأ من حيث لا يدري ، كأبي هلال العسكري والغانمي ، حتى إنه قال إن كتب الفتوح وما يجري مجراها مما يقرأ على عوام الناس ينبغي أن تكون مطولة مطنباً فيها [2] .

والذي صرح به أبو هلال هو أن العبارة عن المعنى بكلام طويل لا فائدة في طوله ويمكن أن يعبر عنه بأقصر منه معيب ، ومثل له يقول النابغة :

تبيّنتُ آياتٍ لهـا فعرفتُهـا لستة أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

كان ينبغي أن يقول لسبعة أعوام ، ويتم البيت بكلام آخر ، يكون فيه فائدة ، فعجز عن ذلك فحشا البيت بما لا وجه له [3] .

---

(١) الطراز ج ٢ ص ٢٣١ .
(٢) المثل السائر ٣٣٢ .
(٣) انظر الصناعتين : ٣٥ (طبعة الآستانة) .

وأنت ترى أن هذا القول ينسبه ابن الأثير إلى الغانمي وحده — فالضمير للمفرد ، وهو يعود على أقرب مذكور — وأخذ العبارة صاحب الطراز فسواها وجعلها « وقالا » ونسب إلى الرجل رأياً لم يقل به !

ومن خير ما يختص به أبو هلال كلامه في اختلاف المواقف والأحوال ، وتنزيل الكلام منزلته وفقاً لما يقتضيه كل منهما من الإيجاز والإطناب ، ولا سيما فن الكتابة الذي وفاه حقه من الكلام في هذا الموضوع .

فالمعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهي سبيلها أن تؤكد غاية التوكيد بكيفية نظم الكلام لا بكثرة اللفظ ، لأن حكم ما ينفذ عن السلطان في كتبه شبيه بحكم توقيعاته من اختصار اللفظ وتأكيد المعنى .

وسبيل الإحماد والإذمام والثناء والتقريظ ، والذم والاستصغار ، والعدل والتوبيخ أن يشبع الكلام فيه ، ويمد القول على حسب ما يقتضيه آثار المكتوب إليه في الإحسان والإساءة والاجتهاد والتقصير ، ليرتاح بذلك قلب المطيع ، وينبسط أمله ، ويرتاع قلب المسيء ، ويأخذ نفسه بالارتداع .

فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم فإن سبيل ما كان واقعاً منها في إنهاء الأخبار وتقرير صور ما ياونه من الأعمال ويجري على أيديهم من صنوف الأموال أن يمدّ القول فيه حتى يبلغ غاية الشفاء والإقناع ، وتمام الشرح والاستقصاء ، إذ ليس للإيجاز والاقتصار عليه موضع ، ويكون ذلك بالألفاظ السهلة القريبة المأخذ السريعة إلى الفهم ، دون ما يقع فيه استكراه وتعقيد .

وربما تعرض الحاجة في إنهاء الخبر إلى استعمال الكتابة والتورية عن الشيء دون الإفصاح ، لما في التصريح من هتك الستر ، في حكايته عن عدو أطلق لسانه به ، وفيه اطراح مهابة الرئيس ، فيجب إجلاله عنه .

وسبيل ما يكتب به في باب الشكر ألا يقع فيه إسهاب ، فإن إسهاب التابع

في الشكر إذا رجع إلى خصوصية نوع من الإبرام والتثقيل ، ولا يحس فيه أن يستعمل الإكثار من الثناء والدعاء أيضاً ، فإن ذلك فعل الأباعد الذين لم تتقدم لهم وسائل من الخدمة ومقدمات في الحرمة .

وليس يحسن أيضاً تكرير الدعاء في صدر الكتاب والرقاع عندما يجريه من ذكر الرئيس فإن ذلك مشغلة وكلفة ، والحكم فيما يستعمله الكاتب من ذلك في الكتب مشبه بحكم ما يستعمل منه شفاهاً ، ويقبح من خادم السلطان أن يشغل سمعه في مخاطبته إياه بكثرة الدعاء له ، وتكثيره عند استئناف كل لفظة.

وسبيل ما يكتب به التابع إلى المتبوع في معنى الاستعطاف ومسألة النظراء ألا يكثر من شكاية الحال ورقتها واستيلاء الخاصة عليه فيها ، فإن ذلك يجمع إلى الإبرام والإضجار شكاية الرئيس لسوء حاله وقلة ظهور نعمته عليه ، وهذا عند الرؤساء مكروه جداً . وسبيل ما يكتب به في الاعتذار من شيء أن يتجنب فيه الإطناب والإسهاب إلى إيراد النكت التي يتوهم أنها مقنعة في إزالة الموجدة ، ولا يمعن في تبرئة ساحته في الإساءة والتقصير ، فإن ذلك مما يكرهه الرؤساء والذي جرت به عادتهم الاعتراف من خدمهم بالتقصير ، ليكون لهم فيما يعقبون ذلك من العفو والتجاوز موضع منّة مستأنفة تستدعي شكراً ، وعارفة مستجدة تقتضي نشراً .

ولا شك أن تنبه أبي هلال إلى أمثال هذه الملاحظة يدل على فطنة ومعرفة بأحوال النفوس ، وما يرضي الأهواء ، وقد وفق في ذلك إلى أبعد حدود التوفيق .

أما ربط أجزاء الكلام بعضها ببعض ، وهو الذي سماه العسكري « الفصل والوصل » ، كما سماه غيره وعدّ معرفته البلاغة كلها ، فقد نقل ما أورد غيره فيه ، وبين ضرورة معرفة مواضع كل منهما للكاتب والخطيب والشاعر ، وعالجه علاجاً أدبياً لا أثر فيه لتنظيم ولا تقسيم ، ولا اهتمام بتحديد ولا تعريف . . .

وإنما الباب كله تحذير من الخلط ، وبيان لوسيلة اتقاء هذا الخلط . ولكننا نستطيع أن نستخلص من ثنايا كلامه بعض المقاييس البلاغية التي استضاء بها تابعوه في تآليفهم في البلاغة ، وجعلوا لها الألقاب والمصطلحات .

فمن ذلك قول أكثم بن صيفي الكتابه إذا كاتبوا ملوك الجاهلية « افصلوا بين منقضى كل معنى ، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً بعضه ببعض [1] » وقول الحارث بن شمر الغساني لكاتبه المرقش «إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبعيته من الألفاظ ، فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق نفرت القلوب عن وعيها ، وملته الأسماع ، واستثقلته الرواة » وكان بزرجمهر يقول : « إذا مدحت رجلاً وهجوت آخر فاجعل بين القولين فصلاً » حتى تعرف المدح من الهجاء كما تفعل في كتبك إذا استأنفت القول ، وأكملت ما سلف من اللفظ » فالفصل بين منقضى كل معنى ، والفصل إذا نزع بالكاتب الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما هو فيه ، والفصل بين المديح والهجاء ، وعند استئناف القول . . . كل هذا من المقاييس الصحيحة التي اعتمد عليها وأخذ بها مقننو البلاغة ، أليسوا يقولون : إن التباين التام بالاختلاف بين الجملتين خبراً وإنشاء ، أو بألاّ تكون بينهما مناسبة ما ، يوجب الفصل ؟ وهذا الذي سماه علماء البلاغة بعد أبي هلال « كمال الانقطاع » ، وإن لم يضع له أبو هلال اسماً ؟

ثم أليس وصل أجزاء الكلام بعضها ببعض إذا كان معجوناً بعضه ببعض في عبارة أكثم بن صيفي هو الذي قرره البلاغيون فيما بعد من وجوب الوصل إذا قصد إشراك الجملتين في الحكم الإعرابي . أو إذا اتفقنا خبراً وإنشاء ، وكانت بينهما مناسبة تامة ، ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل ؟

---

(١) الصناعتين ٤٢٥ .

(٣) وعلم البديع : كان أول من ألف فيه عبد الله بن المعتز وجمع في مؤلّفه ما وقع من ضروب تحسين الكلام في كتاب الله وحديث الرسول وكلام بلغاء العرب ، وأطلق على كل ضرب منها اسماً خاصاً ، ولكنه لم يحدد معاني بعضها كما حد معاني بعضها الآخر ، إذ هو في بعضها يكتفي بأن يفيض في التمثيل ، أما العسكري المولع بالتقسيم والقول في الحدود فهو الذي أوضحها ، وحدد معالمها ، وعرف كل ضرب منها التعريف الذي أخذه من جاء بعده ممن كتب في البلاغة ، ولا يزال أكثر هذه التعاريف عمدة البلاغة إلى اليوم .

جعل ابن المعتز البديع خمسة أضرب هي الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي . وحدد بعضها تحديداً غير كاف ، واقتصر في بعضها على المعنى اللغوي ولم يزد شيئاً ، وفي الباقي اقتصر على التمثيل .

هذه أبواب البديع الخمسة التي حصر ابن المعتز القول فيها ، ورأى أنه كمل بها ، ثم أضاف إليها غيرها سماها « بعض محاسن الكلام والشعر » ومحاسنهما كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدّعي الإحاطة بها ، حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره ، وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ، ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ، ولا ضيق في المعرفة ، فمن أحب أن يقتدي بنا ويقتصر على تلك الخمسة فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره [1] وهذه المحاسن هي : الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج ، تأكيد المدح ، تجاهل العارف ، الهزل يراد به الجد ، حسن التضمين ، التعريض والكناية ، الإفراط في الصفة ، حسن التشبيه ، لزوم ما لا يلزم ، حسن الابتداء .

---

(١) البديع ص ١٠٦ .

وكان قدامة بن جعفر معاصراً لعبد الله بن المعتز ، فجمع في كتابه « نقد الشعر » طائفة من المحسنات البديعية ، ولكنه لم يذكرها على أنها بديع ولا ذكر اسم البديع ، بل ذكر هذه المحسنات على أنها نعوت للشعر ، ومحاسن له ، منها ما هو نعت للوزن كالترصيع ، وما هو نعت للقوافي كالتصريع ، وما يتصل بالمعاني كالغلوّ ، والتشبيه ، وصحة التقسيم ، وصحة التفسير ، وصحة المقابلة ، والتتميم ، والمبالغة ، والتكافؤ ، والالتفات ، والإشارة ، والإرداف ، والتمثيل ، وما هو نعت للفظ والمعنى كالمطابق ، والمجانس ، وما هو نعت للقوافي كالتوشيح والإيغال .

وجاء أبو هلال وهو رجل الصناعة الولوع بها ، ويتحلية الأدب بفنونها فاقتبس كعادته من كلام ابن المعتز ما جعله مقدمة لهذه الفنون : قال : هذه أنواع البديع التي ادعى من لا روية له ، ولا روية عنده أن المحدثين ابتكروها ، وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين ، لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف ، وبرىء من العيوب كان في غاية من الحسن ونهاية الجودة .

جمع أبو هلال في الباب التاسع من الصناعتين محسنات البديع ، فجعلها خمسة وثلاثين محسناً ، ثم اتفق له بعد تحريرها محسن جديد ، وقد قرر أنه ابتكر من هذه المحسنات الخمسة والثلاثين ستة محسنات عدا هذا الجديد الذي اهتدى إليه ، وعلى هذا فإنه يكون قد أخذ مما أحصاه السابقون تسعة وعشرين محسناً ، واستنبط بنفسه من المحسنات الفنون السبعة الآتية :

(١) التشطير :

وهو أن يتوازن المصراعان والجزآن ، وتتعادل أقسامهما مع قيام كل منهما بنفسه ، واستغنائه عن صاحبه ، فمثاله من النثر قول بعضهم . « من

عتب على الزمان طالت معتبته ، ومن رضي عن الزمان طابت معيشته » . وقول الآخر : « الجود خير من البخل ، والمنع خير من المطل » . وقول الآخر « رأس المداراة ، ترك المماراة » فالجزآن من هذه الفصول متوازناً الألفاظ والأبنية ، ومثاله من المنظوم قول أوس بن حجر :

فتحدركم عبسٌ إلينـــا وعامرٌ وترفعنا بكرٌ إليكم وتغلبُ

ونلاحظ هنا ملاحظتين :

إحداهما : أن التشطير ليس ببعيد عن « الازدواج » وهو أن تكون الفواصل على زنة واحدة ، إلاّ في اشتراط قيام كل فاصلة من الفاصلتين بنفسها ، واستغناء كل منهما عن صاحبتها .

والملاحظة الأخرى : أن المثال الثالث الذي أتى به لا ينطبق عليه شرطه الذي أورده في التشطير ، من استغناء كل فاصلة عن صاحبتها ، فإن « ترك المماراة » تمام الجملة وخبر المبتدأ « رأس المداراة » فلا استغناء لواحدة عن الأخرى ، أما سائر الأمثلة فينطبق عليها التعريف صحيحاً . وعنـــد البلاغيين بعد أبي هـــلال أن « التشطير » ضرب من السجع من غير اشتراط التوازن ، فقد قيل إن : السجع غير مختص بالنثر ، وأنه قد يكون في الشعر مثل قول أبي تمام :

تجلّى به رُشْدي وأثرتْ به يـــدي وفاض به تمدي وأورى به زَنْدي

وكذلك قول الخنساء :

حامي الحقيقةِ محمودُ الخليقةِ مهديُّ الطريقةِ نفّاعٌ وضرّارُ

وقول الآخر :

ومكارمُ أوليتَها متورّعاً وجرائم ألغيتَهـــا متبرّعا

ومن السجع على هذا القول — أي القول بعدم اختصاصه بالنثر — «التشطير »

وهو جعل كل من شطرى البيت سجعة مخالفة لأختها كقول أبي تمام :

تدبيرُ مُعتصم باللهِ منتقمٍ لله مرتقبٍ في الله مرْتغِبِ

فالشطر الأول سجعة مبنية على الميم ، والثانية سجعة مبنية على الباء .

(٢) المجاورة :

عرفها أبو هلال بأنها « تردد لفظتين في البيت ، ووقوع كل منهما بجانب الأخرى ، أو قريباً منها ، من غير أن تكون إحداهما لغواً لا يحتاج إليها » وذلك كقول علقمة :

ومطعم الغُنْمِ يوم الغُنْم مطعمُهُ أنّى توجّــه والمحرومُ محرومُ

فقوله : « الغنم يوم الغنم » مجاورة ، و « المحروم محروم » مثله . وقول الآخر :

* وتندقّ منها في الصّدورِ صدورُها *

وقول أوس بن حجر :

كــأنها ذُو وُشُومٍ بينَ مأفِقَةٍ فالقُطْقُطَانَة والمذعورُ مذعورُ[1]

وجعل العسكري هذا المحسّن في الشعر وحده ، إذ لم يأت بأمثلة منه في المنثور .

(٣) التطريز :

وهو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن ، فيكون فيها كالطراز في الثوب ، وهذا النوع قليل في الشعر ، وأحسن ما جاء فيه قول أحمد بن أبي طاهر [2] .

---

(١) الوشوم : العلامات ، مافقة والقطقطانة : موضعان .

(٢) روى أبو هلال هذا الشعر ايضا في ديوان المعاني ، وفي هامشه انه قاله في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، على ما في « جنى الجنتين في تمييز نوعي المثنيين » للمجي .

إذا أبو قاسمٍ جادت لنا يدُهُ لم يحمدِ الأجودان البحرُ والمطرُ[1]
وإن أضاءتْ لنــا أنوارُ غُـرّتــهِ تضاءل الأنوران الشمسُ والقمرُ[2]
وإنْ مضى رأيهُ أو حَدّ عزمتِه تأخَّر الماضيان السيفُ والقدرُ
من لم يكن حذراً من حدّ صولته لم يدرِ ما المزعجان الخوفُ والحذرُ

فالتطريز في قوله : « الأجودان » و « الأنوران » و « الماضيـــان » و « المزعجان » .

وقد نسب العلويّ في الطراز[3] الأبياتَ لابن الرومي في مدح عبد الله ابن سليمان بن وهب ، وجعلها في باب آخر سماه « التوشيع » ، قال : وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن أن « يأتي المتكلم بمثنى يفسره بمعطوف ومعطوف عليه ، وذلك من أجل أن التثنية أصلها العطف ، فيوشع الاسم المثنى بما يدل على معناه ، ويرشد إليه على جهة العطف » . ومثاله قوله عليه السلام : « يكبر ابن آدم ويشب معه خصلتان : الحرصُ ، وطول الأمل » . وقوله عليه السلام : « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل ، وسوء الخلق » . ومنه قول ابن الرومي يمدح عبد لله ابن سليمان بن وهب . . . وأورد الأبيات .

وعلى هذا فقد اختلف العسكري والعلوي في التسمية ، كما اختلفا في التعريف ، وقد ذكر العلوي « التطريز » أيضاً ، ولكن بمعنى يخالف المعنى الذي ذهب إليه العسكري فقال : هو تفعيل من طرّزت الثوب ، إذا أتيت فيه بنقوش مختلفة ، واشتقاقه من « الطراز » وهو معرّب ، وهو في مصطلح علماء البيان مقول على ما يكون في صدر الكلام والشعر ، مشتملاً على ثلاثة سماء مختلفة المعاني ، ثم يؤتي بالعجز ، فتكرر فيه الثلاثة بلفظ واحد ، ومن أمثلته ما قال بعضهم :

---

(١) الذي في ديوان المعاني (اذا أبو أحمد . . .) .
(٢) الذي في ديوان المعاني (تضاءل النيران . . .) .
(٣) الطراز ج ٣ ص ٨٩ .

وتسقيني وتشربُ من رحيقٍ خليق أن يلقب بالخلوقِ
كأنّ الكأس في يدها وفيها عقيقٌ في عقيقٍ في عقيقِ

وأراد بالثلاثة : يدها ، والكأس ، والخمر ، وكلها محمرة ، فكرر لفظ « العقيق » إشارة إلى ما ذكرناه [1] .

ولا صلة بين هذا الكلام سواء من ناحية التعريف ، أو من ناحية الاستشهاد والمعنى الذي حدد به العسكري التطريز .

(٤) الاستشهاد والاحتجاج :

وهذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين ، وهو أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر ، ومجراه مجرى التذييل لتوليد لمعنى وهو « أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته » . ومثاله من النثر ما كتب به الصاحب بن عباد في فصل له : « فلا تقس آخر أمرك بأوله ، ولا تجمع بين صدره وعجزه ، ولا تحمل خوافي صنعك على قوادمه ، فالإناء يملؤه القطر فيفعم ، والصغير يقترن بالصغير فيعظم ، والداء يلم ثم يصطلم ، والجرح يتباين ثم ينفتق ، والسيف يمس ثم يقطع ، والسهم يرد ثم ينفذ » . ومثاله من الشعر قول الشاعر :

إنما يعشَقُ المنايـــا من الأقـ وامِ من كان عاشقاً للمعالي
وكذلك الرّماحِ أول ما يكـ سر منهنّ في الحروب العوالي

وقول أبي تمام :

عُتِقَتْ وسيلتُه وأيةُ قيمةٍ للمشرفيّ العضْبِ ما لم يَعْتُقُ

والتذييل الذي أجرى العسكري الاستشهاد مجراه معدود عند الأدباء

(١) الطراز ج ٣ ص ٩٢ .

وعلماء البلاغة في الدرجة القصوى من البلاغة ، وله في الكلام موقع جليل ومكان شريف خطير ، لأن المعنى يزداد به انشراحاً والمقصد اتضاحاً ، وقال بعض البلغاء « للبلاغة ثلاثة مواضع : الإشارة ، والتذييل ، والمساواة [1] وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه ، حتى يظهر لمن لم يفهمه ، ويتوكد عند من فهمه . . . » وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة ، والمواقف الحافلة ، لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم والبعيد الذهن والثاقب القريحة والجيد الخاطر ، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكد عند الذهن اللقن ، وصح للكليل البليد ، ومثاله من القرآن قول الله عز وجل « ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازي إلاّ الكفور » .

والفرق بينهما كما يبدو لنا أن « الاستشهاد أو الاحتجاج » إنما يكون بشيء مستقل عما سيق له الكلام ، وأن التذييل الذي يعنيه العسكري كما يبدو من أمثلته هو المتصل معناه بمعنى ما سيق له الكلام ، ولقد قسم السكاكي التذييل قسمين : أحدهما ما يجري مجرى المثل ، وهو ما استقل بإفادة المراد ، دون توقف على ما قبله ، وهذا هو « الاستشهاد أو الاحتجاج » عند العسكري والآخر هو ما لا يجري مجرى المثل ، فلا يستقلّ بإفادة المراد بل يتوقف على ما قبله ، وإنما لم يخرج مخرج المثل ، لأن المثل وصفه الاستقلال ، لأنه كلام تام نقل عن أصل استعماله لكل ما يشبه حال الاستعمال الأول ، كما هو معروف في الاستعارة التمثيلية [2] ، وهذا النوع « ما لا يجري مجرى المثل » هو وحده « التذييل » عند أبي هلال ، وهذا الحسن البديعي يكون في الشعر كما يكون في النثر ؛ وجعله البلاغيون بعد أبي هلال ضرباً من ضروب الإطناب في علم المعاني .

---

(١) الصناعتين ٣٦٤ .
(٢) شروح التلخيص ج ٣ ص ٢٢٦ .

(٥) المضاعفة :

هي أن يتضمن الكلام معنيين : معنى مصرحاً به ، ومعنى كالمشار إليه [١] وذلك مثل قول الله تعالى « ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك ، أفأنت تهدي العُمى ولو كانوا لا يبصرون » فالمعنى المصرح به في هذا الكلام أنه لا يقدر أن يهدي من عمي عن الآيات ، وصم عن الكلم البينات ، بمعنى أنه ليصرف قلبه عنها ، فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها ، والمعنى المشار إليه فضل السمع على البصر ، لأنه جعل مع الصمم فقدان العقل ، ومع العمى فقدان النظر فقط . ومن نثر الكتّاب ما كتب به الحسن بن وهب : « وكتابي إليك وشطر قلبي عندك ، والشطر الآخر غير خلو من تذكرك ، والثناء على عهدك ، فأعطاك الله بركة وجهك ، وزاد في علو قدرك ، والنعمة عندك ، وعندنا فيك » ! فقوله « بركة وجهك » فيه معنيان أحدهما : أنه دعا له بالبركة ، والآخر : أنه جعل وجهه ذا بركة عظيمة ، ولعظمها عدل إليها في الدعاء عن غيرها من بركات المطر وغيره .

ومثله قول أبي العيناء : « سألتك حاجة فرددْت بأقبحَ من وجهك ؟ » فتضمّن هذا اللفظ قبح وجهه ، وقبح ردّه . . . ومن المنظوم قول الأخطل :

قومٌ إذا استنبحَ الأضياف كلبهم قالوا لأمّهم بُولي على النارِ

فأخبر عن إطفاء النار فدل على بخلهم . وأشار إلى مهانتهم ومهانة أمهم عندهم ، وهذا المحسن كما رأيت يكون في الشعر كما يكون في النثر .

(٦) التلطف :

قال في تعريفه : هو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجّنه ، والمعنى الهجين

---

(١) الصناعتين ٤١٠ .

حتى تحسّنه ، فمن ذلك أن يحيى بن خالد البرمكي قال لعبد الملك بن صالح : « أنت حقود ! » فقال عبد الملك : « إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندي لباقيان » ! فقال يحيى : « ما رأيت أحداً احتج للحقد حتى حسّنه غيرك . . . » ورأى على رجل طيلسان صوف ، فقال له : أيعجبك طيلسانك هذا » ؟ قال : « نعم ! » قال : إنه كان على شاة قبلك ! » فهجّنه من وجه قريب .

ونحن نرى أن هذا الأسلوب « أسلوب التلطف » قريب من أسلوب المناظرة المعروف ، وفيها يتصدى المتناظران لرأي يؤيده أحدهما ، ويفنده غيره بأدلة خطابية ، وإن كان غير مقتنع بصحة ما يقول ، ولكن غايته إبراز المقدرة الكلامية والموهبة البيانية ، وهو أسلوب الخطابة والجدل الذي شاع عند اليونان قديماً واشتهر به جماعة السفسطائيين .

ويعجب العسكري رأي ابن المقفع في تعريف البلاغة أنها كشف ما أغمض من الحق ، وتصوير الحق في صورة الباطل ، فيقول « العسكري » [1] : والذي قاله أمر صحيح ، لا يخفى موضع الصواب فيه على أحد من أهل التمييز والتحصيل وذلك لأن الأمر الظاهر الصحيح الثابت المكشوف ينادي على نفسه بالصحة ولا يحوج إلى التكلف لصحته ، حتى يوجد المعنى فيه خطيباً ، وإنما الشأن في تحسين ما ليس بحسن ، وتصحيح ما ليس بصحيح بضرب من الاحتيال والتخيل ، ونوع من العلل والمعاريض والمعاذير ، ليخفي موضع الإشارة ، ويغمض موضع التقصير ، وما أكثر ما يحتاج الكاتب إلى هذا الجنس عند اعتذاره من هزيمة ، أو حاجته إلى تغيير رسم ، أو رفع منزلة دني له فيه هوى ، أو حط منزلة شريف استحق ذلك منه ، إلى غير ذلك من عوارض أموره .

---

(١) الصناعتين ٥٣ .

فأعلى رتب البلاغة أن يحتج للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود ، وللمحمود حتى يصيره في صورة المذموم .

(٧) المشتق :

قال أبو هلال : وقد عرض لي بعد نظم هذه الأنواع نوع آخر لم يذكره أحد ، وسميته « المشتق »[1] وهو على وجهين : فوجه منهما أن يشتق اللفظ من اللفظ ، والآخر أن يشتق المعنى من اللفظ ، فاشتقاق اللفظ من اللفظ هو مثل قول الشاعر في رجل يقال له بنخاب : « وكيف ينجح من نصف اسمه خابا » قال : وقلت في البانياس :

في البانياسِ إذا أوطئْتَ ساحتها خوفٌ وحيفٌ وإقلالٌ وإفلاسُ
وكيف يطمعُ في أمنٍ وفي دعةٍ من حلَّ في بلدٍ نصفُ اسمه ياسُ

واشتقاق المعنى من اللفظ ، مثل قول أبي العتاهية :

حُلقت لحيةُ موسى باسمهِ وبهارونَ إذا ما قُلبا

وقال ابن دريد :

لو أوحيَ النحوُ إلى نفطويه ما كان هذا النحوَ يُقرا عليهِ
أحرقهُ اللهُ بنصفِ اسمهِ وصيَّر الباقي صُراخاً عليهِ

---

(١) فائدة ــ ذكر ابن حجة في خزانته عند كلامه على الاشتقاق ما لفظه : الاشتقاق استخرجه الإمام أبو هلال العسكري ، وذكره في آخر أنواع البديع من كتابه المعروف بالصناعتين ، وعرفه بأن قال : هو أن يشتق المتكلم من الاسم العلم معنى في غرض يقصده من مدح أو هجاء أو غيره، كقول ابن دريد في نطويه (وأنشد) ... قلت : وهذا مما يتعجب منه، فان الفصل بجملته أمامك ، وليس فيه مما حكاه سوى بيتي ابن دريد، فتأمل ! (تعليق السيد محمد أمين الخانجي على نسخة الصناعتين التي أشرف عليها ص ٤١٦) .

هذا هو جهد أبي هلال في البديع الذي زها به وتاه على هذا الوجه الذي يقول فيه : وقد فرغنا من شرح أبواب البديع ، وتبيين وجوهها ، وإيضاح طرقها ، والزيادة التي زدناها ستة فصول — غير المشتق — وأبرزناها في قوالبها ، من غير إخلال ولا إهذار . وإذا أردت أن تعرف فضلها على ما عمل في معناها قبلها فمثل بينها وبينه ، فإنك تقضي لها عليه ، ولا تنصرف بالاستحسان عنها إليه إن شاء الله [1] .

ضم أبو هلال إلى المحسنات البديعية التي اهتدى إليها ابن المعتز وقدامة هذه المحسنات السبعة ، فتم ما استنبطه وما جمعه من هذه المحسنات ستة وثلاثين نوعاً ، على أن هذه المحسنات لم تبق في اصطلاحات المتأخرين حيث وضعها العسكري وإماماه بديعاً ، بل إن بعضها نقل إلى علمي البلاغة : البيان ، والمعاني . فالاستعارة والتشبيه والكناية احتلت مواضعها من علم البيان ، بل أصبحت أظهر شيء في هذا العلم بعد تنظيم أبوابه وجمع أطرافه ، والتذييل والإيغال والتتميم والتكميل والاعتراض جعلت ضروباً من الإطناب الذي احتلّ مكانه من مباحث علم المعاني ، ولا يعاب العسكري على هذا ، فله ولمن تقدمه فضل السبق ، ولمن جاء بعده التصنيف والتقسيم والإضافة ، ووضع كل شيء موضعه . ولكنه هو الذي راد الطريق ، ويسر السبيل — سبيل الافتنان في الصناعة — فجعلها ابن رشيق القيرواني صاحب العمدة خمسة وستين باباً من الشعر ، وتلاه شرف الدين التيفاشي ، فبلغ بها السبعين ، ثم تكلم فيها ابن أبي الأصبع وكتابه المحرر أصح كتب هذا الفن ، لاشتماله على النقل والنقد ، ذكر أنه لم يؤلفه حتى وقف على أربعين كتاباً في هذا العلم أو بعضه ، وعددها فأوصلها إلى تسعين وادعى أنه استخرج هو ثلاثين سلم له منها عشرون ، وما قبلها متداخل أو مسبوق به ، وصنف ابن منقذ كتاب

---

(١) الصناعتين ٤١٦ .

« التفريع في البديع » جمع فيه خمسة وتسعين نوعاً ، ثم إن السكاكي اقتصر في مفتاح العلوم على سبعة وعشرين ، ثم فعل ما فعل ابن المعتز ، فقال إن لك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت ، وتلقب كلاً من ذلك بما أحببت .

ثم إن صفي الدين بن سرايا الحلي جمع مائة وأربعين نوعاً في قصيدة نبوية في مدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

ثم قسمت هذه البديعات إلى محسنات لفظية ، ومحسنات معنوية فيما بعد . والواقع أن هذا التقسيم غير دقيق ، فإن أكثر هذه المحسنات متداخل بعضها في بعض ، حتى أولئك الذين قسموها هذا التقسيم قالوا ! إن المحسن المعنوي منسوب إلى المعنى أولاً وبالذات ، بمعنى أن ذلك التحسين قصد أن يكون تحسيناً للمعنى ،وذلك القصد متعلق بتحسين المعنى أولاً ومتعلق به لذاته ، وأما تعلق القصد بكونه تحسيناً للفظ فيكون ثانياً بالعرض . وإنما قلنا هكذا لأن هذه الأوجه قد يكون بعضها محسناً للفظ ، لكن القصد الأصلي منها إنما هو إلى كونها محسنة للمعنى كما في « المشاكلة » ، إذ هي ذكر الشيء بلفظ غيره ، لوقوعه في صحبة ذلك الغير كقوله :

قالوا اقترحْ شيئاً نجد لك طبخَه قلتُ اطبخوا لي جبّة وقميصا

فقد عبر عن الخياطة بالطبخ لوقوعها في صحبته ، فاللفظ حسن لما فيه من إيهام المجانسة اللفظية ، لأن المعنى مختلف واللفظ متفق ، لكن الغرض الأصلي جعل الخياطة كطبخ المطبوخ في اقتراحها لوقوعها في صحبته ، فإن تعلق الغرض بتحسينه اللفظي المشار إليه فهو بالعرض وعلى وجه المرجوحية . وقيل إن الحسن فيها لفظي لأن منشأه اللفظ . . . وكما في العكس في قولهم :

---

(١) عروس الافراح ــ شروح التلخيص ج ٤ ص ٤٦٧ .

عادات السادات سادات العادات ، فإن في اللفظ شبه الجناس اللفظي ، لاختلاف المعنى ، ففيه التحسين اللفظي ، والغرض الأصلي الإخبار بعكس الإضافة مع وجود الصحة .

واللفظي تحسين للفظ بالذات ، وإن يتبع ذلك تحسين المعنى ، لأنه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسن معناه تبعاً ، وإن شئت قلت في التحسين المعنوي أيضاً إن كونه بالذات معناه أن ذلك هو المقصود ، ويتبعه تحسين اللفظ دائماً ، لأنه كلما أفيد باللفظ معنى حسن تبعه حسن اللفظ الدال عليه [1] .

وهذا الكلام جيد من غير شك ، لأنه يشير إشارة واضحة إلى التداخل والترابط بين عنصري الأدب ، ويمكن أن يردّ به على أولئك الذين أسرفوا في الانتصار لأحدهما ، والتهوين من شأن الآخر ، كما أشرنا إلى ذلك فيما قبل ، ولكن العجيب أن يصدر مثل هذا الرأي عن أصحاب القواعد المولعين بالحدود والتقسيمات .

وإمام البلاغة عبد القاهر يرى أنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده تجنيساً مقبولاً لا تبتغي به بدلاً ولا تجد عنه حولاً [2] .

فتح أبو هلال باب الصناعة على مصراعيه ، وزها بالمحسنات الستة التي وفق إليها ، ثم بهذا المحسن « المشتق » الذي اهتدى إليه بعدها ، فكان هدف الذين أتوا بعده أن يدركوا من الفخر وأسباب الزهو ما أدرك ، فجدوا ما وسعهم الجد ، وبذلوا في هذه السبيل أقصى ما يبذل من جهد ، حتى اهتدوا إلى هذه المحسنات التي لا يكاد يدركها الحصر .

* * *

ولقد وقفت حركة النقد عند هذه الحدود ، فمات الغراس الذي غرسه

---

(١) مواهب الفتاح ــ شروح التلخيص ج ٤ ص ٢٨٥ .
(٢) أسرار البلاغة ٧ .

رجال النقد الذوقي الذين بدءوا نشاطاً كان أقرب إلى طبيعة الفن الأدبي ، فدرسوا نصوص الأدب ، وبذلوا جهداً في الموازنة والمفاضلة ، والوساطة بين الخصوم والأنصار ، ونقد ما ذهب إليه كلا الفريقين من الغلو والتعنت في الاستحسان أو الاستهجان ، وكان ذلك الأسلوب أجدى في نظرنا ، أولاً لأنه الأسلوب الفطري الذي يحتكم إلى الذوق أول ما يحتكم ، وهو أقرب إلى طبيعة هذا الفن الأدبي ، وثانياً أنه لا يشل حركة النقد ، إذ أن أحكامه متجددة بتجدد الأيام ، وما يستحدث في البيئات من حضارة مادية أو معنوية ، ولكل واحدة منهما أثرها في الأدب والأدباء والنقد والنقاد ، فإن الذوق متجدد بتجدد هذه الأمور ، ولعل هذا هو السر في تحجر البلاغة منذ أصبحت قواعد تتعلم ، وأصولاً تلقن ، وخلافاً كلامياً وعقلياً في فهم الكلمات وصحة التقاسيم ، ولله در ابن قتيبة حين يقول : ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدى وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وفي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه . . . والكلام أربعة أمر وخبر واستخبار ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب ، وهي الأمر والاستخبار والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ، والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا مائة من الوجوه . فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه في كلامه كانت وبالاً على لغته ، وقيداً للسانه ، وعياً في المحافل ، وغفلة عند المتناظرين [1] .

كان لهذه الروح التي تسلطت على البلاغيين أثر واضح في إنتاج الأدب فطغت الصناعة على الأدب طغياناً ظاهراً ، خفيت معه المعاني ، حتى كاد الأدب يصبح صدى لا أصل له ، وجسداً لا روح فيه ، وظل هذا قروناً

(١) أدب الكاتب ص ٣ ، ٤ .

طوالاً ، وظل الأدباء أسرى لهذه القيود التي فرضها النقاد الذين أصبحوا لا يستجيدون الكلام إلاّ بما حوى من ضروب الصنعة وفنون التحسين البديعي ، « وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كما ثقل العروس بأصناف الحلى ، حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها [1] ، حتى لقد أصبح الأدب في بعض العصور بهذه الفنون صناعة أقرب إلى اللهو منها إلى تعبير عن عواطف ، وإعراب عن مشاعر وأحاسيس ، ففسدت أذواق الأدباء بفساد أذواق النقاد ، والبلاغيون هم الذين جنوا على الأدب هذه الجناية بالمقاييس التي ابتدعوها ، والقواعد التي رسموها ، وكبلوا الأدباء بأغلالها .

* * *

ولنا أن نضيف إلى جناية أولئك النقاد من رجال البديع وعشاق التصنيع على الأدب والأدباء ، جناية التاريخ على هذه الأمة العربية وعلى عقليتها ، فإن تلك الأحداث السياسية التي اعتورت هذه البقاع فهزتها هزاً عنيفاً ، تزلزل معه هذا الكيان الراسخ ، وتفرق بدداً ، ثم أولئك الحكام من أولى البطش والجبروت ، وتلك الآفات التي أودت بالأجساد وفتكت بالعقول .

كل أولئك كان له أبعد الأثر في حياة هذه الأمة ، ونشأ عنه الانهيار العقلي ، حين نضبت موارد الفكر ، وحجبت أضواء المعرفة ، وحيل بينها وبين الوصول إلى قرارة القلوب ، ومتبع التفكير ، فعطلت الملكات وفسدت

---

(١) اسرار البلاغة ٧ .

الأذواق لما غلب على الأجساد الإعياء ، وحرمت العقول الغذاء . فلم يكن بد من هذا التردي في التماس الحلي والأصباغ علها تخفي الحقيقة الشوهاء ، وهكذا صار الأدب طلاء على غير بناء ، ولا يزال كذلك حتى تدب الحياة في الأوصال من جديد ، وتبعث الأمة من مرقدها، وتنفض عن نفسها غبار السنين ، وتستعيد مجدها السالف وعزها الموروث في قوة وحياة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مراجع

١ ـ أدب الكاتب : ابن قتيبة .
٢ ـ أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني .
٣ ـ أصول النقد الأدبي : الأستاذ أحمد الشايب .
٤ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة : ابن القفطي .
٥ ـ الإيضاح : الخطيب القزويني .
٦ ـ البديع : عبد الله بن المعتز .
٧ ـ بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : الدكتور إبراهيم سلامة .
٨ ـ البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها : الأستاذ أمين الخولي .
٩ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين السيوطي .
١٠ ـ البيان والتبيين : أبو عثمان الجاحظ .
١١ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان .
١٢ ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب : طه أحمد إبراهيم .
١٣ ـ التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم : أبو أحمد العسكري .
١٤ ـ الحيوان : أبو عثمان الجاحظ .
١٥ ـ الخطابة لأرسطاطاليس : ترجمة الدكتور إبراهيم سلامة .
١٦ ـ دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني .
١٧ ـ ديوان أبي تمام .
١٨ ـ ديوان المعاني : أبو هلال العسكري .
١٩ ـ شروح التلخيص : التفتازاني ، والسبكي ، والمغربي .
٢٠ ـ شرح ديوان الحماسة : المرزوقي .
٢١ ـ الشعر والشعراء : ابن قتيبة .
٢٢ ـ الصناعتين : أبو هلال العسكري .
٢٣ ـ طبقات الشعراء : ابن سلام الجمحي .

٢٤ ــ الطراز : يحيى بن حمزة العلوي .
٢٥ ــ العمدة في صناعة الشعر ونقده : ابن رشيق القيرواني .
٢٦ ــ عيار الشعر : ابن طباطبا العلوي .
٢٧ ــ الفهرست : محمد بن إسحاق النديم .
٢٨ ــ قدامة بن جعفر والنقد الأدبي : الدكتور بدوي أحمد طبانه .
٢٩ ــ قواعد الشعر : أبو العباس ثعلب .
٣٠ ــ الكامل : محمد بن يزيد المبرد .
٣١ ــ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الأثير .
٣٢ ــ معجم الأدباء : ياقوت .
٣٣ ــ المعجم في بقية الأشياء : أبو هلال العسكري .
٣٤ ــ مقدمة كتاب العبر : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون .
٣٥ ــ مفتاح العلوم : أبو يعقوب يوسف السكاكي .
٣٦ ــ من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده : الأستاذ محمد خلف الله
٣٧ ــ منهج البحث في الأدب واللغة : لانسون ــ ترجمة الدكتور محمد مندور
٣٨ ــ الموازنة بين أبي تمام والبحتري : الحسن بن بشر الآمدي .
٣٩ ــ نزهة الألباء في طبقات الأدباء : ابن الأنباري .
٤٠ ــ نقد الشعر : قدامة بن جعفر .
٤١ ــ النقد المنهجي عند العرب : الدكتور محمد مندور .
٤٢ ــ نقد النثر : مقدمة للدكتور طه حسين .
٤٣ ــ الوساطة بين المتنبي وخصومه : القاضي الجرجاني .
٤٤ ــ وفيات الأعيان : أحمد بن محمد بن خلكان .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهرس

مقدمة الطبعة الثانية ٣
مقدمة الطبعة الأولى ٤

(تمهيد ٧ — ١٤)

البلاغة بين التراث العربي ، المنهج العلمي في نقد الأدب ، حملات على البلاغة العربية ، خطة البحث ، منهجه .

الفصل الأول : أبو هلال

(١٥ — ٤٢)

بلده « عسكر مكرم » ، أبو أحمد وأبو هلال ، خلط المؤرخين بينهما . حياة أبي هلال ، أساتذته ، ثقافته ، معنى الأدب . آثار أبي هلال ، كتاب الصناعتين ، كتاب ديوان المعاني ، تحقيق نسبة رسالة « التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم » إلى أبي هلال . أدبه الإنشائي ، نماذج من شعره وكتابته .

الفصل الثاني : النقد والبلاغة قبل أبي هلال

(٤٣ — ٧٢)

تراث الأدب العربي ، منزلة الشعر منه . النقد عند الجاهليين والإسلاميين ومناهجه . ابن سلام وكتابه « طبقات الشعراء » . الجاحظ والبيان العربي . ابن قتيبة وثورته على أحكام القدماء . ابن المعتز والبديع . ابن طباطبا ومنهجه التعليمي في « عيار الشعر » . قدامة والأسلوب العلمي في نقد الأدب . صدى المنهج العلمي : الآمدي والقاضي الجرجاني . النقد والبلاغة ومدى اتصالهما وتباينهما .

الفصل الثالث : منابع بلاغته ونقده

(٧٣ — ٨٨)

رواية أبي هلال ودرايته ، أثر الجاحظ فيه ، بديع ابن المعتز ، ولوع أبي هلال بالصناعة ، متابعته لقدامة في فنون الشعر ، ومقاييس جودتها ، ثم في نعوته التي جعلها من البديع . بينه وبين ابن قتيبة ، تأثره بصاحبي الموازنة والوساطة .

الفصل الرابع : منهج أبي هلال

(٨٩ — ١٢٢)

مدارس النقد ومناهجه ، اللغويون والنحاة والمتكلمون ، مثل لاجتماع هذه المذاهب عند ابن قتيبة . الأهداف التي رمى إليها أبو هلال : البلاغة لإثبات الإعجاز ، البلاغة للأديب ، البلاغة للناقد ، البلاغة للرواية . رأيه في أحكام السابقين . الحاجة إلى منهج جديد ، نفوره من منهج المتكلمين ، سببه ، حقيقته ، رأي عالم معاصر ، أمثلة لأسلوبه الكلامي وأسلوبه اللغوي ، عزوفه عن المنهج التاريخي ، النقد التفسيري ، والمنهج العلمي ، منهج التصنيع.

الفصل الخامس : مقاييسه النقدية

(١٢٣ — ١٨٦)

كلمة في وضع المقاييس للفنون ، الفن والصناعة ، مقاييس الألفاظ ، نظرية « مدار البلاغة اللفظ وتحسينه » مدرسة الجاحظ ، مناقشة هذا الرأي . طبقات الألفاظ : الوحشي والغريب والمشترك . السهل والجزل : المقبول منهما والمردود ، تحسين الألفاظ ، موسيقى الأدب ، الكم في الأسلوب ، العدول عن جهة الاستعمال ، الشاذ ، الضرورات ، التقديم والتأخير . مقاييس المعاني ، المعاني المبتكرة والمعاني المقلدة ، الغلو ، الوحدة « عيب التضمين » ، صحة المعاني . مقاييس لفنون الشعر ، معاني المديح والهجاء والوصف والتشبيب ،

آثار قدامة في هذه المقاييس . معاني الشعر : الحقيقة والخيال ، التشبيه ، مقاييس جودته . الاستعارة : الاستعارة المصيبة ، مقياسها ، الاستعارة الرديئة ، السرقات : رأيه فيها ، توارد الخواطر ، ضروب الأخذ ، مقاييس حسن الأخذ ومقاييس قبحه .

الفصل السادس : مقاييسه البلاغية وأثرها في البلاغة والبلاغيين

(١٨٧ — ٢٣١)

الفصاحة والبلاغة : مشكلة اللفظ والمعنى بين الجاحظ وأبي هلال وابن الأثير وعبد القاهر والعلوي ، رأي للمبرد ، التقليد والتجديد ، تقسيم الألفاظ .

علوم البلاغة وجهود أبي هلال فيها .

من مباحث علم البيان : التشبيه ، الاستعارة ، الخلط بينهما ، الكناية والتعريض .

من مباحث علم المعاني : الإيجاز والإطناب والمساواة ، الإطناب والتطويل ، الفصل والوصل .

علم البديع : جهد ابن المعتز ، جهد قدامة ، أثر أبي هلال ، فنونه السبعة : التشطير ، المجاورة ، التطريز ، الاستشهاد والاحتجاج ، المضاعفة ، التلطف ، المشتق ، جهود المتأخرين في علم البديع . أثر المذهب البديعي في الأدب والنقد .

مراجع الكتاب . . . . . ٢٣٢ — ٢٣٣
فهرس الكتاب . . . . . ٢٣٤ — ٢٣٦

للمؤلف

(أ) الكتب المطبوعة

(١) معروف الرصافي :

دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية .
(الطبعة الثانية : مكتبة الأنجلو المصرية)

(٢) أدب المرأة العراقية :

دراسة في الأدب النسوي ، وتعريف بشواعر العراق .
(الطبعة الأولى : دار العالم العربي)

(٣) أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية :

منابع بلاغته ونقده ، ومنهجه ومقاييسه ، وأثره في البلاغة والنقد .
(الطبعة الثانية : مكتبة الأنجلو المصرية)

(٤) دراسات في نقد الأدب العربي :

بحث في حياة النقد ، وآثار النقاد ، ومناهجهم ، من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث .
(الطبعة الثالثة : مكتبة الأنجلو المصرية)

(٥) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي :

تحقيق لحياته وآثاره ، ودراسة لمنهج جديد في النقد الأدبي
(الطبعة الثانية : مكتبة الأنجلو المصرية)

(٦) السرقات الأدبية :

بحث في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها
(الطبعة الأولى : مكتبة نهضة مصر)

(٧) البيان العربي :

دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية
(الطبعة الثانية : مكتبة الأنجلو المصرية)

(٨) معلقات العرب :

دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر الجاهلي
(الطبعة الأولى : مكتبة الأنجلو المصرية)

(٩) مقدمة في التصوف الإسلامي :

ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي ، وفلسفته في الإحياء
(الطبعة الأولى : دار إحياء الكتب العربية)

(١٠) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :

لضياء الدين بن الأثير : تقديم وشرح وتحقيق
(الطبعة الأولى : مكتبة نهضة مصر)

(ب) تحت الطبع

(١) خريدة القصر ، وجريدة العصر :
للعماد الأصفهاني : تقديم وشرح وتعريف .

(٢) معجم البلاغة العربية :

سجل حافل ، وخلاصة مركزة لجهود البلاغيين ، وفنون البلاغة ومصطلحاتها على مر العصور .

(٣) مجالات البلاغة :

دراسة للمناهج البلاغية ، وأساس لمنهج جديد يبدأ من الغاية التي انتهت إليها ، ويعتمد على المفهوم الحديث للبلاغة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com